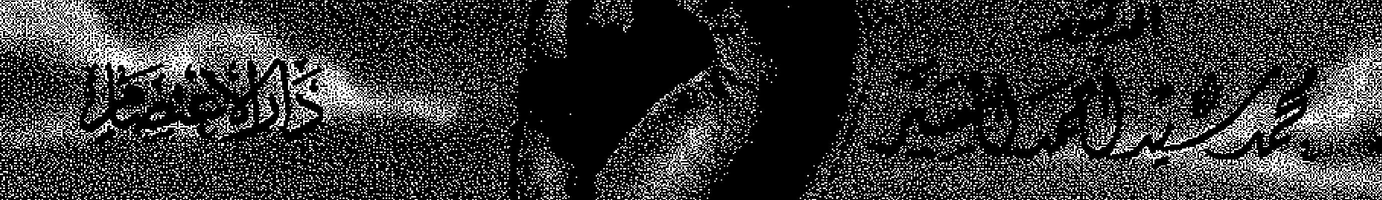
الإلهيات في العقيدة الإسلامية



اهداءات ٢٠٠٢
د/ محمد سيد احمد المسير
القاهرة

الدكتور
محمد سيد أحمد المسير

الإلهيات
في العقيدة الإسلامية

دار الاعتصام

دار الاعتصام للطبع والنشر والتوزيع
٨ شارع حسن حجازي ـ القاهرة
هاتف ٣٥٥١٧٤٨٠ ـ ٣٥٤٤٧٤٨ ـ فاكس ٣٥٤٦٠٣١٠
ص.ب ٤٧٠٠ القاهرة ـ الرمز البريدي ١١٥١١



الحمد لله ، وسلام على عباده الذين اصطفى ..

أما بعـــــد :

فالعقيدة الإسلامية هي الدين القيم ، والفطرة التي فطر الله الناس عليها ، وهي في سموها وجلالها وتآخيها مع العقل ، واستنهاضها لأولى الألباب ، ولفتها الأنظار إلى آيات الأنفس والآفاق .. تعبّر بجلاء عن النبوة الخاتمة ، والرسالة العامة التي بعث الله تعالى بها سيدنا محمداً ﷺ رحمة للعالمين ..

إن عالم اليوم الذي تصارعت فيه القوى والمذاهب ، ووصل إلى درجة التشبع المادي الرخيص ، أصبح يتلهف على عقيدة تؤازر العلم ، وتهب السعادة للنفس الإنسانية ، وتتسامى بعواطف الإنسان وغرائزه إلى آفاق الملأ الأعلى ..

ولن تكون تلك العقيدة إلا عقيدة الإسلام ، الذي ختم الله به الرسالات ، وأتم به النعمة ، ورضيه دينًا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ..

وفي نور هذه العقيدة تأتي هذه الدراسات « الإلهيات في العقيدة الإسلامية » ، تتوخى صفاء الفهم للقرآن المجيد والسنة المطهرة ، في إطار يقظة الفكر ووعي البصيرة وإخلاص النية ..

وجاءت هذه الدراسات في فصول أربعة على النحو التالي :

الفصل الأول : وجود الله تعالى وتوحيده :

ويبدأ هذا الفصل بآيات الأنفس والآفاق – كما حكاها القرآن برهاناً

ساطعاً ، ونوراً مبيناً على قضية القضايا وحقيقة الحقائق والحق الأعلى ، وسقنا تسعة نماذج هى :

١ - أطوار الجنين　　　　٢ - أطوار حياة الإنسان .

٣ - آية الليل والنهار .　　　٤ - آية الشمس والقمر .

٥ - آية النوم .　　　　٦ - آية الدواب والطيور .

٧ - آية الأرض .　　　　٨ - نعمة الماء .

٩ - الجبال الراسيات .

ثم تلا ذلك الحديث عن ضرورة الإيمان للحياة فى جوانبها العلمية والنفسية والأخلاقية والتاريخية .. الأمر الذى يؤكد أن الإيمان صوت الفطرة ، ونداء الواجب ، ومشعل الحضارة ..

ثم حددنا المفهوم الإسلامى للوحدانية كما يلى :

اللّٰه تعالى واحد فى ذاته ، فلا تعدد فى الآلهة ولا تركيب فى الذات .

واللّٰه تعالى واحد فى صفاته ، فلا تعدد فى صفة من صفاته ، ولا تشابه بين صفات الخالق وصفات المخلوق .

واللّٰه تعالى واحد فى أفعاله ، فلا يقبل المساعدة أو المشاركة أو المساندة ، وكل ما فى الوجود فهو أثر من آثار قدرة اللّٰه وحده .

واللّٰه تعالى هو وحده المعبود الحق ، فيجب أن يطاع فلا يعصى ، وأن يشكر فلا يجحد ، وأن يذكر فلا ينسى ، حتى يكون الدين كله للّٰه .

وقد انحرف عن هذا المفهوم الإسلامى ، اليهود والنصارى والمجوس ، وعباد الأصنام ، والصابئة ، والقائلون بالحلول والاتحاد .

وكانت لنا وقفة مع دلائل التوحيد فى سورة البقرة — كنموذج لدلائل القرآن — تلك الدلائل التى تخاطب العقل والقلب معاً ، وتناجى الفطرة فى أعماقها البعيدة ، وتنادى النفس فى خلجاتها القريبة ، وتشد الإنسان إلى مظاهر الجلال والكمال والجمال العليا .

ثم عرضنا لجدل المتكلمين والفلاسفة ، وناقشنا دليل الحدوث ، ودليل الإمكان ، ودليل التوارد والتمانع .

الفصل الثانى : الأسماء والصفات :

ذكرنا فى البداية أهمية الأسماء الحسنى لله تعالى كمعلم هداية ، وموقف حكمة ، ومناط تفكير ، ومجال تأمل فى الدلالة على أكمل الصفات وأجلها وأعلاها لربنا عز شأنه .

ورجحنا أن الأسماء الحسنى لا تنحصر فى عدد ؛ لأن كمالات الله لا تتناهى ، وكان لنا ميل إلى أن الاسم الأعظم ليس لفظاً مخصوصاً ، ولكنه موقف دعاء ينقطع فيه القلب عن الخلق ، ويعظم اتصاله بالملأ الأعلى ، ويقوى الرجاء فى الله وحده .

ثم فصلنا القول في الصفات الإلهية ، وأكدنا أن العقل والنقل يلتقيان على وجوب صفات الجلال والكمال لله سبحانه ، لكن شطحات الفكر دفعت علماء الكلام إلى جدال طويل حول مباحث لا يدركون كنهها ، ولا يعرفون حقيقتها ، ولا يستطيعون لها حلاً مثل : هل الصفات الإلهية عين الذات أو غير الذات ، أو لا عين ولا غير ؟!

وتكلمنا عن المتشابهات فى الصفات ، وعرضنا لمذاهب التفويض والتشبيه والتأويل والإثبات بضوابطه ، وانتهينا إلى أن المذاهب الاجتهادية فى الصفات مقبولة ، ولا تمثل حرجاً فى الدين ، اللهم إلا مذهب التشبيه ، فإن الأكرم للعقل والأصح فى الدين هو نبذ هذا المذهب ، فإن المشبهة — عند حسن الظن — أغبياء جهلاء ، وعند سوء الظن — عملاء دخلاء !!

وكان لنا وجهة نظر حول الذين يخوضون فى الصفات الخبرية ويجمعونها ويجعلونها محور العقيدة وأساس الدين ، فهؤلاء يفتقدون الحس اللغوى البليغ ، وتنقصهم الخشية من الله تعالى .

* * *

الفصل الثالث : رؤية الله تعالى :

اختلف الفرقاء المسلمون فى رؤية الخلائق لربهم سبحانه وتعالى ، وكان موضع الخلاف ومحل النزاع متعدد الجوانب :

– هل رؤية الله تعالى جائزة عقلاً أو مستحيلة ؟

هذه النقطة تعد مدخلاً أساسياً لفهم نصوص القرآن والسنة ، وبناء على جواب هذا السؤال يطرح سؤال تالٍ وهو :

– هل تقع رؤية الخلائق لربهم سبحانه أو لا ؟

لأنه على فرض جواز الرؤية فقد لا تقع ، لأنه ليس كل جائز واقعاً ، فالواقع يحتاج إلى دليل شرعى يؤكد الوقوع .

ولو سلمنا برؤية الخلائق لربهم سبحانه فإن هناك تساؤلات تتوارد :

مَنْ يكون الرائى ؟ هل هم المؤمنون فقط ، أو الخلائق أجمعون ؟

وأين تقع الرؤية ؟ هل فى الدنيا والآخرة ، أو فى الآخرة فقط ؟

وإذا وقعت الرؤية فى الدنيا فهل تقع يقظة أو مناماً ؟

وإذا وقعت فى الآخرة فهل تقع فى الجنة فقط أو فى مواقف خاصة من مواقف الحشر يوم القيامة ؟

هذا هو مجمل الخلاف والبحث .

وقد انتهينا إلى أن الخلاف فى مسألة الرؤية خارج عن دائرة الأصول التى يتعلق بها الإيمان والكفر ، وأن كل الأدلة – من جانب المثبتين والنافين – هى أدلة ظنية ، تقوم على الأولى والأرجح والأقرب لفهم الفريق المجادل ، ولا علاقة لها باليقين الذى هو أساس الإيمان ..

وتفسير النصوص الشرعية بما يؤيد الرؤية أو ينفيها له وجاهته الشرعية واللغوية ، وعملية الترجيح تقوم على التذوق العقلى والحس الدينى ، وقد نرجح أحياناً جانب النفى ، وقد نميل حيناً إلى جانب الإثبات .

* * *

الفصل الرابع : القضاء والقدر :

تتبعنا مادة القضاء والقدر فى البيان القرآنى ، وتكلمنا عن النشأة التاريخية لهذه القضية على عهد رسول الله ﷺ ، ثم أجملنا القضية فى أفقين :

- أفق العلم الإلهى .

- أفق التكليف الإنسانى .

وقد حرص البعض على الأفق الأول وغالى فيه حتى نسى صحة التكليف وحتمية المسئولية ، وجنح البعض إلى الأفق الثانى وركز عليه حتى غفل عن ضرورة إثبات الكمال المطلق للّه عز وجل فى تصريف الكون والكائنات .

وتبلورت الاتجاهات الفكرية فى هذه المذاهب :

الجبرية - القدرية الأولى - المعتزلة - الأشاعرة .

وجاءت خاتمة هذا المبحث بعيدة عن المذاهب ، تؤكد أن الحق أكبر من أن يستوعبه مذهب واحد بعينه ، وأن الذين يتعصبون لأى مذهب بأجمعه إما عامة أو أنصاف علماء .

ورفضنا مذهب الجبر ومذهب القدرية الأولى ، وقلنا : إن أفعال اللّه تعالى مبنية على الحكمة ، وأن الكون كله قائم على تدبير حكيم ، وأن الإنسان وسط هذا الكون ليس مطلق السراح بل هو محكوم بنواميس ثابتة تحيط به وتقع عليه كالصحة والمرض ، والليل والنهار ، وعمل أجهزة جسمه ، ولا يكلف الإنسان بها ولن يحاسب عليها .

أما التكليف والأمر والنهى ، والشرائع والأحكام فهى وحدها التى يقف الإنسان حيالها مختارًا يفعل ما يشاء بما منحه اللّه من طاقات وما هيأ له من أسباب ، وما مكن له من قوى .

وقد أراد اللّه للإنسان هذا الموقف وكلفه على أساس منه ، وفى كلا الحالين أمام التكليف الشرعى بالإيمان أو الكفر ، والطاعة أو المعصية لا يخرج الإنسان عن المراد ؛ لأن اللّه تعالى قد منحه الحرية ولو شاء اللّه سلبها منه ما منعه أحد ، لكنه جل شأنه لم يشأ للإنسان أن يكون مجبورًا .

وعلم اللّه الشامل إنكشاف وليس تأثيراً ، فلا يلزم من العلم الأزلى حمل اللّه الناس على هذا العلم فى مجال التكليف وإلا أصبح إلجاء .

ومقتضى الانكشاف كما يليق بجلال الله وكماله أنه لا يتخلف من حيث هو انكشاف تام ، وليس من حيث إنه حمل على المعلوم .

وأولًا وأخيرًا نردد من أعماقنا قول الخليل إبراهيم عليه السلام :

﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [1] .

أبو حذيفة

د. محمد سيد أحمد المسير

أستاذ العقيدة والفلسفة - جامعة الأزهر بالقاهرة

وجامعة أم القرى بمكة المكرمة

مكة المكرمة في

١٥ من ذي القعدة ١٤١٨ هـ

١٣ من مارس ١٩٩٨م

* * *

(١) سورة الأنعام الآية : ٧٩ .

الفصل الأول

وجود الله تعالى وتوحيده

- آيات الأنفس والآفاق .
- الإيمان ضرورة حياة .
- توحيد الله تعالى .
- جدال فى الله .

المبحث الأول

آيات الأنفس والآفاق

١ – أطوار الجنين .

٢ – أطوار حياة الإنسان .

٣ – آية الليل والنهار .

٤ – آية الشمس والقمر .

٥ – آية النوم .

٦ – آية الدواب والطيور .

٧ – آية الأرض .

٨ – نعمة الماء .

٩ – الجبال الراسيات .

آيات الأنفس والآفاق

يحلو للبعض عند مناقشة قضية وجود الله تعالى أن يقول : ابتعد عن الاستشهاد على تلك القضية بنص قرآنى .

وذلك لمزيد من النزاهة والحيدة والعقلانية ، ولما رسخ فى أذهان الكثيرين من التفرقة بين النص الدينى والدليل العقلى ، إذ الأول مبنى على التسليم بلا مراء ، والثانى مبنى على الجدل والامتراء .

وفى الحق فإن هناك لبساً واضحاً وخلطاً كبيراً بين موقفين :

موقف الكتب المقدسة قديماً ، وموقف القرآن المجيد ، فالكتب المقدسة السابقة اقتصرت على الترغيب والترهيب والوصايا الأخلاقية واكتفت بالإحالة – فى مجال العقائد – على ما ظهر من المعجزات الحسية للأنبياء الذين بعثوا إلى أقوامهم خاصة .

والأمر مختلف تمام الاختلاف بالنسبة للقرآن المجيد ، فهو نفسه المعجزة التى تتراءى للعالمين صباح مساء ، تحمل دليلها معها ، ضرورة أنه الكتاب الخالد للنبى الخاتم .

ومن هنا فإن القرآن كتاب عقيدة وشريعة وليس به قضية بلا برهان ، أو دعوى بلا بينة ، وهو يخاطب العقل ويحتكم إليه فى حال نقائه الفطرى . فالدليل القرآنى المساق تدليلاً على العقائد هو دليل عقلى فى المقام الأول قدم فى ثوب النص الدينى .

واقرأ معى قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَٰفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾ [(١)] .

---

(١) سورة البقرة الآية ١٦٤ .

ألم تجمع هذه الآية الكريمة كل براهين العلم ودلائل العقل ؟!

هل يعد مثل هذه الآية نصاً دينياً أو دليلاً عقلياً ؟!

أليس من الأجدر أن نقول : إن هذا هو القرآن وكفى !!

﴿ .. كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [١] .

فالعقل والإيمان – فى منطق القرآن – توءمان ، لا يوجد أحدهما إلا بالآخر ، فلا عقل لمن لا دين له ، ولا دين لمن لا عقل له .

لقد ربط القرآن حسن التأمل وجودة الفكر بالعقلاء المؤمنين فقال : ﴿ ..فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُوْلِى الأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُواْ ...﴾ [٢] .

وفقد العقل أو الإيمان هو فقد للإنسان نفسه ؛ لأنه لم يعد له الوجود المتميز الذى يستحق به التكريم والخلافة فى أرض الله ، ومثل هؤلاء سماهم القرآن شر الدواب لأنهم لم يستخدموا وسائل المعرفة الصحيحة فى الوصول إلى الحق ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [٣] .

وهؤلاء أنفسهم هم الكافرون الذين ستروا الحق وتمردوا على الحقيقة ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [٤] .

ومن هنا فنحن نسوق نمطاً من آيات الأنفس والآفاق – كما حكاها القرآن – برهاناً ساطعاً ونوراً مبيناً على قضية القضايا ، وحقيقة الحقائق ، والحق الأعلى وهو الله جل شأنه .

* * *

---

(١) سورة هود الآية . ١ .

(٢) سورة الطلاق الآية . ١٠ .

(٣) سورة الأنفال الآية · ٢٢ .

(٤) سورة الأنفال الآية · ٥٥ .

١ - أطوار الجنين :

إن الإعجاز الخِلقي في الإنسان يفوق كل تصور ، وإن جسم الإنسان عجيب التكوين ، فكم لديه من الأعضاء الداخلية والخارجية !! وكم فيه من الغدد والأغشية !! وكم له من الأجهزة الدقيقة !!

إن بداية الإنسان خلاصة من الأغذية تولدت من التراب والماء مباشرة كالنباتات ، أو بطريق غير مباشر كالأغذية الحيوانية .

هذه الخلاصة من الأغذية تحولت إلى نطفة ، هذه النطفة الخاصة بالرجل تلتقي مع بويضة المرأة وتأخذ طريقها إلى الرحم ، ذلك القرار المكين ، ثم تعلق بالرحم وتغوص فيه .

ثم تنتقل هذه العلقة إلى طور آخر هو المضغة ، وهي في الأصل قطعة لحم قدر ما يمضغه الإنسان .

وهذه المضغة منها ما هو كامل الخلقة وأملس من العيوب ، ومنها ما هو على عكس ذلك ، ويتبع هذا التفاوت تفاوت الناس في خلقهم وصورهم ، وتتوالى عناية الله بالجنين فينشئه خلقاً آخر بنفخ الروح فيه ، وإيداع ظاهره وباطنه عجائب الخلق وغرائب التدبير في سرعة نمو مذهلة ، إلى أن تحين لحظة المخاض فيجد الجنين طريقه ميسراً - بقدرة الله العلي الأعلى - فتنقبض أجهزة الأم وتنبسط ، ويصاحبها ، إفرازات معينة حتى يستهل الجنين صارخاً على ظهر هذه الأرض .

أليس هذا إبداعاً تتقاصر دونه كل القوى وتقف أمامه كافة العقول في دهشة وعجب ؟!

لا نملك إلا أن نقول : **فتبارك الله أحسن الخالقين .**

وإذا كنا نعجب من أطوار الجنين وهذا الإبداع المتقن ، فإن عجبنا يشتد ودهشتنا تبلغ مداها حين يكون ذلك قرآناً يتلى على سمع الزمن منذ أربعة عشر قرناً من بيئة أمية ، وفي عصر - تلته عصور - ولا معرفة لهم بعلم الأجنة !!

إنه وحي الله رب العالمين .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ (١) .

٢ - أطوار حياة الإنسان :

تبدأ حياة الإنسان على ظهر الأرض بمرحلة الطفولة التى توصف بوصف عام هو الضعف ، ضعف الإدراك والسعى ، إلا أن الله جل جلاله غرس فيها آلات العلم وهيأ لها أسباب النماء .

قال سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٢) .

ويستمر نماء الطفل حتى يصل إلى مرحلة الشباب التى تمتاز بالنضارة والقوة ونضج العقل ، وتأتى قمة هذه المرحلة فى سن الأربعين ، وهى كمال العقل والرشد والاستواء التام .

قال تعالى : ﴿ .. حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ... ﴾ (٣) .

ويعقب ذلك مرحلة الكهولة والشيخوخة ، وهى تنتهى عوداً إلى بدء ، من القوة إلى الضعف ، ومن الرشد إلى نعاس العقل .

وصدق الله حيث يقول : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ (٤) .

هذه هى مراحل حياة الإنسان لكن هل يضمن كل امرىء لنفسه أن يمر بها جميعاً ؟!!

---

(١) سورة المؤمنون الآية ١٤ .
(٢) سورة النحل الآية : ٧٨ .
(٣) سورة الأحقاف الآية : ١٥ .
(٤) سورة الروم الآية ٥٤ .

كلا .. إن المصير المحتوم – وهو الانتقال من هذه الدنيا – قد يواجه الإنسان طفلاً أو شاباً أو كهلاً أو شيخاً كبيراً ، ولا أحد غير الله يعلم متى يحين الأجل ، وتقف الإنسانية جمعاء حيرى أمام هذا الابتلاء الإلهى ، ونقرأ خاشعين قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ • وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ • وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ • فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ • تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [1] .

٣ - آية الليل والنهار :

نِعَمُ الله على الإنسان لا تُعد ولا تُحصى ، وهى لكثرتها ودوامها قد يغفل الإنسان عن تأملها ، فإن العادة تسقط الدهشة .

والعاقل هو من يتذكر دائماً آلاء الله ويتأمل باستمرار ما يحيط به من مظاهر القدرة الإلهية المبدعة .

من تلك النعم التى قد ينساها المرء أو يتناساها – تعاقب الليل والنهار ، تلك النعمة التى يتوقف عليها حياة البشر والكائنات .

فقد جعل الله النهار معاشاً نسعى فيه ونجدُ ونحصل أرزاقنا ، وجعل الليل لباساً يسترنا بظلمته حتى نقطع الأعمال ونريح الأبدان ، ونسكن فى هدوء .. وهكذا فى تعاقب مستمر .

ولا أحد كلف نفسه الإجابة عن تساؤل هو :

ماذا يحدث لو أن الحياة بدايرها ومستقبلها نهار دائم ؟!

هل يمكن أن يستمر وجود الإنسان ؟!

وماذا يحدث لو أن الحياة كلها ظلام دامس ؟!

هل يمكن أن يسعى الإنسان فى مناكب الأرض ؟!

حول هذه المعانى تأتى آيات من القرآن المجيد تلفت الأنظار إلى تلك النعمة الكبرى فتقول :

---

(١) سورة الواقعة الآية ٨٣ - ٨٧ .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[1] .

ومن عجيب أمر الليل والنهار أنهما يختلفان بالطول والقصر فى الأزمنة صيفاً وشتاء ، ويختلفان بالمواقيت فى الأمكنة ، فكل ساعة عينتها فتلك فى موضع من الأرض صبح ، وفى موضع آخر ظهر ، وفى موضع ثالث عصر ، وهكذا .

وصدق الله حيث يقول : ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾[2] .

٤ - آية الشمس والقمر :

إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، لا يخضعان لغير إرادته سبحانه ، وهما فى نظامهما المحكم لا يتبدلان ما دام هذا الوجود ، قال جل شأنه : ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِى لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[3] .

واقتضت حكمة الله أن تكون الشمس نهارًا ، والقمر ليلاً ، ولا أحد غير الله يستطيع تغيير نظام الكون ، وعندما حاج الملك إبراهيم عليه السلام وجرى بينهما حوار عام حول دلائل الألوهية : ﴿ .. قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ ... ﴾ عندئذ صاح الملك : ﴿ .. قَالَ أَنَا أُحْيِى وَأُمِيتُ ﴾ ، وأتى برجلين محكوم عليهما بالإعدام فعفا عن أحدهما وأعدم الآخر .

وبداهة هذه صورة باهتة ليس فيها خلق الحياة ، ولا خلق الموت ، وكان الحوار أمام الجماهير الغوغاء وليس من شأنها التأمل والتروى ، فانتقل إبراهيم بسرعة إلى موقف آخر صريح : ﴿ .. قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ

---

(١) سورة القصص الآية . ٧١ - ٧٣ .
(٢) سورة الفرقان الآية : ٦٢ .
(٣) سورة يس الآية . ٤٠ .

بِهَا مِنَ الْـمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾[1] .

إن الشمس والقمر يرتبط بهما مواقيت الناس فى عباداتهم ومعاملاتهم ونعلم بهما عدد السنين والحساب ، قال تعالى : ﴿ الشَّمْسُ وَالقَمَرُ بِحُسبَانٍ ﴾[2] : أى بحساب معلوم وتقدير سوى .

وذات يوم انكسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ وصادف ذلك يوم مات ابنه إبراهيم ، فقال الناس : « انكسفت الشمس لموت إبراهيم » أى أنهم ظنوا أن كسوف الشمس فى ذلك الوقت لون من ألوان الحداد على موت إبراهيم .

ولكن الرسول الإنسان - وهو فى موقفه العصيب - لم ينس واجب الدعوة وضرورة تصحيح المفاهيم فقام مسرعاً يجر رداءه حتى دخل المسجد وجمع الناس لصلاة جامعة ثم قال : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا رأيتم ذلك فصلوا وادعوا الله حتي ينكشف ما بكم » .

ثم نزل قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِه اللَّيلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ ولَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لله الَّذِى خَلَقَهُنَّ إن كُنتُمْ إيَّاه تَعْبُدُونَ ﴾[3] .

٥ - آية النوم :

النوم نعمة أسبغها الله تعالى على خلقه ، تمنح الإنسان طاقة يعاود بها نشاطه ويمارس بها أعماله ، فطبيعة الإنسان أنه يحتاج إلى الراحة ولا يستطيع مواصلة العمل بلا انقطاع ، ومن خلال عرض القرآن لآثار رحمة الله فى الكون والكائنات ساق نعمة النوم ممتناً بها على بنى البشر فقال :

﴿ ومِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إنَّ فى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَومٍ يَسْمَعُونَ ﴾[4] .

فالإنسان ينام ليلاً ونهاراً ، بل إن نوم القيلولة مستحب شرعاً ليستعين به المسلم على قيام الليل لمناجاة ربه ..

---

(١) سورة البقرة الآية : ٢٥٨ .
(٢) سورة الرحمن الآية ٥
(٣) سورة فصلت الآية ٣٧
(٤) سورة الروم الآية ٢٣

وهناك من الأعمال مالا ينقطع ليلاً ونهاراً ويتناوبه الناس فى اليوم والليلة ، كحراسة الثغور ، وحفظ المرافق العامة وإدارة بعض المنشآت والمصانع ، فمن يعمل ليلاً ينام نهاراً ، ومن يعمل نهاراً ينام ليلاً ..

وقد وصف القرآن المجيد النوم بأنه سبات أى قاطع للأعمال ، مريح للأبدان فقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴾ (٢) .

وسمى القرآن الكريم النوم وفاة ، وبيَّن أن الله تعالى يقبض الأرواح عند النوم وعند الموت ، لكن الروح تعود لكامل تعلقها بالبدن عند اليقظة ، وتظل في عالم البرزخ بعد الموت .. فقال تعالى : ﴿ الله يَتَوَفَّى الأنفُسَ حِينَ مَوتِهَا وَالَّتِى لَم تَمُتْ فى مَنَامِهَا فَيُمسِكُ الَّتِى قَضَى عَلَيْهَا الْمَوتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إنَّ فى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٣) .

فالنوم أخو الموت ، واليقظة تشبه البعث ، وتلك آية متكررة تنبه الإنسان إلى حقيقة وجوده ، وضرورة الاستعداد للقاء الله ، والحرص على الاستقامة والطهر حتى يبعث مع السعداء فى الجنة خالدين فيها أبداً .. قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيلِ وَيَعْلَمُ مَاجَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُم تَعْمَلُون ﴾ (٤) .

ولهذا علمنا الرسول ﷺ أدب النوم وأدب اليقظة . ففى الصحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « إذا جاء أحدكم فراشه فلينفضه بصنفة (٥) ثوبه ثلاث مرات وليقل : باسمك ربى وضعت جنبى وبك أرفعه ، إن أمسكت نفسى فاغفر لها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين » .

وفى الصحيح أيضاً عن البراء بن عازب رضى الله عنه قال ، قال رسول الله

---

(١) سورة الفرقان الآية : ٤٧ . (٢) سورة النبأ الآية : ٩ .
(٣) سورة الزمر الآية : ٤٢ . (٤) سورة الأنعام الآية : ٦٠ .
(٥) الصنفة بفتح الصاد المهملة وكسر النون وفتح الفاء طرف الثوب .

ﷺ : « إذ أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضجع على شقك الأيمن ثم قل : اللهم أسلمت وجهى إليك ، وفوضت أمرى إليك ، وألجأت ظهرى إليك رغبة ورهبة إليك ، لاملجأ ولا منجى منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذى أنزلت ، وبنبيك الذى أرسلت ، فإن مت من ليلتك فأنت على الفطرة ، واجعلهن آخر ما تتكلم به » .

أما دعاء الاستيقاظ من النوم فهو كما فى صحيح البخارى : « الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور » ..

وخلال النوم يتراءى للإنسان عالم فسيح يتخطى حجب الزمان والمكان ، ويلتقى فيه الماضى والحاضر والمستقبل ، وقد يشف عن بشائر من وراء الغيب ، وتظهر حقائق من الملأ الأعلى ..

ذلك العالم هو عالم الرؤى والأحلام ، وقد قال رسول الله ﷺ : « أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً ، ورؤيا المسلم جزء من خمس وأربعين جزءا من النبوة ، والرؤيا ثلاثة : رؤيا الصالحة بشرى من الله ، ورؤيا تحزين من الشيطان ، ورؤيا مما يحدث المرء نفسه ، فإن رأى أحدكم مايكره فليقم وليصل ولايحدث بها الناس» .

وقد قامت دراسات وبحوث حول النوم والأحلام ، والشعور واللاشعور، والحس الباطن والظاهر ، والنفس والروح .. إلخ .

وكلها تدفعنا إلى اليقين بأن الله هو الخالق المدبر ، يبدع ما نبصر وما لا نبصر ، ويخلق ما قد نعرف أسراره ونواميسه وما قد نقف أمامه حيارى .. !!

٦ - آية الدواب والطيور

خلق الله تعالى الدواب والطيور لحكم جليلة ومنافع عظيمة ، لو تأملها الإنسان لخر ساجداً لله ، مقراً بربوبيته ، خاضعاً لألوهيته ، خاشعاً لقداسته .. فالدواب والأنعام والطيور[1] مسخرة للإنسان رغم كبرها أو صغرها ، وقربها أو بعدها ، وقوتها أو ضعفها .

---

(١) الدواب ما يدب على الأرض ، قيل ماعدا الإنسان والطير ، والأنعام هى الإبل والبقر والغنم والمعز .

وجعلها القرآن آية وبرهانًا على كمال القدرة الإلهية فقال : ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ۝ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ ﴾ (١) .

وجعلها نعمة تستحق الشكر وتستوجب الطاعة لله فقال : ﴿ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ۝ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ۝ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ (٢) .

ودعا القرآن إلى التأمل فيها والبحث عن أسرارها فقال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴾ (٣) .

وقال : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ (٤) .

ثم سلك القرآن هذه الدواب والأنعام والطيور مع منظومة الكون كله في تسبيح خاشع للخالق الأعظم ، وسجود مطلق للبارئ المصور ، وانقياد كامل لله رب العالمين .

ولم يشذ عن هذه المنظومة القدسية إلا الإنسان الظلوم الجهول الذي خان الأمانة ونقض العهد .. قال تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ (٥) .

وقال جل شأنه : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ (٦) .

---

(١) سورة غافر الآيات ٧٩ - ٨١ .
(٢) سورة الزخرف الآيات ١٢ - ١٤
(٣) سورة الملك الآية . ١٩
(٤) سورة الغاشية الآية ١٧
(٥) سورة الحج الآية . ١٨ .
(٦) سورة النور الآية ٤١

وللعلماء وجهان في فاعل «علم» . هما :

١ - علم (الله) صلاته وتسبيحه : أي أن الله يعلم صلاة وتسبيح كل شيء .

٢ - علم (هو) والضمير يعود على كل : أي علم كل من في السموات والأرض والطير كيف يصلي ويسبح لله سبحانه وتعالى .

كما أن للعلماء رأيين في معنى التسبيح هما .

١ - التسبيح المقالي : أي أن لهذه الكائنات تسبيحاً ودعاء بلغة خاصة بها ، الله يعلمها .

٢ - التسبيح الحالي : أي أن هذه الكائنات دالة على تسبيح الله وتنزيهه ، وهي خاضعة خضوعاً مطلقاً لإرادة الله ومشيئته ولا تملك الخروج عن قبضته وحكمته سبحانه .

وساق القرآن موقفاً إعجازياً على عهد سليمان بن داود عليهما السلام ، حين وقف الهدهد غير بعيد ، وأخبر سليمان بما غاب عنه وخفي عليه من نبأ سبأ ، وتعجب الهدهد عجباً شديداً من أمر عقيدتهم الفاسدة وسياستهم الخاطئة فقال : ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ۝ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ۝ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۝ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾[1] .

كما ساق القرآن موقفاً بالغ التحدي ارتبط بأضعف المخلوقات ، وهو الذباب ، وذلك حين دعا الآلهة المزعومة وعبادها الجهلاء أن يخلقوا ذباباً أو أن يستردوا ما يسلبه الذباب منهم ..

قال جل شأنه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾[2] .

---

(١) سورة النمل الآيات ٢٤ - ٢٦ . (٢) سورة الحج الآية ٧٣ .

هذا وقد تحدث القرآن كثيراً عن منافع الدواب والأنعام والطيور فى السلم والحرب ، فى الحضر والسفر ، فى الرخاء والشدة .

لقد أحل الله لحوم الأنعام وشحومها ، فقال : ﴿ .. أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ... ﴾ [1] .

وأخرج لنا ألباناً عذبة المذاق ، شهية الطعم ، غنية الفائدة فقال : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴾ [2] .

وجعل من رحيق النحل شفاء وغذاء ، فقال : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [3] .

وهيأ الله لنا من الجلود والأصواف الدفء والجمال ، فقال : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [4] .

وذلل الله الخيل فى ميدان القتال ، والحمير والبغال والإبل لحمل الأثقال ، والكلاب للصيد فى الفيافى والخلاء .

فمن الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ؟!

ومن الذى أبدع الكائنات ونوعها ؟!

ومن الذى ألهم المخلوقات وسخرها ؟!

ومن الذى أحصى كل شىء عددا ؟!

إنه الله الواحد القهار .

---

(١) سورة المائدة الآية : ١ .

(٢) سورة النحل الآية . ٦٦ ، والفرث ما فى كرش الحيوان من فضلات الطعام .

(٣) سورة النحل الآيتان ٦٨ ، ٦٩

(٤) سورة النحل الآية ٨٠ .

٧ - آية الأرض :

وحه القرآن بصائر دوى التمييز إلى بداية الخلق للأرض والسماء ، ونشأة الكون فقال : ﴿ **أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْـمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ** ﴾ [١] .

وذكر القرآن مراحل الخلق وجعلها ثلاثاً متساوية فى الزمن :

١ – مرحلة خلق الأرض فى يومين .
٢ – مرحلة خلق الكائنات وتهيئة الكون لحياة البشر فى يومين .
٣ – مرحلة خلق السماء والملكوت الأعلى فى يومين .

قال تعالى : ﴿ **قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً** [٢] **لِّلسَّائِلِينَ ۝ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۝ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ** ﴾ [٣] .

وأشار القرآن إلى تشابه خلق الأرض والسماء ، فقال : ﴿ **اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ...** ﴾ [٤] .

وهذه الإشارات القرآنية تفتح آفاقاً واسعة أمام البحث العلمى ، والدراسات الكونية التى تنقب عن نشأة الكون وبداية الخلق وأسرار الطبيعة ، ونواميس الكائنات .

فما المقدار الزمنى لليومين ؟

---

(١) سورة الأنبياء الآية : ٣٠ .
(٢) سواء أى تمت عملية الخلق فى أربعة أيام كاملة مستوية ، وقوله للسائلين . أى هذا الجواب لأجل من سأل فى كم خلقت الأرض وما عليها ؟
(٣) سورة فصلت الآيات : ٩ – ١٢ .
(٤) سورة الطلاق الآية : ١٢ .

وكيف انفصلت الأرض عن السماء ؟

وما مفهوم مثلية الأرض للسماء ؟

وكيف تهيأت الأرض لسكنى البشر ؟

تساؤلات لم يقطع العلم بالجواب عنها ، وسيظل يواصل مسيرة بحثه جيلاً بعد جيل ، ولن يعرف الكلمة الأخيرة .

والإنسان في وجوده على ظهر هذه الأرض ليس هو الأول ، وليس هو الآخر ، بل سبقته أجيال وكائنات ، ويلحق به أجيال وكائنات ، يخلف بعضهم بعضاً فى حركة دائمة لا تعرف الانقطاع حتى يأتى وعد الله ، ويجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم .

وهذا الاستخلاف المتوالى قد يكون نتيجة سنة إلهية كونية هى الموت ، أو نتيجة سنة إلهية عقابية هى عذاب الاستئصال الذى يلاحق المستكبرين الطغاة .

وقد وصف القرآن الكريم البشر بأنهم خلائف فقال : ﴿ **وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾[1] .

وأكد القرآن الكريم ضرورة أخذ العبرة من التاريخ ، فقال : ﴿ **وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ۞ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِى الأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ** ﴾[2] .

وأعلن القرآن الكريم الحقيقة الكاملة وهى أن البداية من الله ، وأن النهاية إلى الله ، وأن الكون بأجمعه والكائنات كلها تفنى ، وأن البقاء الحقيقى المطلق إنما هو لله وحده ، فقال : ﴿ .. **وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** ﴾[3] .

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٦٥ .

(٢) سورة يونس الآيتان . ١٣ ، ١٤

(٣) سورة آل عمران الآية . ١٨٠ .

﴿ .. كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (١) .

إن الأرض وضعها الله لخلقه ، وجعلها ذلولاً هينة صالحة لاستقرار البشر واستمرار حياتهم ، ومهدها تمهيداً طيباً مباركاً موائماً لمصالح الأحياء ، وهى وعاء ومهاد وفراش بضم هؤلاء الأحياء أثناء حياتهم وبعد مماتهم ، فهى المستقر والمستودع .. قال تعالى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ۞ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴾ (٢) .

إن هذه الآية الكبرى لم تكن مصادفة ولا عبثاً ، وإنما هى تدبير العليم الحكيم ، والذين يحاولون تشويه الفطرة والانحراف بالبحث العلمى ويطلقون دعاوى كاذبة حول بدء الخلق وتفسير الحياة بمفهوم مادى – هؤلاء يخدعون أنفسهم أولاً ، ويظلمون العلم ثانياً ، ويضللون البشر ثالثاً ، ويقعون فى خطايا عقدية وفكرية لا حصر لها .

قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ النَّارِ ﴾ (٣) .

وقال جل شأنه : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ۞ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٤) .

ويأتى السؤال الأهم ، ويقترن به صوت الفطرة ينادى بالجواب الصحيح :

﴿ قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٥) .

٨ - نعمة الماء :

الماء عنصر ضرورى لكل كائن حىّ ، وقدرة الله فائقة فى تيسيره لبنى

---

(١) سورة القصص الآية ٨٨ .

(٢) سورة المرسلات الآيتان ٢٥ ، ٢٦ .

(٣) سورة ص ، الآية : ٢٧

(٤) سورة الدخان الآيتان ٣٧ ، ٣٨ .

(٥) سورة المؤمنون الآيتان ، ٨٤ ، ٨٥ .

الإسان ، فالماء يتبخر من البحار والمحيطات ، ويتصاعد في أجواء الفضاء فتحمله السحب ، ويبسطه الله في السماء كيف يشاء فيصيب به من يشاء ، ويصرفه عمن يشاء .

وقد أطلق على السحاب في القرآن الكريم لفظ السماء ، وهي كل ماعلاك ، قال جل جلاله : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا ... ﴾[1] ، كما أطلق عليه لفظ المعصرات وهي السحائب المحملة بالماء تعصر فيخرج منها الماء ، قال سبحانه : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴾[2] .

وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن ماء المطر لا يضيع لوقته ، ولا يذهب سدى ، وإنما قدرة الله سلكته ينابيع في الأرض ، وهي العيون والمجارى المائية حتى ينتفع به الناس على مدار حياتهم .

كما شاءت إرادة الله أن ينزل الماء بقدر حاجة البشر لا بزيادة فيحصل الطوفان ، ولا نقص فيحصل القحط العام ، قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ... ﴾[3] .

لكن لنتذكر دائماً أن القادر على المنح قادر على المنع ، وأن توافر النعمة لا يحول دون سلبها متى توجهت الإرادة الإلهية ، ولهذا قال جل شأنه في ختام الآية السابقة : ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴾ .

وفي تعجب عجيب يوجه القرآن المجيد تساؤلاً لبني البشر هو :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴾[4] بداهة لا نملك إلا أن نقول : الله رب العالمين .

إن من مظاهر نعمة الله في الماء أنه يصادف الأرض القاحلة الجرداء فتتحول بقدرة الله المبدعة إلى أنواع شتى من النباتات ، مختلفة الأشكال والأحجام ،

---

(١) سورة ق ، الآية : ٩ .
(٢) سورة النبأ الآية : ١٤ .
(٣) سورة المؤمنون الآية : ١٨ .
(٤) سورة الملك الآية : ٣٠ .

والطعوم ، والروائح ، قال جل ذكره : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (١) .

لقد نبه القرآن الكريم إلى ضرورة التأمل فى هذه الظاهرة وجعلها دليلاً على قدرة الله على بعث الإنسان من قبره ، وقيامته للحساب والجزاء ، وأطلق القرآن على الأرض قبل نزول المطر أوصافاً معبرة :

فهى أرض هامدة ، لا حراك فيها ، فإذا هطل المطر تحركت ، فانشقت الأرض وخرج النبات ، وعلت الخضرة ، وتنوعت البركات ، ونشطت الزراعة والتجارة والصناعة ، وكثر سعى الناس .

قال تعالى : ﴿ .. وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴾ (٢) .

وهى أرض ميتة ، لا حياة فيها أو عليها ، فإذا نزل الماء تكاثرت الأحياء النباتية والحيوانية والإنسانية ، فالنبات أنواع شتى ، والكائنات الحية تتحرك فى جوف الأرض وعلى ظهرها ، والإنسان يجد ما به حياته من المآكل والمشارب والمأوى .. فالحياة كلها مرتبطة بالماء .

قال تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ * لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ (٣) .

وهى أرض خاشعة ، ساكنة ، لا شىء يتحرك فوقها ، ولا شىء يهتز فى

---

(١) سورة الرعد الآية : ٤ .

(٢) سورة الحج الآيتان ٦ ، ٧ .

(٣) سورة يس الآيات ٣٣ - ٣٥ .

جناتها ، وكل ما يحيط بالإنسان ساكن لا تسمع له همساً .. فإذا جاء المطر وسالت الأودية بدأ كل شيء يخرج عن سكونه ، ويظهر آثار وجوده ، ويتقلب ذات اليمين وذات الشمال ، وتسمع هدير الماء وتغريد الطيور وحفيف الأشجار ، وأصوات جميع الكائنات ، فالكل في حركة ونشاط وتكاثر .

قال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) .

وهي أرض جرز ، خلت من النبات ، وأصبحت جرداء قاحلة ، فإذا وصلها الماء وتغلغل في أحشائها أثمرت من كل زوج بهيج ، وتجمع فيها الناس وتقاطر عليها الدواب والأنعام ، وقام العمران البشري ، وشيدت الحضارة ، وانتفع الجميع بآثار رحمة الله .

قال تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ (٢) .

هذا ومن دلائل نعمة الماء على قدرة المولى العظيمة أننا نجد بين جنبات الأرض أنهاراً عذبة وبحاراً ملحة ، وقد يكونان متجاورين متلاقيين ، لا فصل بين الماءين في مرأى العين ، ومع ذلك لا يتمازجان ، ويبقى لكل منهما خصائصه ومميزاته .

قال تعالى : ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ، بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴾ (٣) .

ومن تمام النعمة أن هذه المجاري المائية تحوي ثروات ضخمة ، معدنية وحيوانية ، عبر عنها القرآن المجيد بقوله : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٤) .

---

(١) سورة فصلت الآية : ٣٩ .
(٢) سورة السجدة الآية : ٢٧ .
(٣) سورة الرحمن الآية : ١٩ .
(٤) سورة فاطر الآية : ١٢ .

ولعل السر في ملوحة البحار والمحيطات أنها ساكنة ، غير متجددة كالأنهار ، فلو كانت عذبة لفسدت على مدى الزمن ، وفسد الوجود تبعاً لها ، هواء وحيوانا .
لكنها حكمة الله وقدرته !!

٩ - الجبال الراسيات :

يولد الإنسان على الأرض ، ويعيش على ظهرها ، ويدفن فيجوفها .. ولا يدرى كيف تهيأت له سكناً وسعياً ؟!!

ولا كيف مهدت له هذا التمهيد الموائم لمصلحته والموافق لطبائعه ومعايشه ؟!

إن من المعلوم جغرافياً أن اليابسة تمثل نسبة صغيرة من حجم الكرة الأرضية التى تسبح فى بحيرة مائية عاتية .

ولو تركت وشأنها لتأرجحت ، ولما استطاع الكائن الحى أن يستقر عليها .

ولكن حكمة الخلق وإبداع الصنع اقتضى أن تكون الجبال الراسيات أوتاداً للأرض حتى لا تضطرب بمن عليها .

وقد عبر القرآن العظيم عن هذا المعنى بأكثر من أسلوب بيانى معجز .

قال الله تعالى : ﴿ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ... ﴾[1] .

أى خلق على الأرض جبالاً ثوابت لئلا تضطرب ولا تصلح حينئذ لسكنى بنى البشر .

وقال سبحانه فى معرض الامتنان على خلقه : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ ﴾[2] .

أى جعل فى الأرض جبالاً لها قمم عالية وارتفاعات شاهقة حتى تثبت على الأرض وتثبتها .

ومن المعروف جيولوجياً أن الجبال مكمن المعادن والثروات الطبيعية ، وقد أشار القرآن المجيد إلى ذلك فقال :

---

(١) سورة النحل الآية . ١٥ .　　(٢) سورة المرسلات الآية ٢٧ .

﴿ .. وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ (١) .

الجدد جمع جدة - بالضم - وهى الطريقة ، والغرابيب جمع غربيب - على وزن قنديل - وهو الأسود الحالك السواد .

والجبال قد خلقت مختلفة الألوان ، بل إن اللون الواحد فى بعضها قد تتخلله ألوان مغايرة ، فهذا التباين فى الألوان هو نابع من تباين الطبيعة الصخرية للجبال ، ومن تباين المعادن المتراكمة عليها .

أفلا تستحق هذه الشوامخ التى تطل علينا ، نظرة تأمل ، ووقفة عبرة فى إطار الكون البديع ؟!

هل وُجدت هذه الشوامخ مصادفة ومن غير حكمة ؟!

ومن الذى استودعها هذه الخيرات التى تتجلى عبر القرون والأجيال ؟!

إن النظرة الدقيقة الفاحصة تصل بالإنسان العاقل إلى أن الجبال أثر من آثار القدرة الإلهية المبدعة ﴿ صُنع اللّه الّذى أتقن كُلّ شَىْءٍ ﴾ .

وصدق الله حيث يقول : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ (٢) ؟!

ولعل السر فى الجمع بين الإبل والسماء ، والجبال والأرض هو التقاط صورة للكون بأجمعه أمام العربى فى باديته حين نزل القرآن ، فالعربى يرعى إبله التى تمثل ثروته الأساسية ، فى بطون أودية الجبال ، والسماء فوقه ، والأرض تحته ، وعلى مدى البصر .

وهذه الصورة للكون بأجمعه تتراءى بلفظها أو معناها للإنسان فى كل زمان ومكان ، تدعوه إلى نظر الاعتبار والتعجب .

* * *

---

(١) سورة فاطر الآية ٢٧ .

(٢) سورة الغاشية الآيات ١٧ - ٢٠ .

المبحث الثانى

الإيمان ضرورة حياة

* الإيمان ضرورة علمية .
* الإيمان ضرورة نفسية .
* الإيمان ضرورة أخلاقية .
* الإيمان ضرورة تاريخية .
* تنبيه وتقرير .

الإيمان ضرورة حياة

(أ) الإيمان ضرورة علمية :

هناك شبه أسطورة تقول : إن الدين والعلم نقيضان ، وقد تكونت تلك الأسطورة منذ عصر النهضة فى أوربا بعد أن قاسى البحث العلمى من عوامل التدمير ومعاول الهدم على أيدى رجال الكنيسة الذين أزهقوا الأرواح ، ونكلوا بالعلماء فى صورة من الوحشية والقسوة باسم الكنيسة والمسيحية .

ومن الأمثلة على ذلك [1] :

١ - كوبر نيكوس :

عاش داخل الكنيسة احتيالاً على رجالها حتى يستطيع دراسة العلوم ، لأن التعليم كان مقصوراً على طبقة الكهان .

وقد تفرغ لدراسة علم الفلك بعد أن اعتاد أن يتسلق سور الكنيسة ليلاً لمواصلة بحثه الذى انتهى بأن الأرض تدور حول الشمس ، وأن حركة النجوم حول الأرض حركة ظاهرية يمكن تفسيرها بدوران الأرض حول محورها مرة كل يوم .

وحين توصل إلى هذه النتيجة كان قد بلغ سن الأربعين ، وظل محتفظاً باكتشافاته خوفاً من غضب رجال الكنيسة ، ولم يبح بها إلا لفئة قليلة ومن أخلص أصدقائه ، وقبيل وفاته قرر أن يعلن كتاباته ، فظهر كتابه عام ١٥٤٣م وهو العام الذى مات فيه ، وظلت الكنيسة تطارد كتبه بعد ذلك وتصادرها .

٢ - برونو :

كان قسيساً وقام بدور مهم فى دراسة علم الفلك سراً فى صومعته ، ولكن

---

(١) راجع كتاب « نافذة على الكون » د. امام إبراهيم أحمد ص ٤٤ - ٥٢ ، ط دار القلم سنة ١٩٦٥م .

أمره وصل إلى رؤسائه فهددوه بأشد العقاب ، فاضطر إلى الهرب من وطنه إيطاليا إلى سويسرا ، واعتبرته الكنيسة عدوها الأول ، وظلت تطارده حتى ألقى القبض عليه وأودع السجن ثماني سنوات عسى أن يرجع عن رأيه ، وأخيراً أعدم حرقاً في روما عام ١٦٠٠م .

٣ - جاليليو :

أول من استخدم المنظار لدراسة الأجرام السماوية ، واكتشف مجموعة من الكواكب ، الأمر الذى أثار عليه غضب رجال الكنيسة الذين أرسلوه إلى روما لمحاكمته ، وتحت تأثير التعذيب تراجع عن آرائه وأعلن ذلك أمام جمهورة كبيرة فى الكنيسة .. ومع ذلك ظل سجيناً لا يتحدث إلى أحد حتى مات عام ١٦٤٢م .

* * *

وحسب القارئ لهذه الفترة أن يصدم بصكوك الغفران ، ومحاكم التفتيش ليرى كيف كانت الكنيسة حجر عثرة فى سبيل التقدم العلمى .

ومن هنا انطلق الباحثون فى شبه بلبلة فكرية إلى إنكار مباحث الألوهية والقول بأن الكون يقوم وحده .

غير أن الحقيقة الضائعة هنا أن هؤلاء الباحثين لم يستطيعوا التفرقة بين الدين كرسالة إلهية سامية ورجال الكنيسة كبشر ، فتكونت عقدة نفسية لدى الباحثين استحكمت حلقاتها .

حتى إن الفيلسوف الفرنسى جان جاك روسو (١٧١٢ - ١٧٧٨م) يقسم المسيحية إلى قسمين [١] :

١ - مسيحية الإنجيل .
٢ - مسيحية القساوسة .

ويعتقد أن المسيحية الأولى ليست مملكتها فى هذا العالم ، وهى تبشر بالعبودية

---

(١) راجع كتاب العقد الاجتماعى ترجمة عادل زعيتر أو عبد الكريم أحمد

والطاعة ، وروحها ملائمة للطغيان ، فإن استطاع طاغية أن يفرض نفسه على مواطنيه ويستولى على السلطة فسرعان ما يصير موضع تكريم ، لأنه إرادة الله ، وإذا أساء الحاكم فى تصرفاته نظر إليه باعتباره العصا التى يعاقب بها الرب عباده .

والجندى المسيحى يعرف كيف يموت أكثر مما يعرف كيف ينتصر ، وما يقال عن انتصارات الصليبيين لا ينسب إلى المسيحيين الحقيقيين بالمعنى الحرفى .

فالإنجيل لا يؤسس دولة ، والمسيحيون الحقيقيون خلقوا ليكونوا عبيداً ، وكل حرب مقدسة عند النصارى تكون مستحيلة ، لأن استعمال العنف وسفك الدماء لا يتفق مع الوداعة المسيحية .

وأما مسيحية القساوسة فتعطى للناس تشريعين ورئيسين ووطنين ، أحدهما دينى والآخر مدنى ، وتخضعهم لواجبات متناقضة ، وتقوم على أكاذيب تخدع الناس وتجعلهم بلهاء يؤمنون بالخرافات ، ويعرقون عبادة الله الحقيقية فى طوفان من الطقوس الجوفاء ، وهى دين متعصب يجعل الشعب سفاكًا لا يعيش إلا على دماء القتلى والمذابح وفى صراع دائم مع جميع الشعوب .

وقد نادى الفيلسوف الألمانى فردريك نيتشه (١٨٤٤ - ١٩٠٠م) بموت الإله ووصف طلاسم الكنيسة وكهنوت رجالها وصفاً ساحراً فقال[١] :

« انظروا إلى المساكن التى باها هؤلاء الكهنة وقد سموها كنائس وما هى إلا كهوف تنبعث منها روائح التعفن ، وهل للروح أن ترتفع إلى مستواها تحت لألآء هذه الأنوار الكاذبة ، وفى هذا الجو الكثيف حيث لا يسود إلا عقيدة تصم الناس بالخطيئة وتأمرهم بصعود درجات الهيكل زحفاً على الركب ؟!

إنى لأفضل أن أنظر إلى اللحظات الفاحشة من أن أرى هذه العيون أطبقت أجفانها معلنة خشوعها واستغراقها .. ويستطرد فى وصف الكهنة قائلاً :

لقد أراد هؤلاء الكهنة أن يعيشوا كأشلاء الموتى فسربلوا جثثهم بالسواد ، فإذا ألقوا مواعظهم انتشرت منها رائحة اللحود .

---

(١) هكذا تكلم زرادشت ترجمة فليكس فارس .

إن من يجاور هؤلاء الناس فكأنما هو ساكن على ضفة الأنهار السوداء حيث لا يسمع إلا نقيق الضفادع الحزين » .

وعندما تحطمت الكنيسة وسقطت أغلالها بجهود العلماء والثائرين ، وتم فصل الدين عن الدولة فى أوربا انحلت العقدة وظهرت الحقيقة التى لا مرية فيها وهى أن الكون لابد له من مبدع .. وأن الحياة لابد لها من واهب .

وهذا هو مدير أكاديمية العلوم فى نيويورك يقول فى كتابه (الإنسان لا يقوم وحده) :

« إن البشر لا يزالون فى فجر العلم ، وكلما ازداد العلم ضياء جلا لنا شيئاً فشيئاً صنعة خالق مبدع ، ففى السنوات التسعين[1] التى مضت منذ عهد داروين تمت للعلماء مكتشفات هائلة ، والتقدم فى العلم يدنو بنا شيئاً فشيئاً إلى معرفة الله ، فطريق العلم يسير بنا إلى الإيمان به ولا يبتعد بنا عن ذلك أبداً .

والمعادلات الرياضية إذا طبقناها على نظام الكون تجعل عامل المصادفة فى ظهور الحياة احتمالاً لا يبلغ واحداً من ملايين .

كما أن سعة حيلة الحياة فى تحقيق أغراضها يدل على عقل منبث فى أنحائها جميعاً .

وحكمة الحيوان تنطلق بلسان لا ترد حجته بأن لها خالقاً كريماً بث الغريزة فيها ، فالرحلات الطويلة الوعرة التى يقوم بها كل من سمك السالمون وثعبان البحر تتم فى ظروف تجعلنا لا نستطيع أن نعلل ذلك بالتكيف والملاءمة بل لابد وأن هذه الرحلات تتم على هدى غريزة موهوبة ممنوحة .

وذات يوم قام الصحفى (جون كلوثر مونسما) بتقديم هذا السؤال :

هل تعتقد فى وجود الله ؟

وكيف دلتك دراستك وبحوثك عليه ؟

وتوجه به إلى طائفة من العلماء المتخصصين فى سائر فروع العلم من الكيمياء

---

(١) كان ذلك فى أوائل السبعينات .

إلى الفيزياء ، إلى الأحياء ، إلى الفلك ، إلى الرياضيات ، إلى الطب .. إلى غير ذلك .

وأجاب هؤلاء العلماء مبينين الأسباب العلمية التى تدعوهم إلى الإيمان بالله وصدر كتاب يحمل اسم : (الله يتجلى فى عصر العلم)[1] .

وقد ناقش أحدهم وهو الدكتور (فرانك ألن) عالم الطبيعة البيولوجية قضية المصادفة وقال :

« إذا لم تكن الحياة قد نشأت بحكمة وتصميم سابق فلابد أن تكون قد نشأت عن طريق المصادفة ، فما هى تلك المصادفة إذن حتى نتدبرها ونرى كيف تخلق الحياة ؟!

إن نظريات المصادفة والاحتمال لها الآن من الأسس الرياضية السليمة ما يجعلها تطبق على نطاق واسع حيثما انعدم الحكم الصحيح المطلق ، وتضع هذه النظريات أمامنا الحكم الأقرب إلى الصواب مع تقدير احتمال الخطأ فى هذا الحكم .

ولقد تقدمت دراسة نظرية المصادفة والاحتمال من الوجهة الرياضية تقدماً كبيراً حتى أصبحنا قادرين على التنبؤ بحدوث بعض الظواهر التى نقول إنها تحدث بالمصادفة ، والتى لا نستطيع أن نفسر ظهورها بطريقة أخرى مثل (قذف الزهر فى لعبة النرد) وقد صرنا بفضل تقدم هذه الدراسات قادرين على التمييز بين ما يمكن أن يحدث بطريق المصادفة وما يستحيل حدوثه بهذه الطريقة ، وأن نحسب احتمال حدوث ظاهرة من الظواهر فى مدى معين من الزمان ، ولننظر الآن إلى الذى تستطيع أن تلعبه المصادفة فى نشأة الحياة :

إن البروتينات من المركبات الأساسية فى جميع الخلايا الحية وهى تتكون من خمسة عناصر هى : الكربون ، والأيدروجين ، والنيتروجين ، والأكسجين ، والكبريت ، ويبلغ عدد الذرات فى الجزىء البروتينى أربعين ألف ذرة (٤٠٠٠٠) ذرة ، ولما كان عدد العناصر الكيماوية فى الطبيعة ٩٢ عنصراً موزعة كلها توزيعاً عشوائياً ، فإن احتمال اجتماع هذه العناصر الخمسة لكى تكون جزيئاً من جزيئات

---

(١) ترجمة د. الدمرداش د. المجيد سرحان

البروتين يمكن حسابه لمعرفة كمية المادة التى ينبغى أن تخلط خلطاً مستمراً لكى تؤلف هذه الجزىء ، ثم لمعرفة طول الفترة الزمنية اللازمة لكى يحدث هذا الاجتماع بين ذرات الجزىء الواحد .

وقد قام العالم الرياضى السويسرى (تشارلز يوجين جاى) بحساب هذه العوامل جميعاً فوجد أن الفرصة لا تتهيأ عن طريق المصادفة لتكوين جزىء بروتينى واحد إلا بنسبة واحدة إلى رقم عشرة مضروباً فى نفسه مائة وستين مرة (١ - ١٠ ١٦٠) وهو رقم لا يمكن النطق به أو التعبير عنه بكلمات ، وينبغى أن تكون كمية المادة التى تلزم لحدوث هذا التفاعل بالمصادفة بحيث ينتج جزىء واحد أكبر مما يتسع له كل هذا الكون بملايين المرات .

ويتطلب تكوين هذا الجزىء على سطح الأرض وحدها عن طريق المصادفة بلايين لا تحصى من السنوات قدرها العالم السويسرى بأنها عشرة مضروبة فى نفسها مائتين وثلاثا وأربعين مرة من السنين (١٠ ٢٤٣) .

إن البروتينات تتكون منْ سلاسل طويلة من الأحماض الأمينية ، فكيف تتألف ذرات هذه الجزيئات ؟! إنها إذا تآلفت بطريقة أخرى غير التى تتآلف بها تصير غير صالحة للحياة ، بل تصير فى بعض الأحيان سموماً ، وقد حسب العالم الإنجليزى (ج . ب . ليثز) الطرق التى يمكن أن تتآلف بها الذرات فى أحد الجزيئات البسيطة من البروتينات فوجد أن عددها يبلغ البلايين (١٠ ٤٨) وعلى ذلك فإنه من المحال عقلاً أن تتآلف كل هذه المصادفات لكى تبنى جزيئًا بروتينياً واحداً .

ولكن البروتينات ليست إلا مواد كيموية عديمة الحياة ، ولا تدب فيها الحياة إلا عندما يحل فيها ذلك السر العجيب الذى لا ندرى من كنهه شيئاً ، إنه العقل اللانهائى ، وهو الله وحده الذى استطاع أن يدرك ببالغ حكمته أن مثل ذلك الجزىء البروتينى يصلح لأن يكون مستقراً للحياة فبناه وصوره وأغدق عليه سر الحياة » ا هـ [1] .

* * *

---

(١) الله يتجلى فى عصر العلم ص ٩ .

(ب) الإيمان ضرورة نفسية :

الإيمان ضرورة تحتمها الحياة النفسية لبنى البشر ، والإنسان إذا أظلم عليه السبيل أو هاله ليل أو جاءته ريح عاصف - رجع إلى صوت الفطرة وتضرع إلى الله وحده رجاء كشف الضر فتتداركه عناية الله وتسبغ عليه من النعم ظاهرها وباطنها ، لكنه هو الإنسان الظلوم الجهول ما يكاد يستشعر نسطة جسم أو فضل نعمة حتى يقول - كما قال قارون : ﴿ إنَّمَا أوتِيته عَلَى عِلم عِندى ﴾ .

وصدق الله حيث يقول : ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا من هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ [1] .

وفى تصوير معجز لحال الإنسان المضطربة أمام اعترافه بخالقه والمهيمن عليه يقول القرآن المجيد أيضاً :

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ [2] : أى أنه فى حال شدة البحر وإشراف الإنسان على الغرق ينسى جميع الشركاء ولا يعتقد إلا فى قدرة الله جل جلاله ، فيحقق الله رجاءه وينقذه مما فيه من أهوال ولكن الإنسان تلهيه النعمة : ﴿ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا ﴾ .

وهل نسى الإنسان أن إله البحر هو إله البر ، وأن صاحب الهيمنة المطلقة هو الله وحده .

﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴾ [3] .

وأيضاً أليس من الممكن أن تعود الشدة ويقف الإنسان نفس الموقف السابق يحيط به الموج من كل مكان .

---

(١) سورة الأنعام الآية ٦٣ .

(٢) سورة الإسراء الآية ٦٧ .

(٣) سورة الإسراء الآية : ٦٨ .

﴿ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴾[1] .

وأذكر وأنا مقيم في المدينة الجامعية للطلاب كان بالحجرة المقابلة طالب يتظاهر بالإلحاد ، ويجادل في الله بغير سلطان ، وأشهد الله أني سمعته وهو نائم يقول بأعلى صوته : يا رب ، يا رب ، مما جعلني أوقظه وأنقذه من الصراع النفسي الدائر في ثنايا ضميره والذي يتظاهر بإخفائه !!

إن الإيمان هو الأمل في هذه الحياة ، وهو الضياء لمسيرة الإنسان وهو السعادة الكاملة وبدونه تصبح الحياة شقاء وبلاء وجحيماً لا يُطاق .

إن الحياة قائمة على المتقابلات من صحة أو مرض ، ومن غنى أو فقر ، ومن أولاد أو عقم ، ومن شباب أو كهولة ... إلخ . تلك سُنة جارية لا تتخلف وليس هناك من ناموس يحكم هذه المتقابلات ، ويهب الناس السكينة تجاهها إلا الإيمان بالله ، ذلك أن الحياة في منطق الإيمان مبنية على قانون عام هو الابتلاء والامتحان ، فالله جل جلاله يبتلي الإنسان بالمال كما يبتليه بالفقر ، ويبتليه بالقوة كما يبتليه بالضعف ، قال تعالى : ﴿ .. وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ...﴾[2] .

وشأن المؤمن أن يكون شاكرًا عند النعمة والعطاء ، صابرًا في مواقع القضاء .. وإذا ضاقت نفس الإنسان فما عليه إلا أن يلجأ إلى الله وحده فهو سبحانه الرحمن الرحيم ، وهو جل شأنه الحكيم الخبير ، فما من عسر إلا ويعقبه يسر ، وما من ضائقة إلا ولها فرج قريب ، قال تعالى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ .

ولن يغلب عسر يسرين ، فإن أهل اللغة يقولون : إن المعرفة إذا أعيدت معرفة كانت عينها ، وإن النكرة إذا أعيدت نكرة كانت غيرها ، كما أن في التعبير بلفظ « مع » الدال على الصحبة ما يؤكد قرب اليسر المترقب كأنه مقارن للعسر .

وإذا كانت الحياة تنتهي حتماً بالموت الذي قد يواجه الإنسان طفلاً أو شاباً أو كهلاً أو شيخاً كبيراً ..

---

(١) سورة الإسراء الآية ٦٩ .

(٢) سورة الأنبياء الآية : ٣٥ .

وهذا مما يؤرق البشر كثيراً ويقض مضاجعهم !!

فإن المؤمن لا ينظر إلى هذا المصير المحتوم نظر تشاؤم ومأساة ، بل هو حلقة ضرورية للخلود الأبدى .. فإن الإنسان لم يخلق للعدم وإنما خلق للبقاء ، وهذا البقاء أو الخلود يمر بمراحل فى الرحم أو على ظهر هذه الأرض ، أو فى القبر ، أو فى القيامة ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ... ﴾ (١) .

ومع تلك النظرة فليس من حق الإنسان أن يتمنى الموت مهما اشتدت حوله الخطوب ، فإن الأمل فى الله أكبر ، وفى صحيح الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « لا يتمنين أحدكم الموت لضر أصابه ، فإن كان لابد فاعلا فليقل : اللهم أحينى ما كانت الحياة خيراً لى ، وتوفنى إن كانت الوفاة خيراً لى » .

وإذا كان مجرد تمنى الموت خطيئة فى نظر الإسلام فما بالك بمن يقدم على الانتحار ؟!

إن الإنسان لا يملك نفسه ، فالأنفس كلها لله ، وقتل النفس كقتل الغير سواء بسواء ، وفى صحيح الحديث يقول رسول الله ﷺ : « من تردى من جبل فقتل نفسه فهو فى نار جهنم يتردى فيها خالداً مخلداً فيها أبداً ، ومن تحسى سماً فقتل نفسه فسمه فى يده يتحساه فى نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً ، ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته فى يده يجأ بها فى بطنه فى نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً » .

وذلك لأن أفكار السوء ووساوس الشيطان إنما تأتى الإنسان الفارغ من الإيمان ، أما المؤمن الحق فهو دائماً مسدد الخاطر ، ملهم الضمير ، يمنحه الله هداية يفرق بها بين الحق والباطل ، والطيب والخبيث ، قال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن تَتَّقُواْ اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ...﴾ (٢) .

فتقوى الله هى النجاة من كل كروب الدنيا والآخرة ، وهى الأمل وسط ظلمات الحياة ومادياتها .

---

(١) سورة آل عمران الآية : ٣٠ .
(٢) سورة الأنفال الآية ٢٩ .

ولننظر ماذا يجرى بين الماديين المنغمسين فى شهوات النفس الآثمة ، والذين وصلوا إلى درجة التشبع فى الجنس والثروة .. ولنقرأ هذه الرسالة الصحفية التى كتبها ويليام بوردرز فى صحيفة النيويورك تايمز ونشرها الأهرام فى (٢٠ / ٣ / ١٩٨٠) :

أعلنت إحدى المؤسسات البريطانية فى لندن أنها تنوى نشر كتاب خاص للراغبين فى الانتحار ، ومن المعروف أن هذه المؤسسة التى يطلق عليها اسم « الخروج من الحياة » تدعو لما تسميه « بالحق فى الموت بصورة مشرفة » .

ومن المنتظر أن يحتوى الكتاب على أساليب عديدة للانتحار تُعد سهلة نسبياً حتى بالنسبة للمعوقين الراغبين فى الانتحار ، وسوف يحتوى الكتاب أيضاً على قائمة بأسماء العقاقير الطبية ورأى الطب فيما يكفى من كل من هذه العقاقير لإنهاء حياة الراغبين فى الانتحار .

وبالرغم من أن الكتاب لن ينشر قبل شهر أو اثنين إلا أن الطلب على الكتاب فى تزايد مستمر ، كما أن المؤسسة الناشرة تتسلم يومياً مئات من الخطابات الاستفسارية والتى يكتب معظمها الراغبون فى الانتحار .

وصرح السكرتير العام للمؤسسة بأن الطرق التى تدعو لها المؤسسة فى الانتحار أصبحت مقبولة إلى درجة كبيرة ، كما أنها مفضلة عن وسائل الانتحار التقليدية والتى عادة ما تسبب ميتة بطيئة مؤلمة .

وأضاف السكرتير العام بأن أعضاء المؤسسة يكافحون من أجل حق إنسانى وهو الحق فى الموت !!

وكتاب الانتحار الذى تنوى مؤسسة « الخروج من الحياة » نشره سيكتبه مجموعة من رجال القانون والطب وآخرون من أعضاء اللجنة التنفيذية للمؤسسة ، وسيكتب مقدمته الكاتب الإنجليزى آرثر كويستلر ، وهو عضو بارز فى المؤسسة .

وفى اجتماع أخير للمؤسسة اقترح آرثر كويستلر فكرة توزيع الكتاب على أعضاء المؤسسة فقط والذين مضى على عضويتهم أكثر من ثلاثة شهور ، وذلك لضمان عدم فرض سبل الانتحار المذكورة فى الكتاب على الذين لا يستوعبون اتجاهات المؤسسة » اهـ .

هكذا يفكر من لا إيمان له !!

(ج) الإيمان ضرورة أخلاقية :

إن الإنسانية في حقيقة أمرها تجمع أخلاقي يرتبط بالإرادة الحرة التي يكون على أساسها التكليف والمسئولية .

ولكن ما هو المقياس الأخلاقي ؟

إن القوانين مهما أحكمت لا تستطيع أن تسيطر على قوى الإنسان الداخلية ، ثم إن القانون يحتاج إلى إنسان يقوم على حمايته وعلى أمر تنفيذه ، وهذا الإنسان بدوره يحتاج إلى حماية لأنه لن يكون معصوماً . إن الإيمان وحده هو الذي يتولى تأصيل القيم والمبادئ داخل النفس الإنسانية ، وإن النفس المؤمنة تسارع إلى الخير بمقتضى فطرتها ، أما النفس الملحدة فتساق من ظاهرها برهبة السوط وعين القانون ، ومتى أخطأ السوط أو غفل القانون فهناك مجالات رحبة من فوضى الأخلاق والمعاملات وصراع الطبقات وغلبة الأقوياء ، وسريان قانون الغاب .

ولقد علمنا الإسلام المراقبة الذاتية عندما حكى القرآن قول لقمان لابنه : ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾[1] .

ولعل وصية الرسول ﷺ تشير إلى هذا المعنى عندما قال : « اتق الله حيثما كنت ... » .

وقد تجاوب المؤمنون الصادقون مع تلك التربية الإيمانية فقدموا نماذج فذة وفريدة ، وفي تعبير حكيم وتمثيل رائع وصادق عن قصة أصحاب الغار الثلاثة يقول الرسول ﷺ - كما في صحيح مسلم :

« بينما ثلاثة نفر يتمشون ، أخذهم المطر فأووا إلى غار في جبل فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل فانطبقت عليهم ، فقال بعضهم لبعض : انظروا أعمالاً عملتموها صالحة لله فادعوا الله تعالى بها لعل الله يفرجها عنكم ..

---

(١) سورة لقمان الآية : ١٦ .

فقال أحدهم : اللهم إنه كان لى والدان شيخان كبيران ، وامرأتى ولى صبية صغار أرعى عليهم ، فإذا أرحت عليهم حلبت فبدأت بوالدى فسقيتهما قبل بنى ، وإنه نأى بى ذات يوم الشجر فلم آت حتى أمسيت فوجدتهما قد ناما ، فحلبت كما كنت أحلب ، فجئت بالحلاب فقمت عند رءوسهما أكره أن أوقظهما من نومهما ، وأكره أن أسقى الصبية قبلهما ، والصبية يتضاغون عند قدمى ، فلم يزل ذلك دأبى ودأبهم حتى طلع الفجر .. فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك ، فافرج لنا منها فرجة نرى منها السماء .. ففرج الله منها فرجة فرأوا منها السماء .

وقال الآخر : اللهم إنه كانت لى ابنة عم أحببتها كأشد ما يحب الرجال النساء ، وطلبت إليها نفسها فأبت حتى آتيها بمائة دينار ، فتعبت حتى جمعت مائة دينار فجئتها بها ، فلما وقعت بين رجليها قالت : يا عبد الله اتق الله ولا تفتح الخاتم إلا بحقه ، فقمت عنها .. فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا منها فرجة .. ففرج لهم .

وقال الآخر : اللهم إنى كنت استأجرت أجيراً بفرق [1] أرز فلما قضى عمله قال أعطنى حقى فعرضت عليه فرقه فرغب عنه ، فلم أزل أزرعه حتى جمعت منه بقراً ورعاءها فجاءنى فقال اتق الله ولا تظلمنى حقى .. قلت : اذهب إلى تلك البقر ورعائها فخذها .. فقال : اتق الله ولا تستهزئ بى .. فقلت : إنى لا أستهزئ بك ، خذ ذلك البقر ورعاءها .. فأخذها فذهب به ، فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفرج لنا ما بقى .. ففرج الله ما بقى ، وخرجوا من الغار يمشون » .

هكذا يفعل الإيمان عندما يتغلغل فى أعماق النفس الإنسانية .

وتتأكد أيضاً الضرورة الأخلاقية للإيمان لتصحيح مسار العلاقات الاجتماعية التى تنمو على أساس مبدأ المحبة لله ، والمحبة فى الله ذلك المبدأ الذى يتسامى على أهواء النفس ودنايا المادة ، فتنزوى الأحقاد وتنأى الخصومات ، ويعيش الناس عباد الله إخواناً .

وعلى أساس هذا المبدأ آخى الرسول صلوات الله عليه وسلامه بين المهاجرين والأنصار ، وأصبحت الأموال والعقارات بينهم كالماء فى الأنابيب المستطرقة ،

---

(١) الفرق : نوع من الآنية يسع ثلاثة آصع .

وتوارث المسلمون بصلة الدين وكأنها لحمة النسب إلى أن استقرت الأمور ، فنزل قوله تعالى : ﴿ .. وَأُوْلُواْ الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾[1] فاقتصر التوارث على النسب .

ومن طريف ما يروى أن سعد بن الربيع الأنصارى قال لعبد الرحمن بن عوف : أى أخى !! أنا أكثر أهل المدينة مالاً فانظر شطر مالى فخذه ، وتحتى امرأتان فانظر أيتهما أعجب إليك حتى أطلقها .

فقال عبد الرحمن بن عوف : بارك الله لك فى أهلك ومالك ، دلونى على السوق ، فدلوه فذهب فاشترى وباع فربح ، حتى قال بعد ذلك :

فلقد رأيتنى ولو رفعت حجراً لرجوت أن أصيب ذهباً أو فضة !!

إن الناس بغير الإيمان يأكل قويهم ضعيفهم ، ويستعبد غنيهم فقيرهم ، ويتربصون الدوائر بعضهم بعضاً .

ولننظر ماذا يقول فيلسوف ملحد مثل فردريك نيتشه (١٨٤٤ - ١٩٠٠م) فى كتابه (هكذا تكلم زرادشت) :

« إذا ما رأيتم متداعياً إلى السقوط فادفعوه بأيديكم وأجهزوا عليه ، وكل إنسان تعجزون عن تعليمه الطيران علموه - على الأقل - أن يسرع بالسقوط » .

ويرى نيتشه أنه لا رحمة بين الناس ، وأن الإحسان يجرح عزة النفس ويولد الأحقاد لدى المحرومين ، ويدعو من يستطيع أن يقتطف ثمار الحديقة عنوة أن يتقدم فليس فى الإقدام على الغصب ما فى قبول العطاء من مهانة .

ولا يشير نيتشه بمحبة القريب ويعتبرها أنانية مضللة هدفها إغواء القريب واحتواؤه وينفر من الصداقة ويقول :

دع الصداقة إذا كنت عبداً ، ولا تطمح إلى اكتساب الأصدقاء إذا كنت عاتيا .

وشعار المجتمع عنده هو اقتسام المظالم فمن يقدر على إرهاق الناس بظلمه فعليه أن يحتمل هو الظلم أيضاً .

---

(١) سورة الأنفال الآية . ٧٥ .

وليس من الإنسانية – فى زعمه – أن يترفع المظلوم عن الانتقام ويقول فى عبارة ضاحكة باكية :

إذا كان لكم عدو فلا تقابلوا شره بالخير لأنه يستصغر بذلك نفسه ، بل أكدوا له أنه أحسن بعمله إليكم ، والأجدر بكم أن لا تحتقروا أحداً ، تظاهروا بالغضب .

وإذا وجهت اللعنة إليكم فلا يسرنى أن تمنحوا البركة .

وإذا ما نزلت بكم مظلمة كبيرة فبادروا المعتدى بمثلها وأرفقوها بخمس مظالم صغرى !!

ويرى نيتشه أن « إرادة الحق » هو شعار المذلة !!

وأن جوهر الوجود وحقيقته هو « إرادة القوة » !!

هكذا تكون أخلاق الملحدين !!

(د) الإيمان ضرورة تاريخية :

إن التاريخ هو طريق الإنسانية إلى الله ، والمواقف الحاسمة فيه مرتبطة بالدين ، وأبوابه الرئيسية هى قصة الصراع الفكرى بين الإيمان والكفر .

ولن تفهم حضارة التاريخ إلا من خلال مسيرة الأديان التى اعتنقها أجيال البشر والتى اتفقت – بغض النظر عن الحقيقة أو الأسطورة – على فطرة مركوزة فى النفس بأن الحياة لابد لها من واهب ، وأن الكون لابد له من مدبر ، وأن للإنسان حياة أخرى للحساب والجزاء .

وقد تفجرت عن تلك الفطرة علوم ومعارف وفنون ، وارتبطت بها منشئات وهياكل وقصور .

ففى مصر الفرعونية عاش الناس بالدين وللدين ، وقامت معابد الكرنك والأقصر وأهرامات الجيزة ، وتقدمت علوم الطب والهندسة ، وازدهرت فنون النحت والتصوير والنقش والكتابة ؛ لتثبت أن الإيمان صانع المعجزات .

وحدثنا التاريخ عن حضارة بابل وآشور حديثاً بلغ حد الأسطورة فى روعة البناء وجمال الطبيعة وسطوة الملك ، ولا يمكن فهم هذا التاريخ إلا من خلال قصة نوح والطوفان ، وقصة إبراهيم الخليل وجهاده مع قومه وجداله مع الرؤساء .

ولا ينسى التاريخ دور موسى عليه السلام وبنى إسرائيل من بعده فى صياغة فصوله وأبوابه .. وخاصة ملك داود ، وسليمان عليهما السلام الذى عبر عنه القرآن المجيد بقوله :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ * أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ * يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ (1) .

وإذا اتجهنا إلى الإغريق فسنجد تاريخهم مرتبطاً بعالم الآلهة كما تخيله « هوميروس » وعالم المثل كما نادى به « أفلاطون » .

ولما قامت النصرانية واحتضنتها « روما » بسطت لواءها على أطراف الأرض قروناً من الزمان ، ودارت الحرب سجالاً بينها وبين الفرس .

وقد أشار القرآن المجيد إلى قصة ذلك الصراع فى مفتتح سورة الروم :

﴿ الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (2) .

وجاء فى تفسير الزمخشرى :

« احتربت الروم وفارس بين أذرعات وبصرى ، فغلبت فارس الروم ، فبلغ الخبر مكة فشق على النبى ﷺ والمسلمين ، لأن فارس مجوس لا كتاب لهم ، والروم أهل الكتاب ، وفرح المشركون وشمتوا وقالوا : أنتم والنصارى أهل الكتاب ، ونحن وفارس أميون ، وقد ظهر إخواننا على إخوانكم ، ولنظهرن نحن عليكم فنزلت (أى هذه الآيات) فقال لهم أبو بكر رضى الله عنه :

---

(1) سورة سبأ الآيات ١٠ ، ١٣

(2) سورة الروم الآيات ١ - ٥ .

لا يقرر الله أعينكم فوالله لتظهرن الروم على فارس بعد بضع سنين .

فقال له أُبى بن خلف : كذبت ، اجعل بيننا أجلاً أناحبك عليه (والمناحبة المراهنة) ، فناحبه على عشر قلائص [1] من كل واحد منهما وجعلا الأجل ثلاث سنين .

فأخبر أبو بكر رضى الله عنه رسول الله ﷺ فقال : البضع ما بين الثلاث إلى التسع .

فزايده فى الخطر أى المراهنة وماده فى الأجل ، فجعلاها مائة قلوص إلى تسع سنين .

ومات أُبى بن خلف وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية ، وذلك عند رأس سبع سنين ، فأخذ أبو بكر الرهان من ذرية أُبى ، وجاء به إلى رسول الله ﷺ فقال : تصدق به .

وهذه الآية من الآيات البينة الشاهدة على صحة النبوة ، وأن القرآن من عند الله ، لأنها إنباء عن علم الغيب الذى لا يعلمه إلا الله » .

هذا ويوم أن أشرقت الأرض بنور ربها وعرف الناس طريقهم إلى الإسلام شرعة ومنهاجاً قادهم إلى أمة هى من التاريخ غرته ، ومن الزمان ربيعه ، وأبدعوا حضارة شملت العالم من أقصاه إلى أقصاه وحفظت للإنسانية قرائحها ، وجادت عليها بأسمى ما ترنوا إليه فى العلم والحضارة .. وكانت المراكز الإسلامية فى الأندلس وصقلية والقاهرة ودمشق وبغداد مشاعل أضاءت الطريق للحضارة الحديثة .

وهكذا كان الإيمان يقود خطى البشرية دائماً ، ولن تجد فترة زمنية ذات بال إلا وللإيمان هيمنة عليها وسلطان فيها .

ولا يعنينى هنا أن اعتقاد القوم كان صحيحاً أو فاسداً فتلك قضية أخرى ، وإنما الهدف من تأكيد الضرورة التاريخية للإيمان هو رؤية الارتباط بين الحضارة المادية والإيمان بالله واليوم الآخر .

على أن القوم حينما أشركوا فى الألوهية أو انحرفوا فى تصور العقيدة الصحيحة كان زعمهم اتخاذ الوساطة أو محاولة تمثل العظمة الإلهية .. وإلى هذا يشير أحمد شوقى :

---

(١) القلائص : جمع قلوص وهى الناقة الشابة .

رب شقت العباد أزمان لا كتـ   ـب بها يهتدى ولا أنبياء
ذهبوا فى الهوى مذاهب شتى   جمعتها الحقيقة الزهراء
فإذا لقبوا قوياً إلهاً   فله بالقوى إليك انتماء
وإذا آثروا جميلاً بتنزيـ   ـه فإن الجمال منه حباء
وإذا أنشأوا التماثيل غرا   فإليك الرموز والإيماء
وإذا قدروا الكواكب أربا   باً فمنك السنا ومنك السناء
وإذا ألهوا النبات فمن آ   ثار نعماك حسنه والنماء
وإذا يمموا الجبال سجوداً   فالمراد الجلالة الشماء
وإذا يعبد الملوك فإن المـ   ـلك فضل تحبوا به من تشاء

(و) تنبيه وتقرير :

ليعلم الملحدون أننا فى بحثنا عن الله سبحانه وتعالى واستدلالنا على وجوده لا نتجاوز وضعنا الإنسانى ونجعله سبحانه كمعادلة نحلها أو مُرَكَّب كيميائى ننتجه أو جزيرة نكتشفها .

إن كل ما نعلمه – بيقين العقل وصادق الفطرة – هو أن الكون والكائنات جميعاً تسبح بحمد ربها وتدل على أنه الواحد ذو الجلال والإكرام ، وصولاً إلى الحقيقة الكبرى التى عبر عنها القرآن المجيد فى قوله : ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ** ﴾[1] .

أما محاولة الخوض فى ذات البارى وحقيقة صفاته فهذا ليس فى نطاق العقل المحدود ، ومن المنطق أن نسلم حيث انتهى الشوط ، والتسليم هنا هو تسليم العلماء لا الجاهلين ، وتسليم المعرفة لا التقليد .

ولتوضيح ذلك أدع ابن خلدون يقول :

« واعلم أن الوجود عند كل مدرك فى بادئ رأيه – منحصر فى مداركه لا يعدوها ، والأمر فى نفسه بخلاف ذلك ، والحق من ورائه .

ألا ترى الأصم كيف ينحصر الوجود عنده فى المحسوسات الأربع والمعقولات ،

---

(١) سورة الحج الآية ٦٢ .

ويسقط من الوجود عنده صنف المسموعات !!

وكذلك الأعمى أيضاً يسقط عنده صنف المرئيات ، ولولا ما يردهم إلى ذلك تقليد الآباء والمشيخة من أهل عصرهم والكافة لما أقروا به ؛ لكنهم يتبعون الكافة فى إثبات هذه الأصناف لا بمقتضى فطرتهم وطبيعة إدراكهم .

ولو سئل الحيوان الأعجم ونطق لوجدناه منكراً للمعقولات وساقطة لديه بالكلية .

فإذا علمت هذا فلعل هناك ضرباً من الإدراك غير مدركاتنا ، لأن إدراكاتنا مخلوقة محدثة وخلق الله أكبر من خلق الناس ، والحصر مجهول ، والوجود أوسع نطاقاً من ذلك ، والله من ورائهم محيط .

فاتهم إدراكك ومدركاتك فى الحصر ، واتبع ما أمرك الشارع به من اعتقادك وعملك فهو أحرص على سعادتك ، وأعلم بما ينفعك ، لأنه من طور فوق إدراكك ، ومن نطاق أوسع من نطاق عقلك » .

ثم يؤكد ابن خلدون قيمة العقل وصدق حكمه فى نطاقه الإنسانى المحدود ، وأن قصوره عما وراء ذلك ليس اتهاماً فيقول :

« وليس ذلك بقادح فى العقل ومداركه ، بل العقل ميزان صحيح ، فأحكامه يقينية لا كذب فيها غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد والآخرة ، وحقيقة النبوة وحقائق الصفات الإلهية ، وكل ما وراء طوره ، فإن ذلك طمع فى محال » .

ثم يسوق ابن خلدون مثلاً تقريبياً له فيقول :

« ومثال ذلك مثال رجل رأى الميزان الذى يوزن به الذهب فطمع أن يزن به الجبال ، وهذا لا يدرك على أن الميزان فى أحكامه غير صادق لكن العقل قد يقف عنده ولا يتعدى طوره ، حتى يكون له أن يحيط بالله وبصفاته ، فإنه ذرة من ذرات الوجود الحاصل منه »[1] .

وبعد .. فالإيمان ضرورة تقتضيها الفطرة وتحتمها مثل الأخلاق وقواعد السلوك ، وتلح عليها حضارة الإنسان .

---

(١) المقدمة ص ٢٧٣ – طبعة المطبعة الأزهرية سنة ١٣١١ هـ .

المبحث الثالث

توحيد اللَّه تعالى

* الوحدانية فى الإسلام .
* المخالفون فى الوحدانية :
  - اليهود .
  - النصارى .
  - المجوس .
  - عباد الأصنام .
  - الصابئة .
  - القائلون بالحلول والاتحاد .
* دلائل التوحيد فى سورة البقرة :
  - فضل سورة البقرة .
  - إبداع الصنع .
  - انفراد السلطان .
  - وحدة المعبود الحق .
  - التفرد بصفات الجلال والكمال .
  - حوار فى اللَّه ومع اللَّه .
  - أحدية اللَّه فى الخلق والجزاء .

الوحدانية فى الإسلام

وحدانية الله تعالى عنوان الإسلام كله ، وأصله الذى لابديل عنه ، وبالشهادتين يبدأ المسلم حياته وعليها يلقى الله تعالى ، وفى حديث رواه الحاكم وغيره قال عليه الصلاة والسلام : من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة .

وهذه الوحدانية فى المفهوم الإسلامى تعنى مايلى :

أولاً : الله تعالى واحد فى ذاته ، وهذا يتضمن شيئين :

أ - لاتعدد فى الآلهة فليس هناك ذات تشبه ذات الله فى كمالها وجلالها وسلطانها ..

ب - لاتركيب فى الذات الإلهية فلا والد لله تعالى ولا ولد ، ولايحل فى شيء ولايتحد مع شيء ، ولايتركب من أجزاء .

قال الله تعالى ﴿ **مَا اتَّخَذَ اللهُ مِن وَلَدٍ ، وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَلِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ (١) .

ثانياً : الله تعالى واحد فى صفاته ، وهذا يشمل أمرين :

(أ) لا تعدد فى صفة من صفات الله كقدرتين وإرادتين وعلمين وحياتين ... إلخ ؛ لأن كل صفة من صفات الله هى الكمال المطلق فلا نقص فيها .

(ب) لا تشابه بين صفات الخالق وصفات المخلوق ، فالله تعالى منزه عن مشابهة خلقه ..

---

(١) سورة المؤمنون الآيتان ٩١ ، ٩٢ .

وقد جاء القرآن الكريم يصف الله تعالى بأنه ﴿ أحسن الخالقين ﴾ [1] ، و﴿ خَيْرُ الحَاكِمِينَ ﴾ [2] و ﴿ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ [3] و ﴿ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴾ [4] و﴿ خَيْرُ الفَاتِحِينَ ﴾ [5] و ﴿ خَيْرُ الغَافِرِينَ ﴾ [6] و ﴿ خَيْرُ الوَارِثِينَ ﴾ [7] و﴿ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [8] ..

كما أكد القرآن قضية التنزيه المطلق لله تعالى فقال : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [9] .

وقال : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَد ﴾ [10]

ثالثاً : الله تعالى واحد في أفعاله ، فلا يقبل المساعدة أو المشاركة أو المساندة ، وكل ما في الكون والكائنات فهو أثر من آثار قدرة الله وحده .

قال تعالى : ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۞ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۞ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۞ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [11] .

فحيثما توجه الإنسان بعقله وقلبه ، وأينما حل ببدنه وجسمه ، وعلى امتداد

---

(1) سورة المؤمنون الآية : ١٤ .
(2) سورة الأعراف الآية : ٨٧ .
(3) سورة المائدة الآية ١١٤ .
(4) سورة آل عمران الآية : ١٥٠ .
(5) سورة الأعراف الآية : ٨٩ .
(6) سورة الأعراف الآية : ١٥٥ .
(7) سورة الأنبياء الآية : ٨٩ .
(8) سورة المؤمنون الآية : ١٠٩ .
(9) سورة الشورى الآية : ١١ .
(10) سورة الاخلاص الآية . ٤ . .
(11) سورة النمل الآيات : ٥٩ – ٦٤ .

بصره وبصيرته لا يجد غير آثار مبدع حكيم ، وفعل قادر مقتدر ، وإرادة فعال علام الغيوب .

رابعاً : الله تعالى هو وحده المعبود الحق ، فيجب أن يُطاع فلا يُعصى ، وأن يُشكر فلا يجحد ، وأن يذكر فلا يُنسى ، بحيث يكون الدين كله لله .

وهذا يتضمن اتجاهين :

١ – اختصاص العبادة لله فلا يصرف شيء منها لغيره سبحانه ، فلا يستعان إلا بالله ، ولا يتوكل إلا على الله ، ولا يدعى غير الله ، ولا يذبح إلا باسم الله ، ولا يحلف إلا بالله ... إلخ .

قال تعالى : ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ۞ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ** ﴾[1] .

٢ – تجنب الرياء والبعد عن التسمع ، وهذا هو الشرك الأصغر الذى يتسلل إلى قلوب العباد فيحبط أعمالهم ، ويجعلهم قاب قوسين أو أدنى من الضلال البعيد .. وفى الصحيح المتفق عليه عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حمية ، ويقاتل رياء : أى ذلك فى سبيل الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله .

فشأن المسلم الموحد أن يعمل العمل خالصاً لوجه الله ، لا ينتظر محمدة الناس ولا يتعلق قلبه بحطام الدنيا ، ولا يتباهى بزخرف الحياة الفانى ، فثواب الله خير ، وفى صحيح مسلم بسنده عن أبى هريرة مرفوعاً : قال الله تعالى : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك معى فيه غيرى تركته وشركه » .

وفى مقارنة بين المرائى والمخلص يبين الرسول ﷺ نفسية كل منهما والهدف لحياتهما .

---

(١) سورة الزمر الآيتان ٢ ، ٣ .

فالمرائي عبد الشهوة والشهرة لا يعرف قيمة رفيعة ولا كرامة نبيلة .

والمخلص يضحي بالنفس والنفيس ابتغاء مرضاة الله ولا يضيره أن علم الناس أو لم يعلموا ، ويكفيه شرفاً علم الله به وثناء الله عليه في الملأ الأعلى ، ويوم يقوم الأشهاد .

يقول عليه الصلاة والسلام في صحيح الحديث : « تعس عبد الدينار ، وتعس عبد الدرهم ، وتعس عبد الخميصة ، وتعس عبد الخميلة .. إن أعطى رضى ، وإن لم يعط سخط ، تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش .

« طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله ، أشعثَ رأسه ، مغبرةٍ قدماه ، إن كان في الحراسة كان في الحراسة ، وإن كان في الساقة كان في الساقة ، إن استأذن لم يؤذن له ، وإن شفع لم يشفع » .

* * *

المخالفون فى الوحدانية

انطلاقاً من مفهوم الوحدانية فى الإسلام يتحدد المخالفون لتلك الوحدانية ، الخارجون عن مقتضى الفطرة ، الناقضون لعهد الله وميثاقه ، المشركون بالله .. وهؤلاء المخالفون طوائف شتى منهم :

١ - اليهود :

وعقيدة اليهود قائمة على تشبيه الخالق بالمخلوق ، ووصف الله تعالى بما لا يليق ، وإثبات فريق منهم البنوة لله سبحانه .

وقد بدأ شرك العقيدة اليهودية على عهد موسى عليه السلام حين طلبوا رؤية الله فى الدنيا بالأبصار الحسية ، فعاجلهم الله بعقوبة رادعة صعقت هؤلاء السفهاء .

قال تعالى : ﴿ **وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾[1] .

وأيضاً حين أرادوا عبادة الأصنام بعدما عبر بهم موسى البحر ، ولم يستوعبوا الحدث المعجز ، وظلت نفوسهم على الشرك الأول قبل بعثة موسى عليه السلام .

قال تعالى : ﴿ **وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ** ﴾[2] .

وتوالى بعد ذلك شرك اليهود وكفرهم بآيات الله فادعوا أن عزيراً ابن الله ، وألحدوا فى صفات الله .

---

(١) سورة البقرة الآيتان : ٥٥ ، ٥٦ .
(٢) سورة الأعراف الآية : ١٣٨ .

قال تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ... ﴾ (١) .

٢ - النصارى :

وعقيدة النصارى مضطربة فى شأن شخصية المسيح عليه السلام ، فهم أحزاب وفرق تزعم أن المسيح إله أو ابن إله أو ثالث ثلاثة .

ويتوهمون أن المسيح مركب مں لاهوت وناسوت ، ويقولون بالحلول والاتحاد .

ولهذا سلكهم القرآن مع الكافرين المشركين فقال : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ * لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٢) .

ثم ذكّر القرآن الكريم هؤلاء النصارى بحقيقة شخصية المسيح وأنها تتنافى كلية مع مقام الألوهية الرفيع فقال : ﴿ مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ (٣) .

ثم سلك القرآن الكريم النصارى واليهود فى سلك الوثنيين القدماء ، وسجل عليهم أنهم خلطوا عقائد الشرك برسالات الوحى ، وحرفوا التنزيل المقدس ، فقال : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ (٤) .

وأكد القرآن الكريم أن هؤلاء اليهود والنصارى صرفوا العبودية لغير الله ،

---

(١) سورة المائدة الآية : ٦٤

(٢) سورة المائدة الآيتان : ٧٢ ، ٧٣ .

(٣) سورة المائدة الآية ٧٥ .

(٤) سورة التوبة الآية ٣٠ .

ومنحوا حق التحليل والتحريم بغير علم إلى الأحبار والرهبان ، فقال : ﴿ **اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾[1] .

ولهذا كان عبد الله بن عمر رضى الله عنه يرفض الزواج من نساء أهل الكتاب ويقول - كما في صحيح البخارى - : لا أعلم شركاً أعظم من أن تقول إن ربها عيسى ، وقد قال الله تعالى : ﴿ **وَلَا تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ...** ﴾[2] .

٣ - المجوس :

وعقيدة المجوس تتعلق بإلهين هما النور والظلمة ، أو إله الخير وإله الشر ، ولهم اختلافات كثيرة حول هذين الإلهين : هل هما أزليان يتساويان فى القدم ويختلفان فى الجوهر والفعل ، أو أحدهما قديم وهو النور ، والآخر محدث وهو الظلمة ؟!

وقد رفض القرآن الكريم هذه الفرية وقال : ﴿ **وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُواْ إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ** ﴾[3] .

وأعلن القرآن الكريم أن النور والظلمة وكل ما فى الكون مخلوق لله تعالى وأثر من آثار قدرة الواحد القهار ، فقال : ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ** ﴾[4] .

وأكد القرآن أن كل ما يعترى الإنسان من منح ومحن ، إنما هو ابتلاء من الله لعباده ، والله وحده هو القابض الباسط ، وهو الرافع الخافض ، وهو المعز المذل ، وهو المحى المميت .

قال تعالى : ﴿ **قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِى الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ تُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ**

---

(١) سورة التوبة الآية ٣١ .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٢١ ، ولكن جمهور العلماء على جواز هذا النكاح .

(٣) سورة النحل الآية : ٥١ . (٤) سورة الأنعام الآية ١ .

الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [1] .

٤ - عباد الأصنام :

وعقيدة عباد الأصنام ترتبط بتماثيل وأشكال تتخذ من المعدن أو الصخر أو الشجر ، يقدمون إليها القرابين ، ويقفون بين يديها ضارعين .. وقد تهكم بهم القرآن الكريم على ألسنة رسل الله في مواضع شتى من المصحف الشريف .

ففي سورة الأعراف مثلاً وضح القرآن الكريم العجز المطلق لهذه المعبودات ، فهي مخلوقة مصنوعة نحتها الإنسان وأقامها ، فهي أعجز من أن تمنح الوجود لشيء ، لأن فاقد الشيء لا يعطيه ، وهي فاقدة لكل معاني الحياة فهي ساكنة عمياء بكماء ، فكيف تستجيب لدعاء عابديها ؟!

قال تعالى : ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ * وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ * إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾ [2] .

ويلحق بعباد الأصنام عابدو الحيوان الأعجم كالهندوس الذين يقدسون البقرة ، ويضحون بكرامة الإنسان أمام هذه العجماوات !!

فالإنسان خليفة في أرض الله ، وكل ما في الكون مسخر لخدمته ، فلا يليق بالإنسان أن يمتهن كرامته أمام حجر أو شجر أو حيوان أو بشر .

٥ - الصابئة :

وعقيدة الصابئة تجعل الكواكب والنجوم محل التقديس والعبادة ، وترى أن

---

(١) سورة آل عمران الآيتان ٢٦ ، ٢٧ .

(٢) سورة الأعراف الآيات : ١٩١ - ١٩٥ .

لهذه الكواكب هيمنة على الكون وتأثيراً فى الوجود وتدبيراً للكائنات .

وقد كان الصابئون على عهد إبراهيم الخليل عليه السلام ، واكتشف هدهد سليمان عليه السلام وجودهم فى اليمن ، وأمتد فكرهم إلى فلاسفة اليونان قبل الميلاد ، وتأثر بهم فلاسفة المسلمين فتبنوا نظرية العقول العشرة التى تزعم أن للكواكب أرواحاً مدبرة ، حتى تنتهى إلى عقل فلك القمر الذى يدبر العالم الأرضى .

كل ذلك ينافى عقيدة التوحيد ويصل بأصحابه إلى درك الشرك ومهاوى الضلال البعيد .

فالشمس والقمر آيتان من آيات الله ، أبدعهما الله تعالى لمصلحة الخلق ومنافع الحياة .

قال تعالى : ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ** ﴾ [1]

والكواكب والنجوم كلها مسخرة بأمر الله ، تجرى بنواميس لا يملك أحد غير الله تبديلها أو تغييرها أو التأثير فيها .

قال تعالى : ﴿ **وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** ﴾ [2] .

وقد رتب الله الأسباب والمسببات بإرادته وقدرته ، وليس لشىء فى الوجود فعل ذاتى ، ولو شاء الله غير ذلك لكان .

وفى صحيح الحديث عن زيد بن خالد رضى الله عنه ، قال صلى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء [3] كانت من الليل ، فلما انصرف أقبل على الناس فقال : هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الله ورسوله

---

(١) سورة فصلت الآية : ٣٧ .
(٢) سورة يس الآيات : ٣٨ - ٤٠ .
(٣) أى مطر .

أعلم . قال : قال : وأصبح من عبادى مؤمن بى وكافر ، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته ، فذلك مؤمن بى كافر بالكواكب ، وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بى مؤمن بالكواكب » .

٦ - القائلون بالحلول والاتحاد :

وعقيدة الحلول والاتحاد تقوم على الغلو فى بعض البشر بدعوى أن فيهم جزءا إلهياً يمنحهم سلطاناً فوق الناس ، فيحل هذا الجزء الإلهى فى شخص ما ، أو يتحد معه ، فتكون شخصية هذا الإنسان مزيجاً أو خليطاً من اللاهوت والناسوت .

وتناسى هؤلاء أن العبد عبد ، وأن الإله إله ، وشتان بينهما ، وأن الله تعالى يقول : ﴿ **لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا** ﴾[1] .

وغفل هؤلاء عن أن العبادة توفيق ، وأن الهداية منحة ، وأن العبد مهما أطاع واتقى فهو متقلب فى نعم الله التى لا تعد ولا تحصى ، ولا يملك من أمر نفسه أو غيره شيئاً .

ومن قال : إنه الحق !!
أو : ليس فى الجبة إلا الله !!
أو : أنا من أهوى ، ومن أهوى أنا .
أو :

لقد صار قلبى قابلا كل صورةٍ ... فمرعىً لغزلانٍ وديرٌ لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف ... وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنّى توجهت ... ركائبه ، فالحب دينى وإيمانى

كل هؤلاء إما مخبولون فقدوا وعيهم وزاغ منهم البصر .

وإما منافقون يحملون وثنيات الأمم ويريدون أن يصدوا عن سبيل الله .

* * *

---

(١) سورة النساء الآية : ١٧٢ .

دلائل التوحيد فى سورة البقرة

١ - فضل سورة البقرة :

دلالة القرآن المجيد على توحيد الله وتنزيهه دلالة قوية كبيرة ، متعددة الوسائل ، شاملة لجوانب الاستدلال ، تخاطب العقل والقلب معاً وتناجى الفطرة فى أعماقها البعيدة ، وتنادى النفس فى خلجاتها القريبة ، وتشد الإنسان إلى آفاق علوية نورانية ، وتهديه إلى مظاهر الجلال والكمال والجمال فى ذات الله تعالى .

وسورة البقرة لوحة من تلك اللوحات القرآنية الفريدة .

فهذه السورة أطول سور القرآن ، وهى سورة مدنية ، آياتها ست وثمانون ومائتان ، تشتمل على تسعة عشر ربعاً ونصف الربع ، فهى حزءان وثلاثة أرباع ونصف .

وفى فضلها جاءت أحاديث نبوية شريفة ، منها قول النبى ﷺ - فى صحيح مسلم - : « لا تجعلوا بيوتكم مقابر ، إن الشيطان ينفر من البيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة » .

وسماها الرسول ﷺ الزهراء ، فقال : « اقرأوا الزهراوين ، سورة البقرة وسورة آل عمران ، فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان ، أو كأنهما غيايتان ، أو كأنهما فِرْقَان من طير صواف تحاجان عن صاحبهما »[1] .

وأخبر صلى الله عليه وسلم أن سورة البقرة ، وسورة آل عمران فى مقدمة سور القرآن التى تشفع لقارئ القرآن العامل به ، فقال - كما رواه مسلم - : « يؤتى يوم القيامة بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به فى الدنيا تقدمه سورة البقرة وآل عمران تحاجان عن صاحبهما » .. وفى سورة البقرة آية الكرسى[2] وهى أعظم آية فى القرآن ، وجاء فى فضلها قول رسول الله ﷺ لأبى بن كعب رضى الله عنه :

---

(١) الغمامة والغياية بمعنى واحد وهو ما أظل الإنسان فوق رأسه ، والفرقان الجماعتان ، والصواف جمع صافة وهى ما يبسط جناحيه فى الهواء .

(٢) الآية رقم ٢٥٥ من سورة البقرة .

يا أبا المنذر أتدرى أى آية من كتاب الله معك أعظم ؟

فقال أبى بن كعب : الله لا إله إلا هو الحى القيوم .

فضرب رسول الله في صدره وقال : ليهنك العلمُ أبا المنذر » رواه مسلم .

وفى سورة البقرة أطول آية فى القرآن ، وهى آية المداينة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ... ﴾ [(١)] .

وآخر هذه السورة له منزلة سامية وثواب جزيل ، ففى الصحيحين عن أبى مسعود البدرى رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه » [(٢)] .

٢ - إبداع الصنع :

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ، الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّماءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [(٣)] .

بدأت الآيات هنا بخطاب عام لبنى الإنسان يدعوهم إلى عبادة الخالق المبدع الحكيم .

لقد وجد بنو الإنسان بعد عدم ، وتعاقبت البشرية جيلاً بعد جيل ، ولا يدعى أحد منهم أن له يداً فى خلق نفسه ، أو خلق بنى جنسه ، وليس هناك ادعاء لكائن من كان بقدرة على خلق البشر .

وتنحصر قصة الخلق فى مصدر واحد هو الله مانح الوجود وخالق الأحياء .. وينظر الإنسان حوله فيجد أرضاً ممهدة ذات فجاج ، وسماء مرتفعة ذات أبراج ، ويرى ماء مدراراً يتنزل من السحاب ، فتتحول الأرض القاحلة إلى حدائق ذات بهجة وثمرات مختلفة ألوانها ، وزروع من كل زوج كريم .

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٨٢ .

(٢) أى كفتاه المكروه تلك الليلة ، أو كفتاه عن قيام الليل .

(٣) سورة البقرة الآيتان ٢١ ، ٢٢ .

ويتلفت العقل فلا يقبل دعوى لكائن بشرى فى تصريف هذه الأمور وتدبيرها ، ولا يعلم أحداً غير الله أبدعها وقدرها وسواها .

إن استقامة الخلق على سنن ثابتة ، وإبداع الصنع فى عجائب مدهشة ، وكثرة النعم وعموم نفعها مع امتداد الزمان والمكان ، كل ذلك يؤكد وحدة المصدر وانفراد التدبير وتوحيد الخالق .

فالمسألة واضحة جلية ، والقضية حقيقة ثابتة ، والإقرار بها هو الحل الصحيح ، والعقل الرشيد ، والرأى الصائب ، والفطرة النقية ، ولهذا كان النهى عن خداع النفس ومغالطة العقل ﴿ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

لكن الإقرار وحده لا يكفى ، بل لابد أن يندفع الإنسان اندفاعاً ذاتياً بلا تردد إلى العبادة والخضوع والطاعة لولى النعمة ورب الخلائق ومبدع الكائنات حتى تتحقق الوقاية من أمراض الشرك وسوءات الانحراف وضلالات الهوى وخرافات الوهم .

وهنا يصبح الإنسان تقياً نقياً حنيفاً مسلماً .

٣ - انفراد السلطان :

قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [(١)] .

تأتى هذه الآية بأسلوب تقرير العلم الإنسانى بقضية التوحيد الكبرى ، المبنية على أساس أن الملك كله بلا منازع – لله خلقاً وتدبيراً .

فهذه القضية من الوضوح والجلاء بحيث ندرك إدراكاً جازماً أنه لا أحد غير الله يملك فى الكون مثقال ذرة ..

ولا أحد يشفع عند الله إلا بإذنه ..

ولا أحد يقهر الله أو يغالبه ..

فلا ملجأ ولا منجى من الله إلا إليه ..

---

(١) سورة البقرة الآية ١٠٧ .

ويتأكد هذا المعنى في سياق الآية التالية : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١) .

فحيثما توجه الإنسان ببصره وبصيرته ، لا يجد أمامه إلا الله إبداعاً فى الكون ، وتدبيراً للكائنات ، وعلواً عليها ، وقهراً لها ، وإحاطة بها .

ولهذا فمن العار والجهل أن يدعى الإنسان ولدا لله ، فالجميع عباد الله ، خاضعون لجلاله ، خاشعون لكماله ، واقعون فى سلطانه .

قال تعالى : ﴿ وَقَالُواْ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ (٢) .

إن ادعاء الولد لله تعالى يتنافى مع التنزيه المطلق الواجب لله عز شأنه ، فإذا كان الولد فى النطاق البشرى يسعد أبويه ، أو يزيدهما رفعة ، أو يبقى لهما ذكراً ، أو يحتاجان إليه فى كبرهما ، فهذه معان تدل على النقص البشرى الذى يتكامل بغيره ، ويسعى لاكتساب فضل ممن سواه ، أما الإله الحق ذو الجلال والإكرام فهو منزه عن الوالد والولد .

فالله سبحانه هو الخالق وما عداه مخلوق .

وهو سبحانه له الأمر كله وما عداه مأمور .

وهو سبحانه القاهر فوق عباده وما عداه مقهور .

وهو سبحانه الغنى وما عداه فقير .

وهو سبحانه الكبير المتعال وما عداه صغير ، ضعيف لا حول له ولا طول .

ولهذا قال جل شأنه : ﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونَ ﴾ (٣) .

والتعبير القرآنى ﴿ كُن فَيَكُونَ ﴾ له دلالته فى سرعة التحقيق والتنفيذ للإرادة الإلهية بلا معقبات وبلا عقبات وبلا منازع .

---

(١) سورة البقرة الآية : ١١٥ .

(٢) سورة البقرة الآية : ١١٦ .

(٣) سورة البقرة الآية : ١١٧ .

٤ - وحدة المعبود الحق :

قال تعالى : ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ۝ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (١) .

تبسط الآيات هنا بين يدى الإنسان آثار رحمة الله فى الكون والكائنات ، وتدعوه إلى التأمل الواعى والتعقل الرشيد ، ليدرك حقيقة توحيد الله فى ربوبيته واستحقاقه وحده للعبادة .

إن المعبود الحق لا يتعدد ، كما أن الخالق لا يتعدد ، وهناك صلة قوية متلازمة بين الإبداع الكونى واستحقاق العبادة ، فكيف يُعبد من لا يخلق ولا يرزق ولا يملك من الأمر شيئاً ؟! اللهم إلا إذا انقلبت الموازين وضاعت القيم واستبدت الأهواء واستحكمت الظلمات .

إن ربنا جل جلاله يتجلى علينا برحمته وبره وإحسانه حيثما توجه النظر .

وساقت الآية هنا عشر نعم جليلة تستوعب الحياة بأسرها ، وتشمل الكون بأجمعه ، فتصعد بنا فى أجواء الفضاء ، وتهبط فى أغوار المياه ، وتسبح فى البر والبحر ، وترشد إلى أنواع الزهور وألوان النبات وأشكال الثمار ، وتبعث الحياة بكل أبعادها فيما عظم وفيما صغر ، مما نعلم وما لا نعلم .

فهل يعقل الناس قضية التوحيد الخالص لله رب العالمين ؟!

وما يعقلها إلا العالمون .

إن فريقاً من البشر جعلوا لله أنداداً سفهاً بغير علم ، وصرف إليهم الحب والرغبة والرهبة والاستعانة والتوكل والخشوع والتقوى .

---

(١) سورة البقرة الآية : ١٦٣ - ١٦٤ .

وهذا كله اعتداء صارخ على العقل ، ووأد للفطرة ، وخروج عن مقتضى الحكمة .

والمؤمن وحده هو الذى يضع الأمور فى نصابها ، فيتوجه بقلبه وقالبه إلى الله وحده حباً وضراعة ودعاء .

إن المؤمن يعبد الله وحده ، والعبادة هى قمة الحب الإلهى ، قال تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ...﴾[1] .

ثم إن المسألة ليست متروكة للأهواء ، يضل مَنْ يضل ، وينحرف مَنْ ينحرف ، بلا مسئولية ولا جزاء ، وإلا ضاعت كرامة الإنسان !!

إن الحساب والجزاء هو تأكيد لكرامة البشر الذين تحملوا أمانة التكليف وشرف الأمر والنهى .

ومن هذا المنطلق تأتى ملاحقة العدل الإلهى للمكذبين الكافرين المشركين .. قال تعالى : ﴿ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴾[2] .

إن مسألة الشرك واتخاذ الأنداد تأتى فى الغالب انسياقاً مجرداً عن الوعى ، وتقليداً أعمى بلا تعقل ، ومسايرة بلهاء لكبراء أفسدوا فى الأرض ، وقهروا الناس على عبادة الطواغيت .. وتلك حال مؤسفة ؛ لأنها تسلب عقول المستضعفين وتخدع عقول المستكبرين ، وتجعل الكل فى غيبوبة عقلية .

وما كان الله ليظلمهم ، لقد منحهم العقل وبسط لهم دلائل التوحيد ، وأقام لهم آيات الأنفس والآفاق ، وأنزل لهم الوحى ، وقدم لهم النور .. فاستحبوا العمى على الهدى ، وآثروا متاع الحياة الرخيص ، واستهوتهم الشياطين .

فلا يلومن أحد إلا نفسه ، وستأتى لحظة - لا ريب فيها - يتبادل الناس فيها الاتهامات ويتقاذفون المسئولية ، ويتبرأ كل من كل ، ولات حين مناص !!

---

(١) ، (٢) سورة البقرة الآية : ١٦٥ .

قال تعالى : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ ۝ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ (1) .

٥ - التفرد بصفات الجلال والكمال :

قال تعالى : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ (2) .

هذه آية جامعة تأخذ بالألباب ، تبدأ بالاسم العلم الجامع لصفات المحامد والمحاسن ، إنه لفظ الجلالة « الله » .

ثم تتبعه بكلمة الإخلاص والتوحيد « لا إله إلا هو » .

ثم تصفه بدوام الحياة والقيومية « الحى القيوم » .

من غير غفلة أو نسيان ، ومن غير فتور أو تعب « لا تأخذه سنة ولا نوم »

مع عظم الملك واتساع الملكوت « له ما فى السموات وما فى الأرض » .

ثم تسوق الآية نماذج لهذا السلطان الأعظم وذلك التدبير الأعلى .

فلا احد يملك مع الله من الأمر شيئاً ..

ولا أحد يستطيع التأثير على مسار القدرة الإلهية التى تواصل إبداعها دون وساطة أو حاجة أو مساندة .

وتنطلق القدرة الإلهية بناء على العلم الشامل الذى لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السماء ولا فى الأرض .

وهو سبحانه يمنح العلم والقدرة لمن يشاء تفضلاً وبقدر ، فالكمال والجلال لله وحده « من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ؟!

---

(1) سورة البقرة الآية : ١٦ ، ١٦٧ .

(2) سورة البقرة الآية ٥ ٢ .

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ .

ومع اتساع الملك الإلهى وسعة العلم الربانى وطلاقة القدرة وهيمنة الحكم وقهر السلطان ، ورحمة الربوبية والقيام على كل شيء ، فإن الله سبحانه لا يناله تعب أو نصب ، ولا يعجزه شيء ، فهو جل شأنه عليّ متعال ، عظيم ، كبير ، متكبر ﴿..وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ .

٦ - حوار فى الله ومع الله :

إن الله وحده هو الذى خلق وأبدع .. ولم يصنع الخلق عبثاً ولن يتركه هملاً ، فالله تعالى خلق ودبر وسيحاسب كل نفس بما تسعى ..

وتسوق سورة البقرة ثلاثة حوارات حول هذا المعنى :

- حواراً بين إبراهيم الخليل والملك الطاغية .
- حواراً بين الله تعالى والرجل الصالح .
- حواراً بين الله تعالى وإبراهيم الخليل .

فى الحوار الأول ادعى الملك الربوبية لنفسه اختيالاً بقوته واغتراراً بسلطانه ، فحاجه إبراهيم عليه السلام ، وبيّن له أن الحياة والموت بيد الله وحده ، وأن الملك مغرور نسى خلقه وتناسى نهايته ، فاستكبر الطاغية وتعامى ، فقال : أنا أُحى وأميت !!

وأتى بشخصين محكوم عليهما بالإعدام ، فعفا عن أحدهما وقتل الآخر .. وتلك صورة ساذجة ليس فيها خلق الحياة ولا خلق الموت ، وانتقل إبراهيم إلى مشهد آخر للقدرة الإلهية المبدعة لا يطاول ولا ينفع معه الادعاء ، إنه مشهد الشمس فى شروقها وغروبها وثبات ناموسها ، فانقطعت حجة الطاغية ووقف حائراً مبهوتاً .

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِى وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [1] .

---

(١) سورة البقرة الآية : ٢٥٨ .

وفي الحوار الثاني مرّ رجل صالح ، قيل هو عزير ، على قرية خربة ، باد أهلها وسقطت حيطانها ، فوقف متأملاً وقال : أنّي يحيي هذه اللّه بعد موتها ؟! أي كيف أو متى يبعث الله أهل هذه القرية بعد موتهم ؟ أو يعيد هذه القرية إلى سابق عهدها بعد خرابها ؟!

فأجرى الله تعالى عليه تجربة ذاتية ولقنه درساً من نفسه ، فأماته مائة عام ، ثم أعاده إلى الحياة ، فقام الرجل ينظر حوله وتساءل : كم مضى من الوقت في غيبته أو غيبوبته عن الحياة ؟!

وظن ذلك يوماً أو بعض يوم ، لكنه التفت فوجد شيئاً عجباً . إن طعامه وشرابه لم يتغير ، وإن حماره الذي يركبه قد أصبح عظاماً نخرة !! يا لهول الموقف ..

الطعام لم يفسد ، والحمار تفرقت عظامه !!

وإذا بالنداء الإلهي : قال بل لبثت مائة عام !!

وهاهي ذي تجربة إحياء الموتى : العظام تتجمع وتتآلف في تناسق عجيب ، وتتوالى عليها لحومها ودماؤها ، وتدب الحياة فيها ، وينطلق الحمار بصاحبه يحمل متاعه ويسير على الطريق .

قال تعالى : ﴿ **أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾[1] .

وفي الحوار الثالث تساءل إبراهيم الخليل عليه السلام عن كيفية إحياء الله الموتى ، ليس شكاً في القدرة الإلهية ، ولكن انتقالاً من علم اليقين إلى عين اليقين ، فأمره الله تعالى بإمساك أربعة طيور وتقطيعها إرباً إرباً ، والرمي بها على رءوس الجبال .

فإن ذلك لن يعجز الله ، ولن يمنع قدرته على إحياء الموتى .

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٩ .

لقد وقف إبراهيم عليه السلام ودعا الأجزاء المبعثرة والمتباعدة ، فأسرع كل جزء إلى مثله ، وتجمعت أجزاء كل طائر على حدة ، وبعث الله فيه الحياة وعاد الطائر طليقاً كما كان .

أليس ذلك القادر واحداً فى تدبيره ، واحداً فى علمه ، واحداً فى قدرته ، واحداً فى سلطانه ، واحداً فى عدله وحكمه ، واحداً فى حسابه وجزائه ، واحداً فى ثوابه وعقابه ، متفرداً بالجلال والكمال والجمال ؟! .

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [1] .

٧ - أحدية الله فى الخلق والجزاء :

وتأكيداً لحقيقة أن الخالق الواحد الأحد هو الفتاح العليم ، وهو الحكم العدل اللطيف ، جاءت الآيات بعد ذلك تدعو إلى تجريد العمل لله وحده ، وإخلاص النية له سبحانه ، فنهت عن الرياء ، وضربت لذلك الأمثال .

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [2] .

فالمرائى لا ثواب له عند الله رغم بذله وانفاقه وكثرة صدقاته ، ومثله كمثل صفوان : أى حجر كبير أملس ، عليه تراب يشبه تربة الأرض ، فنزل عليه المطر شديداً عظيم القطر ، فلم يثبت الماء ولم يبق التراب وتركه المطر بلا أثر صلداً ، لا نبات فيه ، ولا ثمر ، ولا يصلح لشىء مما ينفع الناس .

---

(١) سورة البقرة الآية : ٢٦٠ .

(٢) سورة البقرة الآية : ٢٦٤ .

أما المخلصون لله وحده فإن أعمالهم تتنامى ، وثوابهم يتضاعف كمثل حديقة غناء فى موقع مرتفع من الأرض يصيبها المطر الشديد والقطر الخفيف ، ولا ينقطع ثمرها لجودة أرضها وخصوبة موقعها ، فيظل الانتفاع بها دائماً .

قال تعالى : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (1) .

ونقترب من ختام السورة لتأتى آخر آية نزلت من القرآن تبين ختام قصة الحياة وأن المنتهى إلى الله ، وأن هناك الحساب والجزاء بميزان العدل الإلهى .

قال تعالى : ﴿ وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (2) .

فالله جل جلاله هو الأول والآخر ، وهو سبحانه الواحد الأحد فى الخلق والتدبير والجزاء .

* * *

---

(1) سورة البقرة الآية . ٢٦٥ .

(2) سورة البقرة الآية ٢٨١

المبحث الرابع

جدال في الله

* أهمية الجدال .
* أنواع الجدال .
* دليل الحدوث .
* اعتراض الفلاسفة الإسلاميين .
  - قضية الجوهر الفرد .
  - قضية التسلسل .
  - الإرادة والقدرة الإلهيتان .
* دليل الإمكان .
* إشارات ابن سينا .
* دليل التوارد والتمانع .
* الوسوسة .

جدال في الله

أهمية الجدال :

الجدل والحوار والمناقشة والمحاجة والمناظرة قد تلتقى وقد تختلف ، ولسنا فى مجال تحقيق القول فى ذلك ، لكننا نريد أن نقتصر على لفظ الجدل ومشتقاته فى البيان القرآنى ، وبداية فإن كتب اللغة تبين أن مادة الجدل تدور حول الشدة مطلقاً ، تقول :

جدلت الحبلَ إذا شددت فتله .
جدل الحبُ فى سنبله إذا قوى واشتد .
ورجل جدِل إذا قوى فى الخصومة .
وغلام جادل إذا اشتد .

هذا وقد جعل القرآن الجدل من طبيعة الإنسان ، فقال : ﴿ .. وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ (١) .

فإن الجدل مرتبط بالبيان ، والقدرة على البيان هى خاصة الخصائص لبنى الإنسان ، قال تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ (٢) .

وجاء التأكيد القرآنى فى مناهج الدعوة إلى الله على أهمية الجدال بالتى هى أحسن بمعنى صدق الدليل واحترام الخصم والتلطف معه والحرص عليه .. قال تعالى :
﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (٣) .

---

(١) سورة الكهف الآية : ٥٤ .
(٢) سورة يس الآية : ٧٧ .
(٣) سورة النحل الآية : ١٢٥

وقال جل شأنه : ﴿ وَلَا تُجَادِلُواْ أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ...﴾ (١) .

إن الجدال ذو أهمية كبيرة فى حياة الناس الخاصة والعامة ، ولهذا جاءت فى القرآن سورة تسمى سورة المجادَلة (بفتح الدال على المصدر) أو المجادِلة (بكسر الدال – اسم فاعل) ، لتحكى قصة امرأة ظاهر منها زوجها ، فجاءت تشكو إلى رسول الله ﷺ وتستفتيه في أمر علاقتها الزوجية ، وكان الظهار طلاقاً في الجاهلية ، وظلت المرأة تراجع رسول الله ﷺ ، وتجادله حرصاً منها على مستقبل أولادها وظروف حياتها ، وقالت : يا رسول الله أكل مالى ، وأفنى شبابى ، ونثرت له بطنى حتى إذا كبرت سنى وانقطع ولدى ظاهر منى .

هنا نزل القرآن بحكم جديد هو كفارة الظهار ، وجاءت السورة تحمل اسم المجادلة ، قال تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (٢) .

وتتجلى أهمية الجدال فى الدنيا والآخرة ، فإن موقف الحساب والجزاء يوم القيامة تجتمع فيه من الشواهد والبينات والوثائق ما لا يمكن إنكاره أو التنكر له ، ويتولى كل إنسان الدفاع عن نفسه بلا واسطة ، وتوضع موازين القسط .. قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (٣) .

* * *

---

(١) سورة العنكبوت الآية : ٤٦ .

(٢) سورة المجادلة الآية : ١ .

(٣) سورة النحل الآية . ١١١ .

أنواع الجدال

الجدال قد يكون محموداً ، وقد يكون مذموماً ، شأنه فى ذلك شأن كثير من أمور هذه الحياة .. تمدح بالنية أو الوسيلة ، وقد تذم بأحدهما أو بهما معًا .

فالجدل المحمود ما كان دفاعاً عن الحق ، ونصرة للفضيلة ، وتأييداً لمسالك الرشد ومحاسن الأخلاق .

وقد قام به الأنبياء والمصلحون والدعاة فى كل زمان ومكان ، يحملون دلائل الحق واضحة وضوح الشمس فى رابعة النهار ، ويقدمون براهين الحقيقة عذبة كأنها ماء الحياة .

فشيخ الأنبياء نوح عليه السلام نصح قومه ، وكشف لهم بينات الهدى ، ووضح لهم طريق الرشاد ، وناقشهم مناقشة ضافية حول قدرة الله تعالى وإبداع صنعه ، ولكنهم أصروا واستكبروا استكباراً :

﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (1)

والجدال المذموم ماكان دفاعاً عن الباطل ، أو ترويجاً للكذب ، أو تزييا للقبيح ، أو تأييداً للبدعة أو إشاعة للمنكر ..

وقد حكى القرآن المجيد جدال المشركين حول قضايا التوحيد وأصول الدين حين قالوا : **﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾** (2) .

﴿ .. مَن يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ (3) .

﴿ .. لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ (4) .

---

(1) سورة هود الآية ٣٢ (2) سورة ص ، الآية ٥ .
(3) سورة يس الآية ، ٧٨ (4) سورة الزخرف الآية ٣١

﴿ .. لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم ... ﴾[1] .

وهذا كله جدل بالباطل فى الله وآياته لا يصدر عن فكر ولا يقدم دليلاً ولا يسلك مسلك البرهان .. قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ، ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾[2] .

فهؤلاء فقدوا العلم الضرورى ، والنظر السليم والوحى الصحيح ، فليس لديهم سند لمعتقدهم ، وإنما ساقهم إلى الجدال بالباطل الكبرياء على الحق والكبر على الخلق .

وقد عبر القرآن عن هذا المعنى فى آية أخرى هى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[3] .

وأكد القرآن أن الجدال بالباطل موجود فى كل أمة ، ويتبناه المفسدون فى كل جيل ، ويتصارع مع الحق فى كل عصر ، لكن تبقى العاقبة لقوة الحق ونور الحقيقة .. قال تعالى : ﴿ .. وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾[4] .

وتلك العاقبة الحميدة للحق لن تتخلف .

وهذه النهاية المشئومة للباطل لن تتبدل .

﴿ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴾[5] .

* * *

---

(١) سورة الزخرف الآية : ٢٠ .
(٢) سورة الحج الآيتان : ٨ ، ٩ .
(٣) سورة غافر الآية : ٥٦ .
(٤) سورة غافر الآية : ٥ .
(٥) سورة الشورى الآية : ٣٥ .

دليل الحدوث

استدل المتكلمون على وجود الله تعالى بدليل الحدوث ، ويعنون به أن العالم — وهو كل ما سوى الله تعالى — حادث وجد بعد عدم ، وأن موجده هو الله وحده ، ويصوغون الدليل هكذا :

العالم حادِث ، وكل حادث لابد له من محدث قديم .

إذن فالعالم لابد له من محدث قديم .

فالقضية الأولى « العالم حادث » هي صغرى القياس من الشكل الأول .

والقضية الثانية « كل حادث لابد له من محدث قديم » هي كبرى القياس من الشكل الأول .

والقضية الثالثة « العالم لابد له من محدث قديم » هي نتيجة القياس .

والمقدمتان الأولى والثانية نظريتان تحتاجان إلى استدلال كي نسلم بالنتيجة .

دليل المقدمة الأولى :

العالم حادث :

استدل المتكلمون على حدوث العالم بالتغير وقالوا :

العالم متغير ، وكل متغير حادث .. إذن فالعالم حادث .

فنحن بالمشاهدة ندرك التغير في الليل والنهار ،والحركة والسكون ، والحرارة والبرودة ، والسواد والبياض ، والحياة والموت ... إلخ .

وما قد نشاهده على حال واحدة فإن تغيره ممكن وواقع قد يدركه جيل بعدنا ، فالجبال الشوامخ ألفناها ثابتة قروناً عديدة ، وهى الآن تُزال وتُدمر تدميراً ، وإن العلم الحديث يثبت أن الكواكب السيارة يمكن أن تخرج عن مسارها وتنفجر فى أية لحظة .

فكل شيء متغير ..

الإنسان يكون نطفة وعلقة ومضغة ، وطفلاً وشاباً وكهلاً .

والذرة تتحول إلى طاقة .

والعناصر تتفاعل .. إن تركيب الأكسجين والأيدروجين بنسبة معينة ينتج الماء ، وهذا الماء تحت ضغط حرارة معينة يتحول إلى بخار ، والبخار يمكن تكثيفه فيعود إلى ماء .

وقد حاول الأقدمون تقسيم العالم إلى جواهر وأعراض[3] وحكموا على الأعراض بالتغير والحدوث بالمشاهدة ، وحكموا على الجواهر بالتغير والحدوث بملازمة الأعراض .

ولهم سلسلة من الاستدلالات .

لقد أثبتوا حدوث الأعراض بمطالب سبعة نظمها بعضهم في قوله :

زَيْد ، م قام ، ما انتقلْ ، ما كمنا ما انفك ، لا عُدْم قديم ، لاحنا[4]

لقد أثبت المتكلمون : **أولاً** : زيادة الأعراض على الجواهر بالمشاهدة .

وثانياً : نفوا أن يقوم العرض بنفسه لأنه لا يعقل صفةمن غير موصوف .

وثالثًا : نفوا أن ينتقل العرض من جوهر إلى جوهر ، لأنه فى حال الانتقال يكون قائماً بنفسه وهو ما يتناقض مع تعريف العرض .

ورابعاً : نفوا أن يكون العرض كامناً في الجوهر عند طريان ضده ، لأنه يلزم عليه الجمع بين النقيضين أو الضدين فى محل واحد .

وخامساً : نفوا أن ينفك الجوهر عن الأعراض مطلقاً ، لأنه لا يعقل خلو جوهر عن الحركة والسكون معاً ، فذلك رفع للنقيضين محال .

وسادساً : نفوا أن يكون العرض قديماً ، ثم عدم في حال طريان ضده ، لأن

---

(١) الجوهر ما قام بنفسه ، والعرض ما قام بغيره .

(٢) لاحنا نحت من قولهم : استحالة حوادث لا أول لها ، وقوله : «عُدْم» بضم العين وسكون الدال ، وقوله : «ما انتقل» بسكون اللام للوزن ، وقوله : «م قام» بحذف ألف ما النافية للوزن .

راجع حاشية على شرح أم البراهين تأليف محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي المتوفى سنة ١٢٣٠ هـ وبهامشه شرح أم البراهين للشيخ القوصي ط ١٣٥٨ هـ ص ١٥٢ .

القديم الواجب لا يقبل العدم وإلا كان قلباً للحقائق .

وسابعاً : نفوا أن تكون الأعراض حادثة بلا بداية ، فما من حادث إلا وقبله حادث ، لأن مفهوم الحادث ما له بداية ، فكيف يعقل حادث لا بداية له .

وبعد أن انتهى المتكلمون من إثبات حدوث الأعراض حكموا بحدوث الجواهر بدليل الملازمة هكذا :

الجواهر ملازمة للأعراض الحادثة ، وكل ما لازم الحادث فهو حادث .
إذن الجواهر حادثة .

دليل المقدمة الثانية :

وكل حادث لابد له من محدث قديم :

الحادث هو ما وجد بعد عدم .
وهذا الوجود قائم على إبداع وحكمة وإتقان .
وليس معقولاً أن يكون الحادث الذى هو العالم وجد مصادفة ، فإن المصادفة لا تخلق نظاماً .

وليس يعقل أن يكون الحادث أوجده حادث مثله ، لأنهما متساويان ، يجرى فى أحدهما ما يجرى فى الآخر ، فيحتاج كل منهما إلى محدث قديم ، وإلا دار الأمر أو تسلسل وكلاهما باطل .

فالدَّوْر توقف شىء على شىء قد توقف على الأول بمرتبة أو مراتب ، كتوقف وجود « أ » على (ب) ، وتوقف (ب) على (أ) .

أو توقف (أ) على (ب) ، وتوقف (ب) على (حـ) ، وتوقف (جـ) على (د) ، ثم توقف (د) على (أ) .

فالدور باطل ، لأنه يقتضى التقدم والتأخر فى لحظة واحدة ، أو الوجود والعدم فى وقت واحد ، وهذا جمع بين النقيضين محال .

فهو يقتضى وجود (أ) باعتباره محدثاً ، ويقتضى فى اللحظة نفسها عدم (أ) باعتباره حادثاً .

أما التسلسل فهو تعاقب الحوادث فى الماضى بلا بداية ، فما من حادث إلا وقبله حادث إلى ما لا نهاية .. وهذا باطل ، لأن ما حصره الوجود فهو حادث له بداية ، وهو يختلف عن حوادث المستقبل ؛ لأنها مجرد تخيل ويمكن للذهن أن يتصور حوادث بعدها حوادث مستقبلاً بلا انقطاع .

هذا وليس يعقل أن يكون الحادث وجد من ذاته وطبيعته ، لأن ما بالذات لا يتخلف ، فإذا كان من طبيعته الوجود تحتم القدم له ولزمه الوجود وانقلبت حقيقته من الحادث إلى القديم ، ومن الممكن إلى الواجب ، وقلب الحقائق محال .

فلابد أن ينتهى الحادث إلى محدث قديم ، منحه الوجود وأبدع صنعه وتولى شئونه .

ذلكم المحدث القديم هو الله تعالى واجب الوجود بذاته .

* * *

اعتراض الفلاسفة الإسلاميين

الفلاسفة يقولون بقدم العالم ، ويثبتون وجود الله تعالى ، ويتبنون ما يسمى بنظرية العقول العشرة ، ويزعمون أن العالم صدر عن الله تعالى صدور العلة عن معلولها ، ويصفون العالم بالقدم الزمانى ، وهو ما لا يسبقه عدم ويحتاج إلى مؤثر ، هو الله تعالى الموصوف وحده بالقدم الذاتى .

ويذهبون إلى أن الله تعالى واحد من كل وجه ، فلا يصدر عنه إلا واحد .. وهذا الواحد الصادر عن الله متكثر بالاعتبار ، فهو متصف بالإمكان من حيث إن غيره أثر فيه ، وبالوجوب من حيث إنه علة للقديم ، فهذا الواحد قديم بقدم علته .

ويتوالى الفيض ويتكاثر الصدور حتى تصل الأفلاك إلى تسعة ، والعقول إلى عشرة ، ويصبح فلك القمر هو الفلك التاسع ، ويصير عقل فلك القمر هو العقل العاشر المسمى عندهم بالعقل الفعال ، وهو الذى يدبر العالم الأرضى[1] .

وعلى هذا فالعالم فى جملته عندهم قديم بالزمان ، حادث بالذات ، ولا أول له ، لأن العلة والمعلول مقترنان ، ويرون أن الجزئيات والأفراد حادثة ذاتاً وزماناً .

وهناك بحوث مطولة ونزاع كبير حول قدم العالم وحدوثه ، اشترك فيها الفلاسفة والمتكلمون وأنصار الاتجاه السلفى ، وقد كَفَّرَ الإمام أبو حامد الغزالى الفلاسفة لقولهم بقدم العالم[2] ، وجاء ابن رشد ليهون من نظرية قدم العالم ، ويرى أن نصوص الكتاب العزيز تشير إلى مادة أزلية سابقة على خلق العالم المشاهد مثل الماء فى قوله تعالى : ﴿ .. وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ...﴾ ومثل الدخان فى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّماءِ وَهِيَ دُخَانٌ ...﴾[3] .

---

(١) راجع كتابا (المجتمع المثالى فى الفكر الفلسفى وموقف الإسلام منه) ص ١٩٦ – ٢١٠ طبعة دار المعارف بمصر ، وكتاب (آراء أهل المدينة الفاضلة) للفرابى .

(٢) راجع كتاب (تهافت الفلاسفة) تحقيق د. سليمان دنيا ، ط دار المعارف بمصر .

(٣) راجع كتاب (مناهج الأدلة فى عقائد الملة) تحقيق د. محمود قاسم – ط مكتبة الأنجلو المصرية

ثم تبنى أنصار الاتجاه السلفى القضية القائلة بجواز حوادث لا أول لها فى الماضى وجعلوها أظهر الأقوال ، وانتصروا للرأى القائل بأن العالم مخلوق من مادة ، وكأن المادة ليست من العالم .

وقال شارح العقيدة الطحاوية :

وأما قول من قال بجواز حوادث لا أول لها من القائلين بحوادث لا آخر لها [1] فأظهر فى الصحة من قول مَنْ فرق بينهما فإنه سبحانه لم يزل حياً ، والفعل من لوازم الحياة ، فلم يزل فاعلاً لما يريد كما وصف بذلك نفسه حيث يقول ، ﴿ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ، فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾ [2] .

وحمل الشارح الآية على أن الفعل أكمل من عدم الفعل ، وأن الفعل والإرادة متلازمان ، ووصف القائلين بأن الحوادث لها أول بأنهم معطلة [3] .

لقد تمحضت مسألة حدوث العالم أو قدمه عن قضايا جدلية كثيرة منها :

١ - قضية الجوهر الفرد :

اعتمد المتكلمون فى إثبات حدوث العالم على نظرية ديمقريطس اليونانى (ت ٣٦٠ ق . م تقريباً) فى الذرة ، وهى جزيئات مادية غير قابلة للانقسام ، لا تختلف إلا بصورها وأحجامها ، وقد رفض هذه النظرية كثير من العلماء ، وخاصة فى العصر الحديث ، حيث تبين أن الذرة نفسها مركبة وأنها قابلة للانصهار والتحول من المادة إلى الطاقة .

ومن السهل أن نلقى بقضية الجوهر الفرد فى اليم ، ولا يضير ذلك مسألة حدوث العالم ، فالتغير قائم فى كل شىء ، وقضية وجود الله تعالى أعمق من كل دليل ، وأصح من كل برهان ، وأقوى من كل حجة .

---

(١) من الناس من ذهب إلى أولية الحوادث ونهايتها ، فقال بفناء الجنة والنار مثل جهم بن صفوان ، ومنهم من قال بعدم أولية الحوادث وعدم آخريتها كالأنصار الاتجاه الفلسفى والسلفى ، ومنهم من فرق فأحال عدم أولية الحوادث وأجاز عدم نهايتها كجمهور العلماء .

(٢) سورة البروج الآيتان . ١٥ ، ١٦ .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص ١٣٧ - طبعة المكتب الإسلامى .

﴿ .. قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾[1] .

٢ – قضية التسلسل :

انتصر القائلون بحدوث العالم لقضية استحالة التسلسل إلى غير بداية فى الماضى ، وشنعوا على من قال بحوادث لا أول لها .

وقد تبنى قضية « حوادث لا أول لها » فلاسفة وسلفيون ، ووقعوا فى تناقض ظاهر حين جمعوا بين الحدوث والقدم ، فإن مفهوم الحادث ما له أول ، وهو يناقض قولهم : لا أول له ، وما تركب من حوادث فهو حادث قطعاً .

ثم إن حديث القرآن عن الخلق سبقه كلمة بدأ ، أو يبدأ ، أو يبدئ ، مما يدل دلالة قوية على أن للخلق أولية ، وللحدوث بداية ، ولكل شىء فى الكون نقطة ابتداء سبقها العدم المحض الذى ليس بشىء .

وجاء ذلك فى أساليب بيانية متنوعة ، منها :

* أسلوب التأكيد بإن ، كما فى قوله تعالى : ﴿ .. إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴾[2]

* أسلوب التأكيد بالجملة الاسمية وضمير الفعل وحرف التأكيد كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴾ ، وهذه الآية من سورة البروج ، تنسق بآيتين قوله تعالى : ﴿ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾ وكأنها تفسير لمعنى الفعل الذى لا يكون إلا حدوثاً له بداية .

* أسلوب الاستفهام الانكارى الذى ينزع فعل الخلق من الشركاء المزعومين ويثبته لله وحده ، وهو فعل له بدء وليس قديماً .. قال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ الْخَلْقَ ثُمَّ يعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾[3]

---

(١) سورة الأنعام الآية · ٩١

(٢) سورة يونس الآية · ٤ .

(٣) سورة يونس الآية : ٣٤

* أسلوب الاستفهام التقريرى للحقيقة نفسها ، وهى بدء الخلق ، كما فى قوله تعالى : ﴿ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١) .

* أسلوب الاستفهام التقريرى للعلم بهذه الحقيقة ، وكأن بدء الخلق من الوضوح والظهور بحيث لا يخفى على ذى فطنة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (٢) .

* أسلوب الأمر بالبحث عن حقيقة بدء الخلق وأول النشأة لهذا الكون الفسيح وتلك المخلوقات العجيبة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٣) .

فقضية « حوادث لا أول لها » وهم كبير وخدعة لا تخفى على ذى لب !!

٣ - الإرادة والقدرة الإلهيتان :

تساءل الفرقاء عن الإرادة والقدرة الإلهيتين : هل هما متلازمتان ؟ فما أراده الله أزلاً أوجده أزلاً ، ولا تنفك الإرادة عن الفعل ولا ينفصل الفعل عن الإرادة ؟!

لقد رفض القائلون بقدم العالم ما يسمى عند المتكلمين بالصلوحى القديم والتنجيزى الحادث ، بمعنى صلاحية القدرة فى الأزل للإيجاد فيما لا يزال .

وجرت مداخلات فكرية حول قوله تعالى : ﴿ **فعال لما يريد** ﴾ ، وظن البعض أن الفعل أكمل من عدم الفعل ، وذهبوا إلى القول بقدم العالم ، ووقعوا فى تصور خاطئ حين أخذوا القضية على إطلاقها ، لأنه لا أحد يقول : إن الله لا يفعل مطلقاً حتى يُقال له : إن الفعل أكمل من عدم الفعل .

وإنما الخلاف حول مفهوم الإرادة والاختيار ، فالمختار المريد يفعل ما يشاء متى شاء وكيف شاء ، وعدم الفعل ليس عجزاً ، والفعل نفسه ليس قهراً وقسراً .

---

(١) سورة النمل الآية . ٦٤ .
(٢) سورة العنكبوت الآية : ١٩ .
(٣) سورة العنكبوت الآية : ٢٠ .

ورغم أن القضية برمتها من أفق سامٍ يتعلق بالذات الأقدس ، ويفوق التصور البشرى إلا أن الأقرب إلى الفهم هو القول ببدء الخلق وأولية النشأة وبداية التكوين وحدوث العالم .

وإن تلازم الفعل للإرادة أزلاً بحيث يؤدى إلى قدم العالم وحوادث لا أول لها هو قول بالعلة ، ونفى للاختيار لا يتناسب مع جلال الله وكماله ، ويتنافى مع قوله تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ...﴾ (1) .

﴿ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴾ (2) .

وليتأدب الفرقاء فإن هذه المسألة من غيب الغيوب ، وقد قال الله تعالى : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ (3) .

* * *

---

(1) سورة القصص الآية : ٦٨ .

(2) سورة الأنبياء الآية : ٢٣ .

(3) سورة الكهف الآية : ٥١ .

دليل الإمكان

يستدل الفلاسفة على وجود الله تعالى بدليل الإمكان ، ويرفضون دليل الحدوث ، لأن العالم عندهم قديم بالزمان ، لم يسبقه عدم ، وهو يحتاج إلى مؤثر ، فقدم العالم تابع لقدم الله تعالى بطريق العلة التى لا تتخلف عن المعلول .

وقد يسمون هذا المعنى بالحدوث الذاتى .

والمتكلمون لا يمنعون الاستدلال بدليل الإمكان ، لأن كل ممكن عندهم حادث بالزمان : أى سبقه عدم .

ويصاغ دليل الإمكان هكذا :

العالم ممكن لذاته ، وكل ممكن لذاته مفتقر إلى واجب الوجود لذاته ، فتكون النتيجة : العالم مفتقر إلى واجب الوجود لذاته .

ونشرح هذا الدليل على النحو التالى :

١ – الممكن يستوى طرفا وجوده وعدمه ، فليس وجوده من ذاته وإلا صار واجب الوجود لا يقبل العدم .. وليس عدمه من ذاته ، وإلا صار مستحيلاً لا يقبل الوجود أصلاً .. فقبول العالم للوجود والعدم دليل إمكانه .

٢ – وجود الممكن يحتاج إلى مرجح ، لأن وجوده ليس ذاتياً .

٣ – هذا المرجح إما أن يكون نفس الممكن أو غير الممكن .

٤ – إذا كان المرجح نفس الممكن فهو باطل ، لأنه يقتضى التقدم باعتباره فاعلاً ، والتأخر باعتباره مفعولاً ، كل ذلك فى لحظة واحدة ، وهذا جمع بين النقيضين محال .

٥ – إذا كان المرجح غير الممكن فهو أحد أمرين لا ثالث لهما :

(أ) المستحيل . (ب) واجب الوجود .

٦ – إذا كان المرجح هو المستحيل فهو باطل ، لأن المستحيل عدم ، فلا يعقل أن يمنح الوجود ، لأنه فاقد له ، وفاقد الشىء لا يعطيه .

٧ – فلا يبقى إلا أن يكون المرجح واجب الوجود ، وهو الله تعالى .

إشارات ابن سينا

قدم الشيخ الرئيس ابن سينا (ت ٤٢٨ هـ) الدليل الفلسفي على وجود الله تعالى في إشاراته وتنبيهاته بألفاظه الموجزة وتعبيراته الدقيقة ، فقال :

الفصل التاسع : تنبيه :

كل موجود إذا التفت إليه من حيث ذاته من غير التفات إلى غيره :

فإما أن يكون بحيث يجب له الوجود في نفسه أو لا يكون .

وإن لم يجب لم يجز أن يقال : إنه ممتنع بذاته بعدما فرض موجوداً ، بل إن قرن باعتبار ذاته شرط مثل شرط عدم علته صار ممتنعاً ، أو مثل شرط وجود علته صار واجباً .

وإن لم يقرن بها شرط ، لا حصول علة ولا عدمها ، بقي له في ذاته الأمر الثالث وهو الإمكان ، فيكون باعتبار ذاته الشيء الذي لا يجب ولا يمتنع .

فكل موجود :

إما واجب الوجود بذاته .

أو ممكن الوجود بذاته .

* * *

الفصل العاشر : إشارة :

ما حقه في نفسه الإمكان فليس يصير موجوداً من ذاته ، فإنه ليس وجوده من ذاته أولى من عدمه ، من حيث هو ممكن .

فإن صار أحدهما أولى فلحضور شيء أو غيبته .

فوجود كل ممكن هو من غيره .

الفصل الحادى عشر : تنبيه :

إما أن يتسلسل ذلك إلى غير النهاية ، فيكون كل واحد من آحاد السلسلة ممكناً في ذاته ، والجملة متعلقة بها ، فتكون غير واجبة أيضاً ، وتجب بغيرها .. ولنزد هذا بياناً .

الفصل الثانى عشر : شرح :

كل جملةٍ ، كل واحد منها معلول ، فإنها تقتضى علة خارجة عن آحادها ، وذلك لأنها :

* إما أن لا تقتضى علة أصلاً ، فتكون واجبة غير ممكنة ، وكيف يتأتى هذا وإنما يجب بآحادها ؟!

* وإما أن تقتضى علة هى الآحاد بأسرها ، فتكون معلولة لذاتها ، فإن تلك الجملة والكل شيء واحد .

وأما الكل بمعنى كل واحد فليس تجب به الجملة .

* وإما أن تقتضى علة هى بعض الآحاد ، وليس بعض الآحاد اولى بذلك من بعض ، إذا كان كل واحد منها معلولاً ، لأن علته أولى بذلك

وإما أن تقتضى علة خارجة عن الآحاد كلها وهو الباقى

* * *

الفصل الثالث عشر : إشارة :

كل علةِ جملةٍ هى غير شيء من آحادها ، فهى علة أولاً للآحاد ، ثم للجملة وإلا فلتكن الآحاد غير محتاجة إليها .

فالجملة إذا تمت بآحادها لم يحتج إليها ، بل ربما كان شيء ما علة لبعض الآحاد دون بعض ، فلم تكن علة للجملة على الإطلاق .

* * *

الفصل الرابع عشر : إشارة :

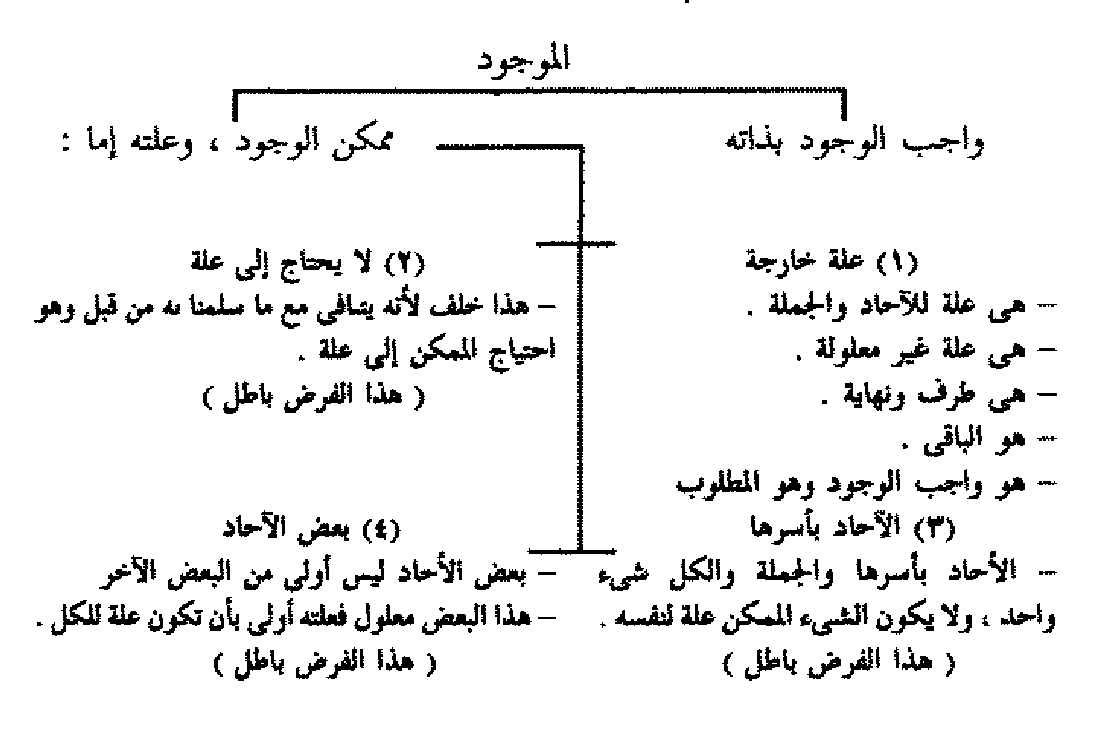
كل جملة مترتبة من علل ومعلولات على الولاء ، وفيها علة غير معلولة فهى طرف ، لأنها إن كانت وسطا فهى معلولة .

الفصل الخامس عشر : إشارة :

كل سلسلة مترتبة من علل ومعلولات – كانت متناهية أو غير متناهية – فقد ظهر أنها إذا لم تكن فيها إلا معلول احتاجت إلى علة خارجة عنها ، لكنها تتصل بها لا محالة طرفاً .

وظهر أنه إن كان فيها ما ليس بمعلول فهى طرف ونهاية ..
فكل سلسلة تنتهى إلى واجب الوجود بذاته[1] .

رسم توضيحى لفكرة ابن سينا



---

(١) الإشارات والتنبيهات لأبى على بن سينا ، مع شرح نصير الدين الطوسى تحقيق د. سليمان دنيا – القسم الثالث – الطبعة الثانية – دار المعارف .

دليل التوارد والتمانع

يقدم المتكلمون مجموعة أدلة على وحدانية الله تعالى ، أشهرها ما يسمى دليل التوارد والتمانع ، ويستخلصونه من مثل قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [(1)] .

وقوله جل شأنه : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [(2)] .

ويصاغ الدليل هكذا :

لو فرض إلهان مستجمعان لشرائط الألوهية بحيث يكون كل منهما كامل القدرة ، كامل الإرادة ، كامل العلم ، له كل الجلال والجمال والكمال .

لترتب الفساد المفضى إلى عدم وجود العالم .

وكل ما أدى إلى الفساد يكون باطلاً .

فالنتيجة : لو فرض إلهان لكان ذلك باطلاً .

فهذا قياس اقترانى ، مقدمته الصغرى شرطية ، ومقدمته الكبرى حملية [(3)] .

دليل التلازم :

والدليل على التلازم بين المقدم والتالى في القضية الصغرى الشرطية : أى الدليل على ترتب الفساد على فرض وجود إلهين هو ما يلى :

لو فرض إلهان ، فإما أن يتفقا أو يختلفا .

وعلى كل يترتب الفساد المفضى إلى عدم وجود العالم .

وفرض الاتفاق يسمى دليل التوارد ، وفرض الاختلاف يسمى دليل التمانع .

---

(١) سورة الأنبياء الآية : ٢٢ .   (٢) سورة المؤمنون الآية : ٩١ .

(٣) القضية الحملية هى التى حكم فيها بثبوت شىء لشىء أو نفيه عنه ، والشرطية هى التى حكم فيها بالتلازم أو العناد بين شيئين أو نفيه بينهما ، والقياس الاقترانى هو الذى لم تذكر فيه النتيجة ولا نقيضها بالفعل وإنما ذكرت بمادتها فقط .

دليل التوارد :

لو فرض وجود إلهين يتفقان على وجود (س) مثلًا ، فهناك عدة صور يتخيلها العقل ، وكلها باطلة وهى :

١ - إن اتفق الإلهان على وجود (س) استقلالاً فى لحظة واحدة ، بأن يوجده كل واحد منهما على انفراد فى وقت واحد ، فهذه صورة باطلة ، لأنها تؤدى إلى اجتماع مؤثرين على أثر واحد ، إذ كل إله مؤثر له أثر ، وتتعدد الآثار بتعدد المؤثرين ، لكن الأثر هنا واحد ، وهو ما اتفقا عليه ، وهو ما رمزنا إليه بالحرف (س) .

وقد يعبر عن ذلك بامتناع مقدور بين قادرين .

٢ - إن اتفق الإلهان على إيجاد (س) استقلالاً ، مرتباً ، بأن يوجده كل واحد من الإلهين مستقلاً عن الآخر ، فى وقتين متتالين ، بحيث يبدأ الأول وينتهى ثم يبدأ الثانى وينتهى .

فهذه صورة باطلة لأن الأثر قد وجد بالأول ، فماذا يوجد الثانى ؟!

فيلزم تحصيل الحاصل وهو باطل .

٣ - إن اتفق الإلهان على تقسيم العمل ، بحيث يوجد كل واحد منهما جزءا من الشيء المتفق عليه ، فهذا عجز يتنافى مع كمال الألوهية ، فالذى يقبل المشاركة والتقسيم يكون محدود القدرة والإرادة ، ممنوعاً من العمل فيما عمل فيه الآخر ، فلا يكون كل منهما إلهاً .

٤ - إن اتفق الإلهان على التعاون والعمل المشترك ، يداً بيد ، من غير تحديد أو تقسيم ، فتلك أيضاً مصيبة ، لأن الذى يقبل المعونة هو العاجز الذى لا يستطيع تدبير أموره كلها بنفسه .

٥ - هناك صورة خامسة محتملة وهى أن يتنازل أحد الإلهين المفترضين ، ويترك العمل مطلقاً ، ويرضى بما يفعله الآخر .

وهذه صورة موغلة فى البطلان ، لأنها تعطيل لصفات الإله وعزل له عن ممارسة اختصاصاته فلا يكون إلهاً .

فهذه كلها صور احتمالية للاتفاق على فرض وجود إلهين ، وكلها تؤدى إلى الفساد الذى هو عدم وجود الكائنات .

ويسمى هذا الدليل دليل التوارد أى التوافق .

دليل التمانع :

لو فرضنا وجود إلهين مستجمعين لشرائط الألوهية ، واختلفا حول إيجاد شيء معين ، فإما أن ينفذ مرادهما معاً ، أو لا ينفذ مرادهما معاً ، أو ينفذ مراد أحدهما فقط .

وهذه كلها صور باطلة لما يأتي :

١ – إن نفذ مرادهما معاً أصبحنا أمام شيء موجود ، معدوم في لحظة واحدة ، وهذا جمع للنقيضين محال .

٢ – وإن لم ينفذ مرادهما معاً أصبحنا أمام إلهين عاجزين عن تنفيذ مرادهما ، وبالتالي فلا يعقل أن يكونا إلهين ، ثم إنه يؤدي إلى أن يكون الشيء غير موجود نظراً لعدم نفاذ مراد من أراد إيجاده ، وغير معدوم نظراً لعدم نفاذ مراد من أراد إعدامه . وهذا رفع للنقيضين محال [(١)] .

٣ – وإن نفذ مراد واحد فقط كان الآخر – وهو الذي لم ينفذ مراده – عاجزاً ، فلا يعقل أن يكون إلهاً .

ثم إن الفرض أنهما متماثلان في كل شيء ، فما يثبت لأحدهما يثبت للآخر ، ومن ثم ينسحب العجز على الذي نفذ مراده ، لأنه مماثل للآخر ، فيكون كل منهما عاجزاً ، والعاجز ليس إلهاً .

فهذه الصور الثلاث احتمالات باطلة لما يسمى دليل التمانع والتخالف ..

ومن هنا فإن كل صور التوارد والتمانع باطلة فبطل ما أدى إليها ، وهو فرض وجود إلهين ، وثبت أنه إله واحد ، لا شريك له ، يختص وحده بالجلال كله والكمال بأجمعه .

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِىٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ [(٢)] .

---

(١) النقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان معاً ، بل لابد أن يثبت أحدهما كالوجود والعدم ، أو الحركة والسكون ، فالشيء إما موجود أو معدوم ، وإما ساكن أو متحرك ولا يخلو عن أحدهما

(٢) سورة الإسراء الآية ١١١ .

الوسوسة

عقيدة التوحيد مستقرة فى الفطرة السليمة ، يطمئن إليها العقل والقلب اطمئنانًا يسعد به الإنسان ، فتصدر السلوكيات - على مقتضى تلك العقيدة - نوراً فى الحياة ورحمة بالأحياء ، ويمارس المرء حياته العملية مستشعراً قدرة الله وحكمته .

وإذا كان إبليس اللعين قد أخذ على نفسه العهد أمام الله عز وجل أن يقعد للناس الصراط المستقيم ، ويجلب عليهم كل وسائل الإغراء والخديعة ، فإن الله تعالى قد استثنى عباده المخلصين من عمل الشيطان وجنبهم سوءاته وخطواته ، ولن يجد الشيطان سبيلاً على المؤمنين الصادقين فى كبائر الإثم والفجور .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ (١) .

لكن الشيطان يظل متربصاً بالإنسان ، ويحيط به من كل جانب ، وقد يجد لدى بعض المؤمنين منفذاً عن طريق الوسوسة ، وإثارة الشبهات ، وطرح تساؤلات باطلة ، كأن يلقى فى روع الإنسان هذا السؤال :

إذا كان الله قد خلق السماء والأرض وما بينهما فمن خلق الله ؟!

وطرح السؤال فى حد ذاته باطل عقلاً ، لأنه يفترض حدوث واجب الوجود ، وهذا قلب للحقائق مستحيل ، فإن الواجب لا ينقلب ممكناً ، وإن الممكن لا ينقلب واجباً أو مستحيلاً ، وإن المستحيل لا ينقلب واجباً أو ممكناً .. فحقائق الأشياء ثابتة .

وقد استشعر الصحابة رضى الله عنهم مثل هذه الوسوسة ، وتلك الخواطر العابرة ، وجاءت أحاديث تفيد هذا المعنى .

ففى صحيح مسلم هذه الروايات :

* عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : جاء ناس من أصحاب النبى ﷺ فسألوه :

---

(١) سورة الحجر الآية ٠ ٤٢ .

إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به ، قال : وقد وجدتموه ؟! قالوا : نعم . قال : ذاك صريح الإيمان .

* عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سئل النبى ﷺ عن الوسوسة قال : « تلك محض الإيمان » .

* عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يزال الناس يتساءلون ، حتى يقال : هذا خلق الله الخلق ، فمن خلق الله ؟! فمن وجد من ذلك شيئاً فليقل آمنت بالله » .

* عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يأتى الشيطان أحدكم فيقول : من خلق كذا وكذا ، حتى يقول له من خلق ربك ؟! فإذا بلغ ذلك فليستعذ بالله ولينته » .

وفى التعليق على هذه الأحاديث نلتقط من شرح الإمام النووى ما يلى :

* قوله ﷺ « ذاك صريح الإيمان » ، « تلك محض الإيمان » معناه استعظامكم الكلام به هو صريح الإيمان ، فإن استعظام هذا وشدة الخوف منه ومن النطق به ، فضلاً عن اعتقاده إنما يكون لمن استكمل الإيمان استكمالاً محققاً ، وانتفت عنه الريبة والشكوك .

وقيل معناه : إن الشيطان إنما يوسوس لمن أيس من إغوائه ، فينكد عليه بالوسوسة لعجزه عن إغوائه ، وأما الكافر فإنه يأتيه من حيث شاء ، ولا يقتصر فى حقه على الوسوسة ، بل يتلاعب به كيف أراد .

فعلى هذا فمعنى الحديث سبب الوسوسة محض الإيمان ، أو الوسوسة علامة محض الإيمان .

* قوله صلى الله عليه وسلم : « فليقل آمنت بالله » ، « فليستعذ بالله ولينته » معناه الإعراض عن هذا الخاطر الباطل ، والالتجاء إلى الله تعالى فى إذهابه .

قال الإمام المازرى رحمه الله : ظاهر الحديث أنه صلى الله عليه وسلم أمرهم أن يدفعوا الخواطر بالإعراض عنها والرد لها من غير استدلال ولا نظر فى إبطالها .

والذى يقال فى هذا المعى أن الخواطر على قسمين :

فأما الخواطر التى ليست بمستقرة ولا اجتلبتها شبهة طرأت فهى التى تدفع بالإعراض عنها ، وعلى هذا يحمل الحديث ، وعلى مثلها ينطلق اسم الوسوسة ، فكأنه لما كان أمراً طارئاً بغير أصل دفع بغير نظر فى دليل إذ لا أصل له ينظر فيه .

وأما الخواطر المستقرة التى أوجبتها الشبهة فإنها لا تدفع إلا بالاستدلال والنظر فى إبطالها .. و الله أعلم » [1] .

* * *

---

(١) شرح النووى على صحيح مسلم ، ح ٢ ، ص ١٥٤ .

الفصل الثانى

الأسماء والصفات

- أهمية الأسماء الحسنى .
- بين التقييد والإطلاق .
- اسم اللّه الأعظم .
- بين الاختصاص والعموم .
- جماع المعانى .
- الصفات الإلهية بين العقل والنقل :
  - الصفات العقلية .
  - وأخر متشابهات :
    - ١ – التفويض .
    - ٢ – التشبيه .
    - ٣ – التأويل .
    - ٤ – الإثبات بضوابط .
  - تعقيب ورأى :
    - ١ – حكمة المتشابه .
    - ٢ – نبذ التشبيه .
    - ٣ – حرية الاختيار .
    - ٤ – وجهة نظر .

أهمية الأسماء الحسنى

لا يعرف اللَّهَ إلا اللَّهُ ، وللعقل الإنساني مجاله الممتد فى آيات الأنفس والآفاق ، كى يرى عظمة الله وجلاله وكبرياءه وسلطانه ، وحتى يسير العقل فى تأملاته سيراً حسناً ، فإن له فى الأسماء الحسنى لله تعالى معلم هداية وموقف حكمة ، ومناط تفكير ، ومجال تأمل ، وملجأ عاصماً من الزلل فى الدلالة على أكمل الصفات وأجلها وأعلاها لربنا جل شأنه .

وقد جاء التعبير بالأسماء الحسنى فى القرآن المجيد فى أربع آيات ، نقف معها متأملين خاشعين :

الآية الأولى :

قال الله تعالى : **﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾**[1] .

والمعنى أن لله أسماء هى أحسن الأسماء لدلالتها على التمجيد والتقديس ، والمؤمن الحق يدعو الله ويعبده بما سمى به نفسه ، ويلتزم التزاماً صادقاً وأميناً بما شرع الله تعالى لا يتعداه ، أما الذين ينحرفون فى أسماء الله تعالى ويحرفونها فيطلقونها على الأصنام كما أطلق العرب اللات من لفظ الله ، والعزى من لفظ العزيز ، أو يكذبون بها ويصفون الله تعالى بما لا يليق كما قال اليهود : يد الله مغلولة ، إن الله فقير ، فإن لهم موعداً لن يخلف سيلقون فيه جزاء كفرهم وإلحادهم .

الآية الثانية :

قال الله جل شأنه : **﴿ قُلِ ادْعُواْ اللَّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَـٰنَ أَيًّامَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾**[2] .

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٨٠ .

(٢) سورة الإسراء الآية ١١٠ .

جاء في أسباب النزول عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : تهجد رسول الله ﷺ ذات ليلة بمكة فجعل يقول في سجوده : يا رحمن يا رحيم فقال المشركون : كان محمد يدعو إلهاً واحداً فهو الآن يدعو إلهين اثنين ، الله والرحمن ، ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة ، يعنون مسيلمة الكذاب ، فأنزل الله هذه الآية [1] .

ومعنى قوله : ﴿ .. ادْعُواْ اللَّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ ﴾ سموا الإله الحق باسم الله أو باسم الرحمن واذكروه بهذا أو ذاك ، فإن الله جل شأنه واحد أحد له الأسماء الحسنى المتعددة ، وتعدد الأسماء لا يدل على تعدد الذات وإنما يدل على أن كمالات الله لا تتناهى .

الآية الثالثة :

قال الله سبحانه : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ [2] .

وقد جاءت هذه الآية عقب آيات كريمات في صدر سورة طه تتحدث عن الله جل جلاله في واسع سلطانه ، وعظيم ملكه ، وكريم جوده على خلقه ، فقد أنزل القرآن خيراً وبركة الذى وسع ملكه السموات والأرض وأحاط علمه بكل شىء ، وله تدبير الكون والكائنات .

﴿ طه ۞ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ۞ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۞ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ۞ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ۞ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ۞ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ [3] .

ثم جاءت الآية الكريمة عقب ذلك ببيان أن هذا الإله الخالق المدبر العليم الحكيم – واحد أحد في ذاته ، له أسماء بالغة الحسن في التعظيم والتقديس .

الآية الرابعة :

قال الله عز وجل : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِى لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ

---

(١) أسباب النزول للواحدى ص ٢٢٣ ط مكتبة المتنبى بالقاهرة .

(٢) سورة طه الآية ٨ . (٣) سورة طه الآيات : ١ – ٧ .

الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١) .

فقد بدأ هذا النص الكريم بتعداد بعض الأسماء التى تطلق على الله تعالى ، ثم جاء قوله : ﴿ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ كتعميم بعد تخصيص .

وإذا انتقلنا إلى السنة النبوية المطهرة وجدنا حديثاً صحيحاً خرجه الإمام مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « لله تسعة وتسعون اسماً من حفظها دخل الجنة وإن الله وتر يحب الوتر » وفى رواية :

« إن لله تسعة وتسعين اسماً ، مائة إلا واحدًا ، من أحصاها دخل الجنة » .

والمراد من حفظها وإحصائها الإيمان بها ، وتعقل معناها ، وفهم دلالتها ، والتخلق بها على قدر الطاقة البشرية ، فإذا كان الله عالماً رحيماً قادراً ... إلخ فشأن المسلم أن يحرص على العلم النافع وأن يرحم عباد الله ، وأن يستعمل قدرته فى خدمة الضعفاء وذوى الحاجات .. وهكذا .

وفى معنى : « إن الله وتر يحب الوتر » قال الإمام النووى :

الوتر الفرد ، ومعناه فى حق الله تعالى الواحد الذى لا شريك له ، ولا نظير ، ومعنى « يحب الوتر » تفضيل الوتر فى الأعمال وكثير من الطاعات ، فجعل الصلاة خمساً ، والطهارة ثلاثاً ، والطواف سبعاً ، والسعى سبعاً ، ورمى الجمار سبعاً ، وأيام التشريق ثلاثاً ، والاستنجاء ثلاثاً ، وكذا الأكفان ، وفى الزكاة خمسة أوسق ، وخمس أواق من الورق ، ونصاب الإبل وغير ذلك ، وجعل كثيراً من عظيم مخلوقاته وتراً ، منها السموات والأرضون والبحار ، وأيام الأسبوع ، وغير ذلك .

وقيل : إن معناه منصرف إلى صفة من يعبد الله بالوحدانية ، والتفرد مخلصاً له والله أعلم (١) .

* * *

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ، ج ١٧ ، ص ٦ .

بين التقييد والإطلاق

كثير من المسلمين يحفظون الأسماء الحسنى على النحو التالى :

١ - الله [1]	٢ - الرحمن	٣ - الرحيم	٤ - الملك
٥ - القدوس [2]	٦ - السلام [3]	٧ - المؤمن [4]	٨ - المهيمن
٩ - العزيز	١٠ - الجبار [5]	١١ - المتكبر	١٢ - الخالق
١٣ - البارئ	١٤ - المصور	١٥ - الغفار	١٦ - القهار
١٧ - الوهاب	١٨ - الرزاق	١٩ - الفتاح [6]	٢٠ - العليم
٢١ - القابض	٢٢ - الباسط	٢٣ - الخافض	٢٤ - الرافع
٢٥ - المعز	٢٦ - المذل	٢٧ - السميع	٢٨ - البصير
٢٩ - الحكم	٣٠ - العدل	٣١ - اللطيف [7]	٣٢ - الخبير [8]
٣٣ - الحليم	٣٤ - العظيم	٣٥ - الغفور	٣٦ - الشكور
٣٧ - العلى	٣٨ - الكبير	٣٩ - الحفيظ	٤٠ - المغيث
٤١ - الحسيب [9]	٤٢ - الجليل	٤٣ - الكريم	٤٤ - الرقيب

---

(١) لفظ الجلالة اسم خاص بذاته تعالى ، لا يطلق على غيره ، قيل : إنه علم جامد ، وقيل : مشتق من أله إذا عبد وأصله الإله ، ثم حذفت الهمزة تخفيفاً ، وأدغمت اللام الأولى فى الثانية ، وقيل : من وله إذا تحير وأصله ولاه ، فأبدلت الواو همزة لانكسارها ، فقيل : إله كما فى وشاح وإشاح ، ثم أدخلت الألف واللام وحذفت الهمزة ، فقيل : الله .

(٢) القدوس : المنزه المعظم .

(٣) السلام : السالم عن النقائص أو مانح السلام لعباده .

(٤) المؤمن : المصدق لنفسه ورسله بالمعجزات والآيات ، أو الذى يمنح الأمان لعباده المؤمنين يوم الفزع الأكبر .

(٥) الجبار : من الجبر بمعنى الإصلاح ومنه جبر العظم ، وقيل بمعنى الإكراه : أى يجبر خلقه على ما يريد ، وقيل : منيع لا ينال ، عزيز لا يغالب ، عظيم لا مثل له .

(٦) الفتاح : ميسر العسير ، أو خالق الفتح : أى النصر ، أو الحاكم .

(٧) اللطيف : خالق اللطف والتيسير ، وقيل : العالم بالخفيات .

(٨) الخبير : العالم بالدقائق ، المحصى لمثاقيل الذر ، المطلع على السرائر والبواطن .

(٩) الحسيب : الكافى بخلق ما يكفى العباد ، أو المحاسب لعباده على ما قدمت أيديهم .

٤٥ – المجيب	٤٦ – الواسع [١]	٤٧ – الحكيم	٤٨ – الودود
٤٩ – المجيد	٥٠ – الباعث	٥١ – الشهيد [٢]	٥٢ – الحق
٥٣ – الوكيل [٣]	٥٤ – القوى	٥٥ – المتين [٤]	٥٦ – الولى [٥]
٥٧ – الحميد	٥٨ – المحصى	٥٩ – المبدى	٦٠ – المعيد
٦١ – المحيى	٦٢ – المميت	٦٣ – الحى	٦٤ – القيوم
٦٥ – الواجد [٦]	٦٦ – الماجد [٧]	٦٧ – الواحد	٦٨ – الصمد [٨]
٦٩ – القادر	٧٠ – المقتدر	٧١ – المقدم	٧٢ – المؤخر
٧٣ – الأول	٧٤ – الآخر	٧٥ – الظاهر [٩]	٧٦ – الباطن [١٠]
٧٧ – الوالى [١١]	٧٨ – المتعالى	٧٩ – البر	٨٠ – التواب
٨١ – المنتقم	٨٢ – العفو	٨٣ – الرءوف	٨٤ – مالك الملك
٨٥ – ذو الجلال والإكرام	٨٦ – المقسط [١٢]	٨٧ الجامع [١٣]	٨٨ – الغنى
٨٩ – المغنى	٩٠ – المانع	٩١ – الضار	٩٢ – النافع
٩٣ – النور [١٤]	٩٤ – الهادى	٩٥ – البديع [١٥]	٩٦ – الباقى
٩٧ – الوارث [١٦]	٩٨ – الرشيد	٩٩ – الصبور [١٧] .	

---

(١) الواسع : عظيم الجود والكرم ، كبير السلطان والملك .

(٢) الشهيد : العالم بكل شيء فى الماضى والحاضر والمستقبل .

(٣) الوكيل : المتكفل بأمور خلقه .

(٤) المتين : الكامل القدرة على كل شيء .

(٥) الولى . المتولى أمور خلقه .

(٦) الواجد الغنى وقيل · العالم .

(٧) الماجد : العلى الشأن ، العظيم المكانة .

(٨) الصمد : المقصود فى الحوائج ، المستغنى عن خلقه .

(٩) الظاهر . المعلوم بالأدلة الواضحة الجلية ، وقيل · الغالب الذى لا يقهر .

(١٠) الباطن . المحتجب عن الحواس ، ولا تدركه الأبصار . وقيل · العالم بالخفيات .

(١١) الوالى · الحاكم . (١٢) المقسط . العادل .

(١٣) الجامع · الذى يجمع الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم .

(١٤) النور : منور السموات والأرض والأكوان كلها .

(١٥) البديع : الخالق على غير مثال سبق ، بنظام وإحكام وإتقان .

(١٦) الوارث . الباقى بعد فناء خلقه

(١٧) الصبور : الذى لا يعجل العقوبة ويمهل ولا يهمل .

وهذا الترتيب والتقييد للأسماء الحسنى جاء فى رواية الترمذى وحكم عليها بأنها حديث غريب .

وفى رواية أخرى أخرجها الطبرانى جاءت المخالفة فى بعض الأسماء على النحو التالى :

القائم ، الدائم	بدلًا من	القابض الباسط .
والشديد	بدلًا من	الرشيد

والأعلى ، المحيط ، مالك يوم الدين ، بدلًا من الودود ، المجيد ، الحكيم ، ورواها ابن خزيمة فقال :

الحاكم	بدل	الحكم
والقريب	بدل	الرقيب
والمولى	بدل	الوالى
والأحد	بدل	المغنى

وقارن العلماء بين رواية لزهير ، ورواية لصفوان فوقعت المخالفة فى ثلاثة وعشرين اسمًا هى :

الفتاح – القهار – الحكم – العدل – الحسيب – الجليل – المحصى – المقتدر – المقدم – المؤخر – البر – المنتقم – المغنى – النافع – الصبور – البديع – الغفار – الحفيظ – الكبير – الواسع – الواحد – مالك الملك – ذو الجلال والإكرام .

فجاء فى رواية زهير بدلاً منها :

الرب – الفرد – الكافى – القاهر – المبين – الصادق – الجميل – البادى – القديم – البار – الوفى – البرهان – الشديد – الواقى – القدير – الحافظ – العادل المعطى – العالم – الأحد – الأبد – الوتر – ذو القوة .

ولهذا ترجح بين العلماء أن سرد الأسماء ليس مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ ، ولم يثبت أن النبى الكريم عين الأسماء المذكورة ، وإنما هى من جمع الرواة وإلحاقهم إياها بالحديث الصحيح القائل : « إن لله تسعة وتسعين اسماً »[1] .

---

(١) راجع تفصيل الروايات فى فتح البارى ، ج ١١ ، ص ٢١٤ .

وقال الإمام ابن حزم : وجاءت أحاديث في إحصاء التسعة والتسعين اسماً مضطربة لا يصح منها شيء أصلاً ، وإنما تؤخذ من نص القرآن ، ومما صح عن النبي ﷺ »[1] .

وإذا كانت هذه النصوص الواردة بشأن إحصاء التسعة والتسعين اسماً على تلك الشاكلة من الاضطراب والغرابة فهل قوله صلى الله عليه وسلم : « إن لله تسعة وتسعين اسماً ، مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة » مراد به التحديد والتقييد للأسماء الحسنى ؟

وقد أجاب الإمام النووي قائلاً :

اتفق العلماء أن هذا الحديث ليس فيه حصر لأسمائه سبحانه وتعالى ، فليس معناه أنه ليس له غير هذه التسعة والتسعين ، وإنما مقصود الحديث أن هذه التسعة والتسعين من أحصاها دخل الجنة ، فالمراد الإخبار عن دخول الجنة بإحصائها لا الإخبار بحصر الأسماء[2] .

وقد خالف الإمام ابن حزم هذا الاتجاه وذهب إلى أن أسماءه تعالى لا تزيد على التسعة والتسعين ، واستدل بالحديث الشريف نفسه وبقوله تعالى : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ...﴾ [3] .

وهذا الاستدلال من ابن حزم يمكن الرد عليه ، فالحديث ليس نصاً في التحديد ، ويفهم على أن قوله : « من أحصاها » خبر ، تسعة وتسعين ، والجار والمجرور في قوله : « لله » ليس خبراً ، كقولنا : لفلان مائة جنيه أعدها للصدقة ،فلا ينفي أن له غيرها . فالمراد الإخبار عما أعده للصدقة وليس الإخبار عما يملكه .

ويكون النص على الأسماء المذكورة لمنزلتها الخاصة لكونها جامعة لصفات الجلال والكمال .

أما الآية الكريمة من سورة النجم فليست مما يستدل به على نفي الزيادة ، لأنها

---

(١) المحلى ، ج ٨ ، ص ٣١ .
(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ، ج ١٧ ، ص ٥ .
(٣) سورة النجم الآية : ٢٣ .

واردة فى شأن الأصنام وإطلاق المشركين عليها أسماء لا تعبر عن حقيقة وضعها ، فهى لا تنفع ولا تضر ولا تملك لنفسها أو لغيرها شيئاً ، ومع ذلك يسمونها اللات من لفظ الله ، والعزى من لفظ العزيز ، ويعبدونها من دون الله ويقدمون لها القرابين .

ومما يستدل به على أن أسماء الله تعالى لا حصر لها - حديث ابن مسعود رضى الله عنه الذى أخرجه الإمام أحمد وصححه ابن حبان ، قال رسول الله ﷺ : « ما أصاب أحدًا قط هم ولا حزن فقال : اللهم إنى عبدك ، وابن عبدك أسألك بكل اسم هو لك ، سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى ، ونور صدرى ، وذهاب حزنى ، وجلاء همى وغمى ، إلا أذهب الله همه وحزنه ، وأبدله مكانه فرحاً ، فقيل يا رسول الله : ألا نتعلمها ؟ فقال : بلى ينبغى لمن سمعها أن يتعلمها » .

ويضاف إلى ذلك ما تقدم من اختلاف الأسماء فى الروايات ، بحيث لو جمعنا ما اتفق منها وما اختلف لوصلنا إلى عدد أكثر من تسعة وتسعين ، وعلى هذا فيكون الوارد شرعاً أكثر من هذا العدد .

لكن هل يجوز إطلاق أسماء على الله تعالى لم يرد بها الشرع ؟

حكى الشريف الجرجانى أقوالاً هى :

١ - ذهب المعتزلة والكرامية إلى أنه إذا دل العقل على اتصافه تعالى بصفة وجودية أو سلبية جاز أن يطلق عليه اسم يدل على اتصافه بها سواء ورد بذلك الإطلاق إذن شرعى أو لم يرد ، وكذا الحال فى الأفعال .

٢ - قال القاضى أبو بكر : كل لفظ دل على معنى ثابت لله تعالى جاز إطلاقه عليه بلا توقيف إذا لم يكن إطلاقه موهماً لما لا يليق بكبريائه ، فمن ثمة لم يجز أن يطلق عليه لفظ العارف ، لأن المعرفة قد يراد بها : علم يسبقه غفلة ، ولا لفظ الفقيه ، لأن الفقه : فهم غرض المتكلم من كلامه ، وذلك مشعر بسابقة الجهل ، ولا لفظ العاقل ، لأن العقل : علم مانع عن الإقدام على ما لا ينبغى ، مأخوذ من العقال ، وإنما يتصور هذا المعنى فيمن يدعوه الداعى إلى ما لا ينبغى .

ولا لفظ الفطن ، لأن الفطانة : سرعة إدراك ما يراد تعريضه على السامع فتكون مسبوقة بالجهل .

ولا لفظ الطبيب ، لأن الطب يراد به علم مأخود من التجارب .. إلى غير ذلك من الأسماء التى فيها نوع إيهام بما لا يصح فى حقه تعالى .

وقد يقال : لابد مع نفى ذلك الإيهام من الإشعار بالتعظيم حتى يصح الاطلاق بلا توقيف .

٣ – ذهب الشيخ (الأشعرى) ومتابعوه إلى أنه لابد من التوقيف وهو المختار ، وذلك للاحتياط احترازًا عما يوهم باطلاً لعظم الخطر فى ذلك ، فلا يجوز الاكتفاء فى عدم إيهام الباطل بمبلغ إدراكنا بل لابد من الاستناد إلى إذن الشرع[1] .

* * *

---

(١) شرح المواقف ، الموقف الخامس – تحقيق د. أحمد المهدى ص ٣٥٢ .

اسم الله الأعظم

شاع بين الناس أن لله تعالى اسماً هو أعظم الأسماء ، له مدخل خاص فى إجابة الدعاء وطلب الحاجات من الله عز وجل ، واختلف العلماء اختلافاً كبيراً فى هذا الاسم ، وقد انقسموا فريقين :

(أ) فريقاً يرى أنه اسم خاص أو لفظ معين ، وقد ساق الإمام ابن حجر فى تعيين هذا الاسم أربعة عشر رأياً منها :

١ - لفظ الجلالة (الله).
٢ - الرحمن الرحيم الحى القيوم .
٣ - ذو الجلال والإكرام .
٤ - كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) .
٥ - الحنان المنان ، بديع السموات والأرض ، ذو الجلال والإكرام الحى القيوم .

وقدم الإمام ابن حجر استدلالات لهذا الفريق لا تخلو من مطعن فى السند أو الاستدلال ، وعلى سبيل المثال ما أخرجه ابن ماجه عن عائشة أنها سألت النبى ﷺ أن يعلمها الاسم الأعظم فلم يفعل ، فصلت ودعت : اللهم إنى أدعوك الله ، وأدعوك الرحمن ، وأدعوك الرحيم ، وأدعوك بأسمائك الحسنى كلها ما علمت منها وما لم أعلم .. وفيه أنه صلى الله عليه وسلم قال لها : « إنه لفى الأسماء التى دعوت بها » .

قال ابن حجر : وسنده ضعيف وفى الاستدلال به نظر لا يخفى .

وما أخرجه أبو يعلى من طريق السرى بن يحيى عن رجل من طى وأثنى عليه قال : كنت أسأل الله أن يرينى الاسم الأعظم فأريته مكتوباً فى الكواكب فى السماء ، يعنى « بديع السموات والأرض ذو الجلال والإكرام » [1] .

والرؤى والأحلام لعامة المسلمين ليست مما يستدل به فى الدين .

---

(١) فتح البارى ، ج ١١ ، ص ٢٢٤ .

وساق الإمام الرازى حججاً لهذه الآراء لا تنهض دليلاً على الدعوى مثل قولهم فى الاستشهاد على لفظ الجلالة (الله) :

أن هذا الاسم ما أطلق على غير الله تعالى ، فإن العرب كانوا يسمون الأوثان آلهة إلا هذا الاسم ، فإنهم ما كانوا يطلقونه على غير الله سبحانه وتعالى ، والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾[١] .

وقال تعالى : ﴿ .. هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾[٢] ، معناه هل تعلم من اسمه الله سوى الله ، ولما كان هذا الاسم فى الاختصاص بالله تعالى على هذا الوجه وجب أن يكون أشرف أسماء الله سبحانه وتعالى[٣] .

فإن المسألة لا تخضع لترجيحات البشر ، وإنما المرجع فيها إلى تعيين الشرع ، وحيث لم يرد النص الصريح فيكون التعيين تحكما .

(ب) الفريق الآخر : يرى أن المراد باسم الله الأعظم حالة نفسية يستشعر المرء معها جلال الله وكماله ، فتجعله يدعو الله ضارعا موقناً بالإجابة شأن دعوة المضطر ، فيحقق الله رجاءه ويجيب دعاءه .

ونقل ابن حجر أن قوماً أنكروا الاسم الأعظم كأبى جعفر الطبرى وأبى الحسن الأشعرى وجماعة بعدهما كأبى حاتم بن حبان ، والقاضى أبى بكر الباقلانى وقالوا :

لا يجوز تفضيل بعض الأسماء على بعض ، ونسب ذلك بعضهم لمالك لكراهيته أن تعاد سورة أو تردد دون غيرها من السور لئلا يظن أن بعض القرآن أفضل من بعض فيؤذن ذلك باعتقاد نقصان المفضول عن الأفضل .

وحملوا ما ورد من ذلك على أن المراد بالأعظم العظيم ، وأن أسماء الله كلها عظيمة ، وعبارة أبى جعفر الطبرى :

اختلفت الآثار فى تعيين الاسم الأعظم ، والذى عندى أن الأقوال كلها

---

(١) سورة الزمر الآية . ٣٨ .
(٢) سورة مريم الآية : ٦٥ .
(٣) شرح أسماء الله الحسنى للرازى – تعليق طه عبدالرءوف سعد – ص ٩١ – طبعة مكتبة الكليات الأزهرية .

صحيحة إذ لم يرد فى خبر منها أنه الاسم الأعظم ولا شيء أعظم منه ، فكأنه يقول : كل اسم من أسمائه تعالى يجوز وصفه بكونه أعظم فيرجع إلى معنى عظيم .

وقال ابن حيان : الأعظمية الواردة فى الأخبار إنما يراد بها مزيد ثواب الداعى بذلك كما أطلق ذلك فى القرآن والمراد به مزيد ثواب القارئ[1] .

وساق الإمام الرازى ثلاث حجج لهذا الفريق هى :

١ - أن الاسم كلمة مركبة من حروف مخصوصة اصطلحوا على جعلها معرفة للمسمى ، فعلى هذا ، الاسم لا يكون له فى ذاته شرف ومنقبة ، إنما شرفه ومنقبته بشرف المسمى ، وأشرف الموجودات ، وأكملها هو الله سبحانه وتعالى ، وكل اسم ذكر العبد ربه به على ما يكون عارفاً بعظمة الرب فذلك الاسم هو الاسم الأعظم .

٢ - أنه تعالى فرد محض ، أحد محض ، منزه عن التركيب والتأليف ، فيستحيل أن يقال بعض أسمائه يدل على الجزء الأشرف من ذاته ، والآخر يدل على الجزء الذى ليس بالأشرف ، ولما كان هذا محالاً كان جميع أسمائه دالة على ذاته الموصوفة بالوحدانية الحقيقية والفردانية الحقيقية ، وإذا كان كذلك امتنع كون بعض أسمائه أعظم من بعض .

٣ - الآثار المروية فى هذا الباب ، منها ما روى أن واحداً سأل جعفر الصادق رضى الله عنه عن الاسم الأعظم فقال له : قم واشرع فى هذا الحوض واغتسل حتى أعلمك الاسم الأعظم ، فلما شرع فى الماء واغتسل وكان الزمان زمان الشتاء ، والماء فى غاية البرد ، فلما أراد أن يخرج من جانب الماء أمر جعفر أصحابه حتى منعوه من الخروج عن الماء ، وكلما أراد أن يخرج ألقوه فى ذلك الماء البارد ، فتضرع الرجل إليهم كثيراً فلم يقبلوا قوله ، فغلب على ظن ذلك الرجل أنهم يرون قتله وإهلاكه ، فتضرع إلى الله تعالى فى أن يخلصه منهم ، فلما سمعوا منه ذلك الدعاء أخرجوه من الماء وألبسوه الثياب وتركوه حتى عادت القوة إليه .

---

(١) فتح البارى ، ج ١ ، ص ٢٢٤ .

ثم قال لجعفر الصادق : الآن علمني اسم الله الأعظم ، فقال جعفر : يا هذا إنك قد تعلمت الاسم الأعظم ودعوت الله به وأجابك ، فقال : وكيف ذلك ؟

قال جعفر : إن كل اسم من أسمائه تعالى يكون فى غاية العظمة إلا أن الإنسان إذا ذكر اسم الله عند تعلق القلب بغير الله لم ينتفع به ، وإذا ذكره عند انقطاع طمعه من غير الله كان ذلك الاسم الأعظم ، وأنت لما غلب على ظنك أنا نقتلك لم يبق تعويل إلا على فضل الله ، ففى تلك الحالة : أى اسم ذكرته فإن ذلك الاسم هو الاسم الأعظم »[1] .

ومما يؤكد هذا الاتجاه أن النصوص الواردة شرعاً فى اسم الله الأعظم أطلقته على أسماء متعددة ولم تلتزم اسماً معيناً ، وهى على نوعين :

١ - نصوص لم يقلها رسول الله ﷺ وإنما أقرها .
٢ - نصوص قالها الرسول ﷺ وعلمها أصحابه .

من النوع الأول حديث بريدة أن النبى ﷺ سمع رجلاً يدعو وهو يقول : اللهم إنى أسألك بأنى أشهد أنك أنت الله ، لا إله إلا أنت ، الأحد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد .

فقال صلى الله عليه وسلم : والذى نفسى بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى .

وحديث أنس : دخل النبى ﷺ المسجد ورجل يصلى وهو يدعو ويقول فى دعائه : اللهم لا إله إلا الله ، أنت المنان ، بديع السموات والأرض ، ذو الجلال والإكرام .

فقال : « أتدرون بما دعا الله ؟ دعا الله باسمه الأعظم الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى » .

ففى هذين الموقفين نطق الرجلان بما ألهمهما الله وبما استشعرا معناه واستقر فى القلب ، وترجم عنه اللسان ، فأقرهما الرسول ﷺ ووصف حالهما ودعاءها بأنه دعاء مستجاب باسم الله الأعظم .

---

(١) شرح أسماء الله الحسنى للرازى ، ص ٨٨ .

ومن النوع الثانى حديث أسماء بنت يزيد : قال النبى ﷺ : « اسم الله الأعظم فى هاتين الآيتين : ﴿ وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ﴾ وفاتحة آل عمران : ﴿ الم * اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ .

وحديث سعد بن مالك قال : سمعت النبى ﷺ يقول : « هل أدلكم على اسم الله الأعظم الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى ؟

الدعوة التى دعا بها يونس حيث نادى فى الظلمات الثلاث : ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ﴾ .

فقال رجل : يا رسول الله هل كانت ليونس خاصة أم للمؤمنين عامة ؟ فقال : ألا تسمع قول الله عز وجل ﴿ ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين ﴾ » .

ففى هذين الحديثين لم يكن هناك التزام بلفظ معين مما يؤكد الاتجاه القائل بأن الاسم الأعظم ليس له لفظ مخصوص ولكنه موقف دعاء ينقطع فيه القلب عن الخلق ، ويعظم اتصاله بالملأ الأعلى ، ويقوى الرجاء فى الله ، وتتأكد الخشية منه سبحانه .

* * *

بين الاختصاص والعموم

الأسماء الحسنى لها دلالات خاصة عند إطلاقها على الله تعالى ، لا يشركه فيها أحد غيره ، لأن كل ما هو متصل بالله تعالى وصفاته لا يشبه شيئاً من مخلوقاته ، فهو سبحانه ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ ، ﴿ ولم يكن له كفوًا أحد ﴾ .

وإذا أطلقت بعض الأسماء على غير الله فبمعان أخرى ودلالات تناسب المخلوق .

وقد ذكر العلماء أن هناك أسماء يقتصر إطلاقها على الله تعالى لا يجوز إطلاقها على غيره مثل :

الله - القدوس - مالك الملك - المحى المميت - ذو الجلال والإكرام ..

وهناك أسماء يوصف بها الله تعالى وصفاً مطلقاً ، ولا يوصف بها غيره إلا مقيداً مثل :

الرب - القابض - الباسط - الخافض - الرافع .

وإذا أطلقت على البشر قيدت مثل : رب الأسرة ، الرحم القابض ، خافض درجات التلاميذ ، رافع مرتبات العاملين .

وهناك أسماء تطلق بألفاظها على الله تعالى وعلى البشر مثل :

العالم - العليم - الحكيم - القادر - الحليم - الملك - السيد .

وقد استعملها القرآن فى كلا الاطلاقين :

قال تعالى فى حق إبراهيم : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴾ [1] .

وقال جل شأنه فى حق إسحق : ﴿ .. وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ [2] .

وقال سبحانه فى حق يحيى : ﴿ .. وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [3] .

---

(١) سورة هود الآية . ٧٥ . (٢) سورة الداريات الآية . ٢٨ .

(٣) سورة آل عمران الآية ٣٩ .

وقال عز وجل فى حق فرعون مصر ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ .. ﴾ (١) .

فاللفظ المشترك يطلق بحقيقتين مختلفتين تماماً ، فعلم البشر لا يرقى إلى علم الله ، وحلم البشر لا يتساوى مع حلم الله ، وملك البشر يتضاءل أمام ملك الله ، وسيادة البشر تصغر أمام سيادة الله .. وهكذا ..

وهناك أسماء تطلق على الله مرتبطة بإضافة مثل :

قابل التوب – شديد العقاب ، رفيع الدرجات ، ذوالعرش ، ذو الجلال ، ذو المعارج ..

فلا يقال : قابل ، أو شديد ، أو رفيع ، أو ذو .

وهناك أسماء تطلق على الله تعالى مقترنة بأضدادها منعاً للإيهام مثل :

القابض الباسط ، المحيى المميت ، المعز المذل ..

فإطلاق لفظ المميت أو القابض أو المذل منفرداً عن ضده قد يوهم نقصاً فى حق الله تعالى وكأن أفعال الله مختصة بهذه المعانى فقط ، ولذا كان من الأدب اقتران هذه الألفاظ ..

وقد تشتق أسماء لله تعالى من أفعاله كالقابض الباسط من قوله تعالى : ﴿ وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ ﴾ (٢) ، وقد يمتنع هذا الاشتقاق مثل قوله سبحانه ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ واللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (٣) فلا يقال : الماكر ، ومثل قوله جل شأنه ﴿ وسَقَاهُم رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ (٤) ، فلا يقال : الساقى ، ومثل قوله عز وجل ﴿ إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِي ﴾ (٥) ، فلا يقال : المصلى .

* * *

(١) سورة يوسف الآية : ٥٤ .
(٢) سورة البقرة الآية : ٢٤٥ .
(٣) سورة آل عمران الآية . ٥٤ .
(٤) سورة الإنسان الآية ٠ ٢١ .
(٥) سورة الأحزاب الآية ٥٦

جماع المعانى

الأسماء الحسنى يجمعها عدة معانى تلتقى تحت كل معنى منها مجموعة أسماء ، ونقل الإمام البيهقى أن الحاكم أبا عبد الله الحسين بن الحسن الحليمى ذكر خمس عقائد تنطوى تحتها الأسماء الحسنى ، هى :

١ – إثبات وجود البارى جل جلاله لتقع به مفارقة التعطيل مثل الأول والآخر والباقى والحق المبين .

٢ – إثبات وحدانيته لتقع به البراءة من الشرك مثل الواحد والكافى والعلى ..

٣ – إثبات أنه تعالى ليس بجوهر ولا عرض لتقع به البراءة من التشبيه مثل الأحد والعظيم والعزيز والمتعالى والكبير والغنى والسبوح والقدوس ..

٤ – إثبات أن وجود كل ماسواه كان من إبداعه واختراعه إياه لتقع به البراءة من قول من يقول بالعلة والمعلول مثل : الله والحى والعالم والقادر والحكيم والسيد والجليل والبديع والبارىء والخالق والمصور والمقتدر ..

٥ – إثبات أنه تعالى مدبر ما أبدع ومصرفه على ما يشاء لتقع به البراءة من قول القائلين بالطبائع أو بتدبير الكواكب أو تدبير الملائكة مثل المدبر والقيوم والرحمن الرحيم والحليم والكريم والعفو والغافر والغفار والغفور والرءوف والصمد والحميد والفتاح والمهيمن والمقيت [1] .

ثم قال : إن أسماء الله تعالى جده التى ورد بها الكتاب والسنة وأجمع العلماء على تسميته بها منقسمة بين العقائد الخمس ، فيلحق بكل واحدة منهن بعضاً وقد يكون منها ما يلتحق بمعنيين ويدخل فى بابين أو أكثر [2] .

وإذا كان جمهور المتكلمين قد فصلوا الصفات الإلهية إلى ثلاث عشرة صفة مجمع عليها وهى :

---

(١) المقيت : خالق الأقوات وقيل بمعنى الشهيد العالم بالغيب والحاضر

(٢) الأسماء والصفات للبيهقى ص٢١ ط دار الكتب العلمية .

١ - الوجود ، وعدوه صفة نفسية .   ٢ - القدم .
٣ - البقاء .   ٤ - المخالفة للحوادث .
٥ - القيام بالنفس   ٦ - الوحدانية .

وهذه الصفات الخمس عدوها صفات سلبية .

٧ - القدرة .   ٨ - الإرادة .   ٩ - العلم .
١٠ - الحياة .   ١١ - السمع .   ١٢ - البصر .
١٣ - الكلام .

وهذه الصفات السبع عدوها صفات معان .

ويعرفون الصفة النفسية بأنهانفس الذات دون معنى زائد عليها والوصف بها عير معلل بعلة .

والصفة السلبية التى مفهومها سلب ضدها عن موصوفها أو ما كان السلب داخلاً فى مفهومها .

وصفة المعانى التي تدل على معنى زائد يقوم بالذات .

إذا كان علماء التوحيد هكذا يدرسون الصفات فلا منافاة بين تركيزهم علي هذه الصفات وبين الأسماء الحسنى فى تعدادها وكثرتها ، فإن صفة العلم قد يلتقى تحتها أسماء العالم والعليم والخبير والمحصى والشهيد والحكم والحسيب والحكيم .. إلخ .

وإن صفة القدرة قد يلتقى تحتها أسماء الخالق والرازق والمحيى والمميت والباعث والقادر والمقتدر والمغنى والنافع الضار والقابض الباسط .. إلخ وهكذا .

وكمالات الله لا تتناهى وبالتالى فالأسماء الحسنى وصفات الله عز وجل لايتنافيان ولا يتعارضان ، فالاسم والصفة هنا بمعنى واحد ، اللهم إلا لفظ الجلالة « الله » فهو اسم علم غير مشتق وليس بصفة على الأصح فهو يدل على الذات دلالة مطلقة ، وبه تعرف جميع الأسماء والصفات فيقال مثلاً : الرحمن من أسماء الله ، ولا يقال : الله من أسماء الرحمن .

وقد ثار بحث حول الاسم والمسمى ، هل الاسم عين المسمى أو غيره ؟ .

قال شارح الطحاوية :

وطالما غلط كثير من الناس فى ذلك وجهلوا الصواب فيه ، فالاسم يراد به المسمى تارة ويراد به اللفظ الدال عليه أخرى .

فإذا قلت : قال الله كذا أو سمع الله لمن حمده ، ونحو ذلك ، فهذا المراد به المسمى نفسه .

وإذا قلت : الله اسم عربى ، والرحمن اسم عربى ، والرحيم من أسماء الله تعالى ونحو ذلك ، فالاسم هنا هو المراد لا المسمى ولا يقال غيره . (غير المسمى) لما فى لفظ الغير من الإجمال ، فإن أريد بالمغايرة أن اللفظ غير المعنى فحق ، وإن أريد أن الله سبحانه كان ولا اسم له حتى خلق لنفسه أسماء أو حتى سماه خلقه بأسماء من صنعهم فهذا من أعظم الضلال والإلحاد فى أسماء الله تعالى »[1] .

* * *

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ١٣١ ط المكتب الإسلامى .

الصفات الإلهية بين العقل والنقل

الصفات العقلية

وجود الله تعالى وصفات جلاله وكماله أمور يوجبها العقل ، ويوقن بها من خلال نظرة تأملية يسيرة :

* فوجود الخلق دليل وجود الخالق ..
* واستقامة الخلق دليل وحدة الخالق ..
* وتنوع الخلق دليل إرادة الخالق ..
* وعظم الخلق دليل قدرة الخالق ..
* وحكمة الخلق دليل علم الخالق ..
* وكل هذه الأشياء دليل حياة الخالق ..
* وحدوث الخلق دليل قدم الخالق ..
* ومن كان خالقاً قديماً فهو باق أبدى مباين لخلقه ، مالك لهم ، غنى عنهم ، وهو العلى الكبير ..

وهكذا تتوالى صفات الجلال والكمال ..

وجاءت نصوص القرآن المجيد تؤكد هذه الصفات ، وتوقظ الفطر السليمة للإيمان بها ..

ففى قضية الوجود الإلهي نقرأ على سبيل المثال .. قوله تعالى : **﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الخَالِقُونَ ۞ أَمْ خَلَقُوا السَّمَـٰوَاتِ والأَرْضَ بَل لَّا يُوقِـنُونَ ﴾** [1] .

وفى قضية الوحدانية نقرأ قوله سبحانه :

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا الله لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ الله رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [2] .

وفى قضية القدرة الإلهية نقرأ قوله جل شأنه :

---

(١) سورة الطور الآية ٣٥ - ٣٦ . (٢) سورة الأنبياء الآية ٢٢ .

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى العَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١) .

وفى قضية الإرادة الإلهية نقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْـمُلْكِ تُؤْتِي الْـمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْـمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۞ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْـمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْـمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٢) .

وفى قضية العلم الإلهى نقرأ قوله عز اسمه :

﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ۞ وَهُوَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٣) .

وفى قضية الحياة الإلهية نقرأ قوله تعالى :

﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ (٤) .

وفى قضية القدم والبقاء نقرأ قوله سبحانه :

﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٥) .

﴿ .. كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْـحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٦) .

وهكذا توافق النقل والعقل على هذه الصفات الإلهية ، والتقيا على وجوبها لله سبحانه وتعالى .

---

(١) سورة الأعراف الآية : ٥٤ .
(٢) سورة آل عمران الآيتان : ٢٦ ، ٢٧
(٣) سورة الأنعام الآيتان : ٥٩ ، ٦٠ .
(٤) سورة البقرة الآية : ٢٥٥ .
(٥) سورة الحديد الآية : ٣ .
(٦) سورة القصص الآية : ٨٨ .

وهذا القدر مما لا يختلف عليه عاقلان ، ولا يتمارى فيه فريقان ، ولا يختصم حوله علماء المسلمين ، لكن شطحات الفكر وخيالات العقل دفعت بهم إلى جدل طويل حول مباحث ، لا يدركون كنهها ، ولا يعرفون حقيقتها ، ولا يستطيعون لها حلاً ، فقد طرحوا تساؤلات حول الصفات مثل :

هل الصفات الإلهية عين الذات ، أو غير الذات ، أو لا عين ولا غير ؟!

واتهم الفرقاء بعضهم بعضاً !!

لقد اختار المعتزلة والفلاسفة الأول ، واختار جمهور المتكلمين الثانى ، واختار الأشعرى الثالث .

وشنع المعتزلة على مخالفيهم بأنهم يعددون القدماء ويلزمهم القول بآلهة شتى ، وإذا كان النصارى قد كفروا بثلاثة أقانيم فكيف بمن يقول بسبع صفات قديمة مغايرة للذات الإلهية ؟!

ورد مثبتو الصفات بأن المعتزلة معطلة ، جردوا الذات الإلهية عن التأثير فى الكون والكائنات ، وجعلوها وهماً لا حقيقة لها ، وخيالاً لا وجود لها .

ورأى المحققون من العلماء أن مسألة زيادة الصفات وعدم زيادتها ليست من الأصول التى يتعلق بها تكفير أحد الطرفين ، ونقل الإمام جلال الدين الدوانى المتوفى سنة ٩١٨هـ عن بعض الأصفياء أنه لا يرى بأساً فى اعتقاد أحد طرفى النفى والإثبات فى هذه المسألة .

وقدم الشيخ الدوانى تحقيقاً لقول الفلاسفة بعينية الصفات بأن ذاته تعالى من حيث إنه مبدأ لانكشاف الأشياء عليه – علم ، ولما كان مبدأ الانكشاف على ذاته بذاته كان عالماً بذاته .

وكذا الحال فى القدرة والإرادة وغيرها من الصفات .. قالوا : وهذه المرتبة أعلى من أن تكون الصفات مغايرة للذات ، فإنا مثلاً نحتاج فى انكشاف الأشياء علينا إلى صفة مغايرة لنا ، قائمة بنا ، وهو تعالى لا يحتاج إليها ، بل بذاته تنكشف الأشياء عليه .

ولذلك قيل : محصول كلامهم نفى الصفات وإثبات نتائجها وغاياتها ، وأما المعتزلة فظاهر كلامهم أنها عندهم من الاعتبارات العقلية التى لا وجود لها فى الخارج [1] .

---

(١) الشيخ محمد عبده بين الفلاسفة والكلاميين – تحقيق د. سليمان دنيا – ج ١ ، ص ٢٧٨ .

وأخر متشابهات

وردت نصوص شرعية تضيف ألفاظاً إلى الله تعالى ، يقف العقل أمامها دون أن يقطع بها إثباتاً أو نفياً ، وذلك كإضافة الوجه واليد والعين إلى الله سبحانه فى مثل قوله جل شأنه : ﴿ .. **كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ** ...﴾ [١] .

﴿ .. **يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ** ...﴾ [٢] .

﴿ **وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا** ...﴾ [٣] .

فكيف يفهم المسلم هذه النصوص ؟!

إن الفرق الإسلامية على أربعة اتجاهات هى :

التفويض ، أو التشبيه ، أو التأويل ، أو الإثبات بضوابطه .

وهاك التفصيل :

أولاً : التفويض :

عامة السلف الذين تلقوا هدى الكتاب الكريم بقبول حسن ، وآثروا صحة الاعتقاد وكثرة العمل ، ونزهوا عقولهم عن الجدال والخوض فيما لا يعنى – هؤلاء وجدوا أن فى آيات التنزيل ألفاظاً قد توهم التشبيه مثل قوله تعالى : ﴿ **الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ** ﴾ [٤] ، فجعلوها من المتشابه .

وأدركوا بسلامة فطرتهم أن العقل الإنسانى قاصر عن إدراك حقيقة الذات الإلهية وصفاتها ، فتوقفوا عن الخوض فيها ، وآثروا السلامة ، ففوضوا علم هذه الآيات إلى الله تعالى ، وقالوا :

أمروها كما جاءت ، وإذا سئلنا عن تفسيرها لا نفسرها .

---

(١) سورة القصص الآية : ٨٨ .
(٢) سورة الفتح الآية . ١٠
(٣) سورة الطور الآية ٤٨ .
(٤) سورة طه الآية ٥ .

وقد نقل الإمام البغوى فى تفسيره رواية عن سفيان الثورى ، والأوزاعى ، والليث بن سعد ، وسفيان بن عيينة ، وعبد الله بن المبارك وغيرهم من علماء السنة فى هذه الآيات التى جاءت فى الصفات المتشابهات :

« أمروها كما جاءت بلا كيف » .

ونقل الإمام الخازن فى تفسيره روايات للبيهقى منها :

* رواية يحيى بن يحيى قال : كنا عند مالك بن أنس ، فجاء رجل فقال : يا أبا عبد الله ﴿ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾ كيف استواؤه ؟!

فأطرق مالك برأسه حتى علته الرحضاء[1] ثم قال : الاستواء غير مجهول[2] ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة . وما أراك إلا مبتدعاً ، فأمر به أن يخرج .

* رواية عن ابن عيينة قال : كل ما وصف الله تعالى به نفسه فى كتابه فتفسيره تلاوته والسكوت عنه .

* ثم ذكر الخازن أن البيهقى قال :

« والآثار عن السلف فى مثل هذا كثيرة ، وعلى هذه الطريقة يدل مذهب الشافعى رضى الله تعالى عنه ، وإليه ذهب أحمد بن حنبل ، والحسن بن الفضل البجلى ، ومن المتأخرين أبو سليمان الخطابى »[3] .

وقد تكلم الإمام الشهرستانى عن فريق من السلف توقف فى التأويل وقالوا : لا نعرف معنى اللفظ الوارد فيه ، ولسنا مكلفين بمعرفة تفسير هذه الآيات وتأويلها ، بل التكليف قد ورد بالاعتقاد بأنه لا شريك له ، وليس كمثله شىء ، وذلك قد أثبتناه يقيناً .

---

(١) الرحضاء : العرق .

(٢) أى معلوم معناه اللغوى لكنه غير معقول الثبوت لله تعالى .

(٣) لباب التأويل فى معانى التنزيل للإمام علاء الدين على بن محمود بن إبراهيم البغدادى الصوفى المعروف بالخازن — فرغ من تأليفه يوم الأربعاء العاشر من رمضان ٧٢٥ هـ ، وبهامشه معالم التنزيل للإمام البغوى ح ٢ ، ص ١٩٦ — طبعة المكتبة التجارية الكبرى .

وأكد الشهرستانى أن منهاج السلف المتقدمين هو طريق السلامة فقالوا : نؤمن بما ورد به الكتاب والسنة ، ولا نتعرض للتأويل[1] ، بعد أن نعلم قطعاً أن الله عز وجل لا يشبه شيئاً من المخلوقات ، وأن كل ما تمثل فى الوهم فإنه خالقه ومقدره .

ونقل الشهرستانى أنهم كانوا يحترزون عن التشبيه إلى غاية أن قالوا : من حرك يده عند قراءة قوله تعالى « خلقت بيدى » ، أو أشار بأصبعيه عند رواية : « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن » ، وجب قطع يده وقلع أصبعيه .

واحتاط بعضهم أكثر حتى لم يقرأ اليد بالفارسية ، ولا الوجه ، ولا الاستواء ، ولا ما ورد من جنس ذلك ، بل إن احتاج فى ذكره إلى عبارة عَبّر عنها بما ورد لفظاً بلفظ ، فهذا هو طريق السلامة »[2] .

ولعل هذا المنهج التفويضى هو ما كان شائعاً على عهد الصحابة رضى الله عنهم ، وقد أخرج الدارمى فى مسنده ، ونصر المقدسى فى الحجة عن سليمان بن يسار أن رجلاً يقال له : صبيغ قدم المدينة فجعل يسأل عن متشابه القرآن ، فأرسل إليه عمر ، وقد أعد له عراجين النخل ، فقال : من أنت ؟!

قال : أنا عبد الله صبيغ ، فقال : وأنا عبد الله عمر .

فأخذ عمر عرجوناً من تلك العراجين فضربه حتى دمى رأسه ، فقال : يا أمير المؤمنين حسبك فقد ذهب الذى كنت أجد فى رأسى !!

وأخرجه الدارمى أيضاً من وجه آخر وفيه :

أنه ضربه ثلاث مرات ، يتركه فى كل مرة حتى يبرأ ثم يضربه .

وأخرج أصل القصة ابن عساكر فى تاريخه عن أنس .

وأخرج الدارمى وابن عساكر أن عمر كتب إلى أهل البصرة أن لا يجالسوا صبيغاً »[3] .

---

(١) التأويل بمعنى التفسير : أى لا نفسرها .

(٢) راجع الملل والنحل - تحقيق عبد العزيز الوكيل ص ٩٢ ، ١٠٤ ، ١٠٥ - طبعة دار الفكر - بيروت .

(٣) نقلا عن تفسير الإمام الشوكانى « فتح القدير » ج ١ ص ٣١٩ ، وراجع حياة الصحابة للكاندهلوى ج ٣ ، ص ٧٤٦

لقد كان الصحابة يسارعون إلى الخيرات ، ولم يتوقفوا عند لفظة أو ألفاظ قد يغيب فهمها عنهم ، أو تعلو على مداركهم ، ومضوا فى يقين الصادقين وإخلاص المؤمنين وطهارة الأبرار ينشرون الإسلام فى كل مكان .

ونقل عن الصديق رضى الله عنه أنه سئل عن قوله تعالى ﴿ وَفَاكِهَةً وأَبًّا ﴾ [1] ، فقال : أى سماء تظلنى ، وأى أرض تقلنى إنْ أنا قلت فى كتاب الله ما لا أعلم .

وجاءت مقولة حكيمة تنسب إلى مسروق قال :
اتقوا التفسير فإنما هو الرواية عن الله [2] !!

وهؤلاء المفوضة يقفون وقفاً لازماً على لفظ الجلالة في قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾ ثم يستأنفون القراءة :

﴿ .. والرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ... ﴾ [3] .

فهم يرون أن تأويل المتشابه وتفسيره وإدراك معناه مقصور على الله تعالى ، وأن شأن الراسخين فى العلم التفويض والإيمان بأن له معنى يليق بالله تعالى – يعلمه الله .

وهذا الاتجاه التفويضى لدى السلف أبرزه ابن خلدون وجعله فاتحة كلامه عن كشف الغطاء عن المتشابه من الكتاب والسنة ، وقال : ويدل على أن التأويل فيها غير معلوم للبشر أن الألفاظ اللغوية إنما يفهم منها المعانى التى وضعها العرب لها ، فإذا استحال إسناد الخبر إلى المخبر عنه جهلنا مدلول الكلام حينئذ ، وإن جاءنا من عند الله فوضنا علمه إليه ، ولا نشغل أنفسنا بمدلول نلتمسه ، فلا سبيل لنا إلى ذلك .

---

(١) سورة عبس الآية . ٣١ .
(٢) نقلاً عن « الموافقات في أصول الشريعة » للإمام الشاطبى ، ج ٣ ، ص ٣١٦ ، ط دار الكتب العلمية .
(٣) سورة آل عمران الآية : ٧ .

وقد قالت عائشة رضى الله عنها : « إذا رأيتم الذين يجادلون فى القرآن فهم الذين عنى الله فاحذروهم » .

هذا مذهب السلف في الآيات المتشابهة ، وجاء في السنة ألفاظ مثل ذلك ، محملها عندهم محمل الآيات ، لأن المنبع واحد »[1] .

وانتهى ابن خلدون إلى تقرير أن مذهب السلف هو تفويض المراد بها إلى الله ، والسكوت عن فهمها .

٢ - التشبيه :

ترتكز عقيدة التشبيه على ظواهر النصوص ، وتفسيرها من خلال معاجم اللغة ، بناء على أن القرآن نزل بلسان عربى مبين .

فنحن جميعاً نبحث عن ألفاظ القرآن لنفهمها من حيث الوضع العربى ما لم يرد صارف شرعى ينقلها إلى معنى آخر ، فالصلاة - مثلاً - نأخذها بالمعنى اللغوى وهو الدعاء فى قوله تعالى : ﴿ .. **وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ** ..﴾[2] .

ونأخذها بالمعنى الشرعى فى قوله تعالى : ﴿ **حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ** ﴾[3] ، فهى أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير ، مختتمة بالتسليم .

فإذا قرأنا مثل هذه الآيات :

﴿ .. **ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ** ... ﴾[4] .

﴿ **وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا** ...﴾[5] .

---

(١) مقدمة ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ ص ٣٧٥ - طبعة دار الكتب العلمية - بيروت ١٤١٣هـ ١٩٩٣م .

(٢) سورة التوبة الآية : ١٠٣ .

(٣) سورة البقرة الآية : ٢٣٨ .

(٤) سورة الأعراف الآية : ٥٤ .

(٥) سورة هود الآية : ٣٧ .

﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُون ﴾ [1] .

﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [2] .

فالمرجع إلى اللغة العربية ، فيكون لله تعالى استواء كاستوائنا ، وعين كعيننا ، ويد كيدنا ، ووجه كوجهنا ... إلخ .

ووصل هؤلاء المشبهة - كما قال الشهرستانى - إلى أنهم أجازوا على ربهم الملامسة والمصافحة ، وأن المسلمين المخلصين يعانقونه فى الدنيا والآخرة إذا بلغوا فى الرياضة والاجتهاد إلى حد الإخلاص والاتحاد المحض .

وحكى الكعبى عن بعضهم أنه كان يجوز الرؤية فى دار الدنيا ، وأن يزوروه ويزورهم ، وحكى عن داود الجواربى أنه قال :

اعفونى عن الفرج واللحية واسألونى عما وراء ذلك !!

وقال : إن معبوده جسم ولحم ودم ، وله جوارح وأعضاء من يد ورجل ورأس ، ولسان وعينين وأذنين ، ومع ذلك جسم لا كالأجسام ولحم لا كاللحوم ، ودم لا كالدماء !!

وكذلك سائر الصفات ، وهو لا يشبه شيئاً من المخلوقات ، ولا يشبهه شيء !!

وحكى عنه أنه قال : هو أجوف من أعلاه إلى صدره ، مصمت ما سوى ذلك ، وأن له وفرة [3] سوداء ، وله شعر قطط [4] » [5] .

ومن زعماء المشبهة أبو عبد الله محمد بن كرام من سجستان ، وبلغ أتباعه فى خراسان أكثر من عشرين ألفاً ، وكان له مثل ذلك فى أرض فلسطين ، وصفه الشهرستانى فقال :

---

(1) سورة يس الآية : ٧١ .

(2) سورة الرحمن الآية : ٢٧ .

(3) الوفرة : ما سال على الأذنين من الشعر

(4) قطط : أى جعد شديد الجعودة .

(5) الملل والنحل ص ١٠٥ .

ونبغ رجل متمسس[1] بالزهد من سجستان ، يُقال له : أبو عبد الله محمد بن كرام ، قليل العلم ، قد قمش[2] من كل مذهب ضغثا[3] ، وأثبته فى كتابه ، وروجه على أغتام[4] غرجة ، وغور ، وسواد بلاد خراسان .

فانتظم ناموسه ، وسار ذلك مذهباً ، وقد نصره محمود بن سبكتكين السلطان ، وصب البلاء على أصحاب الحديث والشيعة من جهتهم ، وهو أقرب مذهب إلى مذهب الخوارج ، وهم مجسمة ، وُحاش ، غير محمد بن الهيصم فإنه مقارب »[5] .

وذكره ابن كثير في تاريخ سنة خمس وخمسين ومائتين ، ونقل أنه ينسب إلى ابن كرام جواز وضع الأحاديث على الرسول ﷺ وأصحابه وغيرهم .. وأنه كان يقول : إن الإيمان قول بلا عمل .

ولما حبس وطال حبسه كان يتأهب لصلاة الجمعة ، ويأتى إلى السجان فيقول له : دعنى أخرج إلى الجمعة فيمنعه فيقول : اللهم إنك تعلم أن المنع من غيرى[6] !!

ثالثاً : التأويل :

وجد فريق من العلماء أن المشبهة قد وقعوا فى مزلق خطير هو تشبيه الخالق بالمخلوق ، وهو نقص يتنزه عنه المولى سبحانه .

ونقموا على المتشبهة أنهم لم يفهموا لغة العرب ، فإن فيها الحقيقة والمجاز ، وأنه إذا خلا الكلام من المجاز فقد خلا من الحسن .

فبدأ هؤلاء العلماء يصرفون الآيات عن ظواهرها اللغوية ويفسرونها تفسيراً مجازياً مناسباً للمقام .

فاليد بمعنى القدرة أو العطاء أو النعمة .

والوجه كناية عن الذات بأجمعها .

---

(١) أى متستر .

(٢) أخذ رذائل المذاهب .

(٣) الباطل والفاسد .

(٤) عوام هذه المناطق .

(٥) الملل والنحل ص ١٣١ .

(٦) البداية والنهاية لابن كثير ، تحقيق محمد عبد العزيز النجار .

والعين مجاز عن الرعاية .

والاستواء تعبير عن الاستيلاء والقهر والسلطان .

وقالوا ليس يعقل أن يكون لله تعالى صفة تسمى اليد فهماً من قوله تعالى : ﴿ يد اللَّه فَوْقَ أَيْدِيهم ﴾ ، وصفة تسمى اليدين فهماً من قوله جل شأنه : ﴿ لما خلقت بيديّ ﴾ وصفة تسمى الأيدى فهماً من قول سبحانه ﴿ مما عملت أيدينا ﴾ !!

وإذا كان صرف اللفظ من حقيقته إلى مجاره يحتاج إلى قرينة ، فإن القرينة فى مثل هذه الآيات هو التشبيه الذى لا يليق بجلال الله وكماله ، فيكون المعنى الحقيقى غير مراد ، وينبغى صرف اللفظ إلى المجاز .

ونسوق هنا نموذجاً تفصيلياً للراغب الأصفهانى المتوفى سنة ٥٠٢ هـ قال :

يد : اليد الجارحة .

واستعير اليد للنعمة ، فقيل : يَدَيْت إليه : أى أسديت إليه ، وتجمع على أيادٍ ، وقيل : يدىٌّ ، قال الشاعر :

* فإن له عندى يديًا وأنعما *

وللحوز والمِلْك مرة ، يقال : هذا فى يد فلان ، أى فى حوزه وملكه ، قال تعالى : ﴿ .. إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُواْ الَّذِى بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ ...﴾ [1] .

وقولهم ؛ وقع فى يَدَىْ عدل .

وللقوة مرة ، يقال لفلان يد على كذا ، ومالى بكذا يد ، وما لى به يدان ، قال الشاعر :

فاعْمَدْ لما تعلو فما لك بالذى لا تستطيع من الأمور يدان

ويقال : وضع يده فى كذا إذا شرع فيه .

ويده مطلقة عبارة عن إيتاء النعيم .

ويد مغلولة عبارة عن إمساكها ، وعلى ذلك قيل : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٣٧ .

مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾[1] .

ويقال : نفضت يدى عن كذا : أى خليت .

وقوله عز وجل : ﴿ .. إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ ...﴾[2] أى قويت يدك .

وقوله : ﴿ .. فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ ... ﴾[3] فنسبته إلى أيديهم تنبيه على أنهم اختلقوه ، وذلك كنسبة القول إلى أفواههم فى قوله عز وجل : ﴿ .. ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾[4] تنبيهاً على اختلاقهم .

وقوله : ﴿ .. أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ... ﴾[5] ، وقوله : ﴿ .. أُوْلِى الْأَيْدِى وَالْأَبْصَارِ ﴾[6] إشارة إلى القوة الموجودة لهم .

وقوله : ﴿ .. وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ ﴾[7] أى القوة .

وقوله : ﴿ .. حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾[8] أى يعطون ما يعطون عن مقابلة نعمة عليهم فى مُقارتهم ، وموضع قوله : (عن يد) فى الإعراب حال ، وقيل : بل اعتراف بأن أيديكم فوق أيديهم : أى يلتزمون الذل .

ويقال : فلان يد لفلان : اى وليه وناصره .

ويقال لأولياء الله : هم أيدى الله ، وعلى هذا الوجه قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ...﴾[9] فإذاً يده عليه الصلاة والسلام يد الله ، وإذا كان يده فوق أيديهم فيد الله فوق أيديهم ، ويؤيد ذلك ما روى : « لا يزال العبد يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ... الحديث » .

وقوله : ﴿ .. مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا ...﴾[10] ، وقوله : ﴿ .. لِمَا خَلَقْتُ

---

(١) سورة المائدة الآية ٦٤ .
(٢) سورة المائدة الآية : ١١٠ .
(٣) سورة البقرة الآية ٧٩ .
(٤) سورة التوبة الآية ٣٠ .
(٥) سورة الأعراف الآية ١٩٥ .
(٦) سورة ص الآية ٤٥
(٧) سورة ص الآية ١٠ .
(٨) سورة التوبة الآية ٢٩ .
(٩) سورة الفتح الآية ١٠ .
(١٠) سورة يس الآية ٧١ .

بِيَدَيَّ ﴾[1] ، فعبارة عن توليه لخلقه باختراعه الذى ليس إلا له عز وجل ، وخُصَّ لفظ اليد ليتصور لنا المعنى ، إذ هو أجل الجوارح التى يتولى بها الفعل فيما بيننا ، ليتصور لنا اختصاص المعنى لا ليتصور منه تشبيهاً .

وقيل : معناه بنعمتى التى رشحتها لهم ، والباء فيه ليس كالباء فى قولهم قطعته بالسكين بل هو كقولهم خرج بسيفه : أى معه سيفه ، معناه خلقته ومعه نعمتاى الدنيوية والأخروية اللتان إذا رعاهما بلغ بهما السعادة الكبرى .

وقوله : ﴿.. **يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ** ... ﴾ : أى نصرته ونعمته وقوته .

وأما قوله تعالى : ﴿ **وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ** ... ﴾[2] : أى ندموا ، يقال سقط فى يده وأسقط ، عبارة عن المتحسر ، أو عمن يقلب كفيه كما قال عز وجل : ﴿ .. **فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا** ... ﴾[3] .

وقوله : ﴿ **فردوا أيديهم فى أفواههم** ﴾ : أى كفوا عما أُمروا بقبوله من الحق ، يقال : رَدّ يده فى فمه : أى أمسك ولم يجب .

وقيل : ردوا أيدى الأنبياء فى أفواههم : أى قالوا ضعوا أناملكم على أفواهكم واسكتوا .

وقيل : ردوا نعم الله بأفواههم : أى بتكذيبهم .. »[4] .

وزعماء هذا الاتجاه جمهور المتكلمين من المعتزلة والأشاعرة .

لكن المعتزلة يجعلون التأويل الاختيار الأوحد ، ولا بديل عنه ، أما الأشاعرة فيجعلون التأويل ثانى اثنين ، فهم يقولون بالتأويل أو التفويض ، بل يميل كثير منهم إلى ترجيح جانب التفويض .

وعلى سبيل المثال فإن الإمام الرازى فى تفسيره يختار التفويض ويقول : « لا يعلم المتشابه إلا الله ، وهذا قول ابن عباس وعائشة ومالك بن أنس والكسائى

---

(١) سورة ص الآية : ٧٥ . (٢) سورة الأعراف الآية : ١٤٩ .

(٣) سورة الكهف الآية : ٤٢ .

(٤) المفردات فى غريب القرآن لأبى القاسم الحسن بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى – تحقيق محمد سيد كيلانى ص ٥٥٠ – طبعة دار المعرفة – بيروت

والفراء ، ومن المعتزلة أبو على الجبائى ، وهو المختار عندنا .. » .

ثم يقول : دل الدليل على أنه يمتنع أن يكون الإله فى مكان ، فعرفنا أنه ليس مراد الله تعالى من هذه الآية : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ ما أشعر به ظاهرها .. إلا أن فى مجازات هذه اللفظة كثرة ، وصرف اللفظ إلى البعض دون البعض لا يكون إلا بالترجيحات اللغوية الظنية .

والقول بالظن فى ذات الله تعالى وصفاته غير جائز بإجماع المسلمين .. وهذه حجة قاطعة فى المسألة .

والقلب الخالى عن التعصب يميل إليه .

والفطرة الأصلية تشهد بصحته ، وبالله التوفيق »[1] .

وفى موضع آخر من التفسير يسوق للعلماء الراسخين مذهبين ، يجعل أولهما أن نقطع بكونه تعالى متعالياً عن المكان والجهة ولا نخوض فى تأويل الآية على التفصيل بل نفوض علمها إلى الله .

ثم يعلق عليه قائلاً : « وهذا المذهب هو الذى نختاره ونقول به ، ونعتمد عليه »[2] .

وانتقد عضد الدين الإيجى موقف أبى الحسن الأشعرى من هذه النصوص ، وساقها تحت عنوان ، صفات اختلف فيها ، وقال عن الاستواء : « وذهب الشيخ (الأشعرى) فى أحد قوليه إلى أنه صفة زائدة ، ولم يقم دليلاً ، ولا يجوز التعويل على الظواهر مع قيام الاحتمال » ، وقال عن الوجه :

« أثبته الشيخ فى أحد قوليه ، وأبو إسحق الإسفرايني والسلف صفة زائدة ، وقال فى قول آخر ، ووافقه القاضى : إنه الوجود ، وهو – كما قبله – فى عدم القاطع[3] » .

ومن هنا جاء نظم الشيخ اللقانى فى جوهرة التوحيد :

وكل نص أوهم التشبيها أوله أو فوض ، ورم تنزيها

---

(١) التفسير الكبير أو مفاتح الغيب ، ج ٧ ، ص ١٩٠ .

(٢) التفسير الكبير أو مفاتح الغيب ، ج ١٤ ، ص ١٢١ .

(٣) المواقف ص ٢٩٧ .

رابعاً : الإثبات بضوابط :

رفض جمع من السلف والخلف الاتجاهات الثلاثة السابقة ، واصطنعوا مذهباً يقوم على الإثبات للوصف مع نفي التشبيه ، ورفض التأويل ، والطعن في التفويض.

وجاء في كتاب « الفقه الأكبر » المنسوب إلى الإمام أبي حنيفة :

« وله (تعالى) يد ووجه ونفس ، كما ذكره الله تعالى في القرآن ، فما ذكره الله تعالى في القرآن من ذكر الوجه واليد والنفس فهو له صفات بلا كيف ، ولا يقال : إن يده قدرته أو نعمته ، لأن فيه إبطال الصفة ، وهو قول أهل القدر والاعتزال ، ولكن يده صفته بلا كيف ، وغضبه ورحمته صفتان من صفاته تعالى بلا كيف »[1] .

وللإمام محمد بن إسحق بن خزيمة كتاب في هذا الموضوع يسمى « التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل » قال فيه :

« فأول ما نبدأ به من ذكر صفات خالقنا جل وعلا في كتابنا هذا - ذكر نفسه ، جل ربنا عن أن يكون نفسه كنفس خلقه ، وعز عن أن يكون عدماً لا نفس له ، قال الله جل ذكره لنبيه محمد ﷺ : ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ... ﴾[2] .

* * *

« فنحن وجميع علمائنا من أهل الحجاز وتهامة واليمن والعراق والشام ومصر مذهبنا أنا نثبت لله ما أثبته لنفسه ، نقر بذلك بألسنتنا ، ونصدق بذلك بقلوبنا ، من غير أن نشبه وجه خالقنا بوجه أحد من المخلوقين ، وعزّ ربنا عن أن نشبهه بالمخلوقين ، وجلّ ربنا عن مقالة المعطلين ، وعز عن أن يكون عدماً كما قال المبطلون » .

* * *

---

(١) شرح كتاب الفقه الأكبر لأبي حنيفة النعمان المتوفى سنة ١٥٠ هـ ، للملا على القارى المتوفى سنة ١٠١٤ هـ ، ص ٥٨ - طبعة دار الكتب العلمية - بيروت .

(٢) سورة الأنعام الآية ٥٤ .

« وصفة سبحات [1] وجهه عز وجل ، تعالى ربنا عن أن يكون وجه ربنا كوجه بعض خلقه ، وعز أن لا يكون له وجه ، إذ الله قد أعلمنا في محكم تنزيله أن له وجهاً دواه بالجلال والإكرام ، ونفى الهلاك عنه » [2] .

* * *

وذهب أبو الحسن الأشعرى إلى نفس الاتجاه فى كتابه « مقالات الإسلاميين » وحكى جملة ما عليه أهل الحديث والسنة من عقائد فى الإلهيات ومنها : الإقرار بأن الله سبحانه على عرشه كما قال : ﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾ وأن له يدين بلا كيف كما قال : ﴿ **خلقت بيدىّ** ﴾ ، وكما قال : ﴿ **بل يداه مبسوطتان** ﴾ ، وأن له عينين بلا كيف كما قال : ﴿ **تجرى بأعيننا** ﴾ ، وأن له وجهاً كما قال : ﴿ **ويبقى وجه ربك** ﴾ [3] .

وتبنى ابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨ هـ وأتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب المتوفى سنة ١٢٠٦ هـ هذا الاتجاه ودافعوا عنه بشدة ، وأنكروا أن يكون التفويض مذهباً للسلف ، وأكدوا أن علماء السلف لم يكفوا عن بيان معنى الآيات المتشابهات ولا تركوا تفسيرها ، وإنما حملوها على أنها كلها صفات لله عز وجل ، فهى معلومة عندهم ، والكيف هو المجهول كما فى سائر ما يخص الله تعالى .

ويرى شارح الطحاوية ابن أبى العز الدمشقى المتوفى سنة ٧٩٢ هـ أن لفظ التشبيه قد صار فى كلام الناس لفظاً مجملاً يراد به المعنى الصحيح .

ويذهب إلى أن ما دلّ عليه الكتاب والسنة ليس تشبيهاً طالما فهمناه فى إطار قوله تعالى : ﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ﴾ ، ويرى أن الشق الأول

---

(١) سبحات الله – بضم السين المهملة والباء الموحدة – جلاله وعظمته ، وهى فى الأصل جمع سبحة ، وقيل أضواء وجهه ، وقيل : محاسنه لأنك إذا رأيت حسن الوجه قلت سبحان الله .

(٢) كتاب « التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل » لابن خزيمة المتوفى سنة ٣١١ هـ ، راجعه وعلق عليه د. محمد خليل هراس ، ص ٥ ، ١٠ ، ١٩ – طبعة دار الكتب العلمية – بيروت سنة ١٣٩٨ هـ

(٣) مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين – تحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد ١٩٧٨م .

من هذا النص : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ رد على المشبهة ، وأن الشق الثانى ﴿ وهو السميع البصير ﴾ رد على النفاة المعطلة .

ويحفظ شارح الطحاوية للمذهبين حسن نيتهما ومدخلهما الصحيح فى نظره ويقول :

فالنفاة أحسنوا فى تنزيه الخالق سبحانه عن التشبه بشيء من خلقه ، ولكن أساءوا فى نفى المعانى الثابتة لله تعالى فى نفس الأمر .

والمشبهة أحسنوا فى إثبات الصفات ولكن أساءوا بزيادة التشبيه »[1] .

وقد رفض ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ أن يكون الإثبات بضوابطه مذهباً للسلف ، ونسبه إلى جماعة منهم هم المحدثون والمتأخرون من الحنابلة ، ووصفهم بالارتباك فى محمل هذه الصفات ، حين حملوها على صفات ثابتة لله تعالى مجهولة الكيف ، وأكد أنهم بذلك قد ولجوا فى باب التشبيه الذى تنفيه آيات السلوب ، من قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾[2] .

﴿ .. سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[3] .

﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾[4] .

﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ● وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَد ﴾[5] .

وأن ما يسمونه تنزيهاً فى قولهم : يد لا كالأيدى ، أو وجه لا كالوجوه ، هو قول متناقض سفساف »[6] .

نموذج تطبيقى :

نقدم للقارئ الكريم توضيحاً لهذه المذاهب الأربعة حول قوله تعالى : ﴿.. يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ... ﴾ :

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ١٠٤ - طبعة المكتب الإسلامى ١٣٩٩ هـ .

(٢) سورة الشورى الآية : ١١ .

(٣) سورة المؤمنون الآية : ٩١ .

(٤) سورة الإسراء الآية : ٤٣ .

(٥) سورة الإخلاص الآيتان : ٣ ، ٤ .

(٦) مقدمة ابن خلدون ص ٣٧٧ ، ٣٧٨ - طبعة دار الكتب العلمية - بيروت .

فالمفوضة يقولون : الله أعلم بمراده ، ولا يثبتون يداً ولا ينفونها ، ولا يقولون إنها حقيقة أو مجاز .

والمشبهة يقولون : إن لله تعالى يداً تشبه أيدينا ، لأن هذا هو وضع اللغة ، ونحن لا نعرف اليد إلا اليد البشرية .

والمؤولة يقولون : اليد هنا مجاز عن القدرة ، وقد صرفنا اللفظ عن ظاهره اللغوى بقرينة النقص اللازم له وهو التشبيه ، والله تعالى منزه عن النقص ومشابهة خلقه .

ومذهب الإثبات يرى أن لله يداً حقيقية تثبت له تعالى ، بلا تفويض فلا يقال الله أعلم بمراده ، وبلا تشبيه فلا يقال : إن له يداً تشبه أيدينا ، وبلا تأويل فلا يقال : إن اليد مجاز عن القدرة .

* * *

تعقيب ورأى

١ - حكمة المتشابه :

إن العقل المسلم الذى بدأ مع الأمر القرآنى الأول « إقرأ » لا يكون إلا عقلاً مجتهداً ، يبحث وينقب ، ويحلل ويركب ، ويعلل ويستنبط .. وقضية المحكم والمتشابه ما هى إلا تأكيد لأهمية الاجتهاد فى الدين .

وقد ساق الإمام الزمخشرى تساؤلاً هو : هلا كان القرآن كله محكماً ؟!

وأجاب قائلاً : لو كان كله محكماً لتعلق الناس به لسهولة مأخذه ، ولأعرضوا عما يحتاجون فيه إلى الفحص والتأمل من النظر والاستدلال .

ولو فعلوا ذلك لعطلوا الطريق الذى لا يتوصل إلى معرفة الله وتوحيده إلا به .

ولما فى المتشابه من الابتلاء والتمييز بين الثابت على الحق والمتزلزل فيه .

ولما فى تقادح العلماء وإتعابهم القرائح فى استخراج معانيه ، ورده إلى المحكم من الفوائد الجليلة ، والعلوم الجمة ، ونيل الدرجات عند الله .. ولأن المؤمن المعتقد أن لا مناقضة فى كلام الله ، ولا اختلاف ، إذا رأى فيه ما يتناقض فى ظاهره ، وأهمه طلب ما يوفق بينه ، ويجريه على سنن واحد ، ففكر وراجع نفسه وغيره ، ففتح الله عليه ، وتبين مطابقة المتشابه المحكم - ازداد طمأنينة إلى معتقده ، وقوة فى إيقانه »[١] .

إن آية سورة آل عمران فى المحكم والمتشابه ترشد إلى أن أصول الكتاب واضحة المعنى ، بينة الدلالة ، محروسة من الاحتمال ، ولهذا كانت محكمات يلتقى عليها المؤمنون الصادقون فى عقائدهم وعباداتهم ، فالتوحيد الخالص للهتعالى ، ونبوة محمد ﷺ وعموم رسالته وختمها للوحى الإلهى ، وفرضية الصلاة والزكاة والصوم والحج ، وحرمة الربا والزنا والقتل والسرقة ... إلخ . هذه كلها محكمات .

---

(١) الكشاف ، ج ١ ، ص ١٣٤ - الطبعة الأولى ١٣٤٣ هـ .

وهناك متشابهات تحتاج إلى فطنة عقل وروية فكر واجتهاد علم ، كى تحمل على أحسن المحامل وأقرب الوجوه وأصدق التأويل .

وهذا شأن الراسخين فى العلم بما منحهم الله من الحجة والبيان كما منح المرسلين من خلقه .. قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾[1] .

والراسخون فى العلم هم الذين يوكل إليهم أمر البيان والاستنباط ، وهم أهل الذكر المشار إليهم فى قوله تعالى : ﴿ .. وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ... ﴾[2] .

وقوله جل شأنه : ﴿ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾[3] .

ولهذا فنحن نرجح أن الراسخين فى العلم يعلمون التأويل الصحيح للمتشابهات على قدر طاقتهم البشرية ، ونرى أن العطف أولى من الوقف فى قوله تعالى : ﴿ .. وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ... ﴾[4] .

ونقل القرطبى عن شيخه أبى العباس أحمد بن عمر قوله :

وهو الصحيح ، فإن تسميتهم راسخين تقتضى بأنهم يعلمون أكثر من المحكم الذى يستوى فى علمه جميع من يفهم كلام العرب .

وفى أى شىء هو رسوخهم إذا لم يعلموا إلا ما يعلم الجميع ؟!!

لكن المتشابه متنوع ، فمنه ما لا يعلم ألبتة كأمر الروح والساعة مما استأثر الله بعلمه ، وهذا لا يتعاطى علمه أحد ، فمن قال من العلماء الحذاق بأن الراسخين لا يعلمون علم المتشابه ، فإنما أراد هذا النوع .

وأما ما يمكن حمله على وجوه فى اللغة فيتأول ويعلم تأويله المستقيم ويزال ما فيه من تأويل غير مستقيم[5] .

---

(١) سورة الأنعام الآية : ٨٣ .
(٢) سورة النساء الآية ٨٣ .
(٣) سورة الأنبياء الآية ٠ ٧ .
(٤) سورة آل عمران الآية ٠ ٧ .
(٥) نقلا عن ٠ فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية فى علم التفسير للإمام محمد بن على بن محمد الشوكانى المتوفى ١٢٥٠ هـ ، ج ١ ، ص ٣١٧ - طبعة دار الفكر .

٢ - نبذ التشبيه :

نحن نقبل المذاهب الاجتهادية فى الصفات ، اللهم إلا مذهب التشبيه ، فإنه لا مستند له من العقل ، ولا تأييد له من الشرع ، فنبذ التشبيه هو الأكرم للعقل والأصح فى الدين .

ولا يعنينا ما يقال : إن المشبهة أرادوا الإثبات ثم غلوا فيه ، فكم من النوايا الحسنة الحمقاء تلقى بأصحابها فى الدرك الأسفل من النار ، ولقد ابتدع النصارى الرهبانية ابتغاء رضوان الله وقبحهم الله وذمهم .. فقال :

﴿ .. وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾(١) .

وعبد المشركون الأصنام زلفى إلى الله ، ولحقهم مذمة الكفر والكذب ، وعار الجهل وعاقبة الخسران ، قال تعالى :

﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾(٢) .

إن المشبهة – عند حسن الظن بهم – أغبياء جهلاء ، فإن الله تعالى لا يماثله أحد من خلقه :

﴿ .. لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾(٣) .

﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَد ﴾(٤) .

والمشبهة – عند سوء الظن بهم – عملاء دخلاء ، يحملون أفكاراً وثنية ، يريدون إقحامها على العقيدة الإسلامية ، فالوثنية كلها قائمة على تشبيه الخالق

---

(١) سورة الحديد الآية · ٢٧ .
(٢) سورة الزمر الآية : ٣ .
(٣) سورة الشورى الآية : ١١ .
(٤) سورة الإخلاص الآية : ٤.

بالمخلوق ، وإثبات النقص للمعبود .. قال تعالى :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾[1] .

٣ - حرية الاختيار :

لا حرج على المسلم – بعد نبذ التشبيه – أن يعتقد مذهباً من المذاهب الثلاثة :

التفويض ، أو التأويل ، أو الإثبات بضوابطه .

فإن التفويض تسليم ، فالمسألة أكبر من العقل وأعظم من أن نحكم فيها بيقين كامل ، بل هو ترجيح وكفى .

وإن التأويل تنزيه ، وليس تعطيلاً كما يزعم البعض ، فالمؤولة يعرفون جلال الله وكماله حق المعرفة ، ولا ينازع فى ذلك إلا مكابر .

وإن الإثبات بضوابطه هو لون من التأويل ، فإنهم عندما يقولون : نثبت ما أثبته الله لنفسه بلا تشبيه ، فقد قالوا بالمجاز ، فإن صرف اللفظ عن ظاهره فى الوضع العربى هو مجاز وتأويل ، فإن اللغة لا تعرف يداً حقيقية إلا اليد البشرية بلحمها وشحمها وعظمها ، ومتى أثبتوا لله تعالى يداً لا كالأيدى فقد لزمهم المجاز .

ومن هنا فنحن نخفف الوطء وندعو إلى التقارب بين هذه المذاهب ، ونرجو عدم التصايح بعبارات التفسيق والتبديع تجاه هؤلاء الفرقاء ، فلم تكن المسألة فى يوم ما على عهد النبوة الأولى موضع أخذ ورد ، ولا تساؤل واستفهام وتركت المسألة للفهم الصافى الذى درج عليه العربى الفصيح .

٤ - وجهة نظر :

إن الذين يخوضون فى الصفات الخبرية ويجمعونها ويجادلون حولها ، ويجعلونها محور العقيدة وأساس الدين – هؤلاء يفقدون الحس اللغوى البليغ ،

---

(١) سورة الشعراء الآيات : ٦٩ – ٧٤ .

وتنقصهم الخشية من الله تعالى .. فإن آيات ما يسمى بالصفات الخبرية لم ترد لإثبات أجزاء للذات الإلهية ولا لتحديد أعضاء لها !!

إنها آيات ذات دلالة حكيمة لها صلة موضوعية بالسياق الذى وردت فيه .. فقوله تعالى : ﴿ يد الله فوق أيديهم ﴾ لم يرد فى القرآن المجيد لإثبات اليد ، ولا للحديث عن أوصاف الإله ، وإنما جاء لتأكيد بيعة المؤمنين لرسول الله ﷺ ، وحثهم على الوفاء لها والالتزام بها والحرص عليها .

ولنقرأ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (1) .

وقوله جل شأنه : ﴿ فإنك بأعيننا ﴾ لم يأت لإثبات العين لله تعالى ولا علاقة له بهذا الجانب مطلقاً ، لقد جاء التعبير الكريم دعوة للصبر ، وتثبيتاً لقلب النبى ﷺ ، ودعماً له فى موقفه أمام أعدائه ، وبيانا لفضل الله عليه ورعايته له .

ولنقرأ : ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴾ (2) .

وقوله سبحانه : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ ما جاء لإثبات صفة ذات لله تعالى ، وإنما لتأكيد صفة فعل للواحد القهار .

إن السياق القرآنى لهذا التعبير الكريم فى سابقه ولاحقه يجلى آثار الإبداع والقدرة والهيمنة الإلهية .

ولنقرأ : ﴿ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى * الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى * لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴾ (3)

---

(1) سورة الفتح الآية : ١٠ .

(2) سورة الطور الآيتان . ٤٨ ، ٤٩.

(3) سورة طه الآيات ٤ – ٦ .

ولنقرأ أيضاً :

﴿اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ (١) .

ولو أخذنا مثالاً من الحديث النبوى الشريف لوجدنا أن الأمر لا يختلف عما قلناه من أن السياق اللغوى هو الذى يحدد المعنى المراد .

ففى صحيح الحديث قال رسول الله ﷺ : « لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة ، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه ، فأيس منها ، فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها وقد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده ، فأخذ بخطامها ، ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدى وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح » .

فبالله عليك ماذا يفهم الإنسان السوى من هذا الحديث الشريف ؟!

هل المسألة المطروحة هنا هى إثبات الفرح صفة لله تعالى ؟!

لقد أراد النبى ﷺ أن يفتح باب الأمل أمام الإنسان ، وينتشله من وهدة ذنوبه ومعاصيه ، ويرتفع به إلى سمو الطهارة الروحية والأخلاقية .. وهذا هو محور الحديث ومقصده .

إن هؤلاء الذين يتخذون من تلك النصوص الكريمة دلائل لما يسمى الصفات الخبرية يفقدون الحس اللغوى البليغ !!

لقد أتى بعضهم بأمر عجب حين جمع ما تفرق من النصوص الشرعية ، وألف كتباً تحمسوا لها وساقوا ما يلى :

باب ما جاء فى إثبات العين ، واليدين ، واليمين ، والكف ، والأصابع ، والساعد ، والذراع ، والساق ، والقدم ، والرجل ، والتقرب ، والاتيان ، والهرولة ،

---

(١) سورة الرعد الآية : ٢ .

والضحك ، والفرح ، والنظر ، والغيرة ، والملال ، والتردد ، والصبر [1] .

إن هذا الموقف تنقصه الخشية من الله عز وجل .

ولم يكن أحد من صحابة رسول الله ﷺ يسأل عن اليمين والأصابع ، ولم يتوقف إيمان أحد منهم على إثبات صفة الضحك والفرح ، وأدركوا بحسهم الفطرى المعانى العظيمة للغة القرآن المجيد الذى نزل بلسان عربى مبين يعرف الحقيقة والمجاز فى التعبير ، وأنه إذا خلا الكلام عن المجاز خلا عن الحسن !!

إن هذه النصوص الشرعية لا تقدم صفة من صفات الذات الإلهية ، ولا تأمر بعقيدة يرتبط بها الإيمان .

* * *

(١) ولا ندرى كيف يفهم هؤلاء قوله تعالى : ﴿ إنا نسيناكم ﴾ وقوله ﴿ وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ﴾ ، فهل يثبتون النسيان على الله تعالى ويزعمون أنه نسيان يليق بجلاله ؟! سبحان الله عما يصفون .

الفصل الثالث

رؤية الله تعالى

* تمهيد .
* مذاهب العلماء .
* النصوص القرآنية فى الرؤية :
  - سؤال بنى إسرائيل .
  - نفى إدراك الأبصار .
  - موسى عليه السلام فى الميقات .
  - لقاء الله تعالى .
  - الحسنى وزيادة .
  - النظر إلى الله تعالى .
  - الملك الكبير .
  - المحجوبون عن الله .
* أحاديث الرؤية .
* ولنا تعقيب .
  - سلاح المعرفة .
  - خلاف لفظى .
  - بعيد عن الأصول .
* على هامش الرؤية .
  - الرؤية فى الدنيا .
  - رؤية الله تعالى مناماً .
  - أنواع الرؤية .

تمهيد

اختلف الفرقاء المسلمون في رؤية الخلائق لربهم سبحانه وتعالى ، وكان موضع الخلاف ومحل النزاع متعدد الجوانب :

* هل رؤية الله تعالى [1] جائزة عقلاً أو مستحيلة ؟

هذه النقطة تعد مدخلاً أساسياً لفهم نصوص القرآن والسنة ، وبناء على جواب هذا السؤال يطرح سؤال تال وهو :

* هل تقع رؤية الخلائق لربهم سبحانه أو لا ؟

لأنه على فرض جواز الرؤية فقد لاتقع لأنه ليس كل جائز واقعاً وحاصلاً ، فالوقوع يحتاج إلى دليل شرعي يؤكد الوقوع ..

ثم لوسلمنا برؤية الخلائق لربهم سبحانه فإن هناك تساؤلات تتوارد : مَنْ يكون الرائى ؟ هل هم المؤمنون فقط أو الخلائق أجمعون ؟

وأين تقع الرؤية ؟ هل فى الدنيا والآخرة أو فى الآخرة فقط ؟

وإذا وقعت الرؤية في الدنيا فهل تقع يقظة أو مناماً ؟

وإذا وقعت فى الآخرة فهل تقع فى الجنة فقط أو فى مواقف خاصة من مواقف الحشر يوم القيامة ؟

هذا هو مجمل الخلاف .. !!

* * *

(١) رؤية الله من إضافة المصدر لمفعوله أى رؤية المؤمنين أو الخلائق ربهم وليس من إضافة المصدر لفاعله لأن المعنى حينئذ يكون صفة البصر لله تعالى وهو مبحث آخر .

مذاهب العلماء

تعددت مذاهب العلماء فى موضوع الرؤية على النحو التالى :

١ - المشبهة

هؤلاء المشبهة لايخجلون من إثبات رؤية الخلائق لربهم سبحانه كرؤية البشر بعضهم بعضاً ، فى جهة ومقابلة ، وتجسيم واتصال شعاع ، وكافة شروط الرؤية البشرية ..

بل قالوا بالتزاور والتعانق والتصافح فى الدنيا والآخرة .. وهؤلاء المشبهة هم جماعة من الشيعة الغالية وجماعة من أصحاب الحديث الحشوية [١] .

٢ - المعتزلة والشيعة

اتفق المعتزلة على استحالة رؤية الخلائق لربهم سبحانه ، بناء على أن الرؤية تستلزم التشبيه والتجسيم ، وهو نقص مستحيل فى حق الله تعالى ..

والشيعة الإمامية على مذهب الاعتزال ، وهم ينقلون أقوال مشايخ المعتزلة ويدافعون عنها ، فالشيخ أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسى نقل فى تفسيره عند آية الأعراف ﴿ فَلما أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَولُ المؤْمِنِينَ ﴾ قول الجبائى :

« وأنا أول المؤمنين بأنه لا يراك شيء من خلقك ، فأنا أول المؤمنين من قومى باستعظام سؤال الرؤية » [٢] .

والشيخ أبو على الفضل بن الحسن الطبرسى نقل فى تفسيره عند آية سورة البقرة : ﴿ وَإِذ قُلتُم يَا مُوسَى لَن نُؤمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى الله جَهرَة فأَخَذتكُم

---

(١) راجع كتاب .. الملل والنحل - للشهرستانى - تحقيق عبد العزيز الوكيل ص١٠٥ .

(٢) تفسير التبيان - تحقيق أحمد حبيب قصير العاملى - المجلد ٤ ص ٥٣٧ ط مكتبة الأمين بالنجف الأشرف ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٤ م .

الصاعِقَةُ وَأَنتُم تَنظُرون ﴾ استدلال أبي القاسم البلخي بهذه الآية على أن الرؤية لاتجوز على الله تعالى لأنها إنكار تضمن أمرين :

أ - ردهم على نبيهم .

ب - تجويزهم الرؤية على ربهم .

ويؤيد ذلك قوله تعالى : ﴿ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً ﴾ [1] .

فدل ذلك على أن المراد إنكار الأمرين .. وتدل هذه الآية أيضاً على أن قول موسى ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ [2] .

كان سؤالاً لقومه ..[3] .

* * *

٣ - الأشاعرة وجمهور المتكلمين :

هؤلاء يقولون بجواز الرؤية عقلاً ، ووقوعها شرعاً ، ويرفضون التلازم بين الرؤية وبين التشبيه والتجسيم ، ويثبتون رؤية بلا كيفية ولا جهة ولا مقابلة ، ويفسرونها بنوع من الإدراك أو العلم المخصوص أو الرؤية القلبية .

٤ - أنصار السلفية :

هؤلاء يثبتون الرؤية بلا كيفية ، ولكن فى جهة ومقابلة .

يقول الشيخ ابن أبى العز الدمشقى : فهل تعقل رؤية بلا مقابلة ؟

ومن قال : يُرى لا فى جهة فليراجع عقله .

فإما أن يكون مكابراً لعقله أو فى عقله شيء .

---

(١) سورة النساء الآية ١٥٣ .

(٢) سورة الأعراف الآية : ١٤٣ .

(٣) مجمع البيان فى تفسير القرآن ، ج ١ ، ص ٢٥٥ - طبعة مكتبة الحياة - بيروت ١٣٨٠ / ١٩٦١م .

وإلا فإذا قال : « يُرى لا أمام الرائى ، ولا خلفه ، ولا عن يمينه ولا عن يساره ، ولا فوقه ولا تحته ، رَدّ عليه كل من سمعه بفطرته السليمة »[1] .

* * *

وبنظرة تأملية فى هذه المذاهب نرى ما يلى :

١ - استبعاد المشبهة في بحثنا هنا ، لأن الخلاف معهم ليس فى الرؤية ابتداء وإنما فى قضية التشبيه أساساً .

٢ - استبعاد أنصار السلفية لأنهم يلتقون مع جمهور المتكلمين فى إثبات الرؤية ودلائلها ، ونقطة الخلاف معهم هى الجهة والفوقية وليست وقفاً على موضوعنا هذا .

٣ - استبعاد الشيعة لأنهم عالة على المعتزلة فى كثير من آراء العقيدة وهم تلاميذ واصل بن عطاء ، وعمرو بن عبيد وغيرهم من أئمة الاعتزال .

٤ - تنحصر المذاهب - إذن - فى اتجاهين :

(أ) اتجاه يثبت جواز الرؤية عقلاً ووقوعها شرعاً ، وهو رأى جمهور المتكلمين .

(ب) اتجاه ينفى الرؤية لاستحالتها عقلاً وشرعاً ، وهو رأى المعتزلة .

٥ - دلائل العقل المجرد فى هذا الموضوع قد لا نقف عندها كثيراً فى بحثنا هنا ، لأن مؤداها فى النهاية عند المثبتين هو الإمكان ، وعند النافين هو الاستحالة ، وهناك قدر مشترك بين الإمكان والاستحالة هو عدم الوقوع ، فالشيء قد لا يقع إما لأنه مستحيل الوقوع أو لأنه ممكن لم يترجح وجوده .

وسنحاول أن نقتصر على دلالة النص وفهمه لدى الفريقين ، فهذه الدلالة كافية فى موضوعنا ، وتجلى حقيقة مواقف الطرفين .

ثم إن النصوص الشرعية فى الإسلام لها منحى عقلى يلجأ إليه الفريقان لتأييد

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ٢١١ - طبعة المكتب الإسلامى ١٣٩٩ هـ .

مذهبهم ، فطبيعة الاستدلال وكيفية توجيه النص هى فيصل التفرقة بين الاستحالة والجواز .

٦ – عرضنا لآراء الفريقين من خلال فهم النصوص القرآنية نقتبسه من أهم كتب التفسير فى هذا المجال ، وهى :

* « الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل » ، للإمام أبى القاسم جار الله ، محمود بن عمر الزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٨ هـ .

وهذا التفسير اعتزالى النزعة ، وقد طبع على هامشه كتاب « الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال » للإمام ناصر الدين أحمد بن محمد بن المنير الإسكندرى المالكى المتوفى ٦٨٣ هـ .

* « تفسير التبيان » للشيخ أبى جعفر محمد بن الحسن الطوسى شيخ الطائفة الإمامية ، المتوفى ٤٦٠ هـ .

* « مجمع البيان فى تفسير القرآن » للشيخ أبى على الفضل بن الحسن الطبرسى المتوفى ٥٤٨ هـ ، وهو من أكابر علماء الإمامية فى القرن السادس الهجرى .

وكلا الكتابين فى الفكر الشيعى الذى يتبنى كثيراً من العقائد الاعتزالية ويدافع عنها .

* « التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب » للإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن على التميمى البكرى الرازى الشافعى المتوفى ٦٠٤ هـ ، وهذا التفسير يمثل الاتجاه الأشعرى والكلامى .

* * *

النصوص القرآنية فى الرؤية

١ - سؤال بني إسرائيل :

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ، ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [١] .

فهم المعتزلة :

استدل المعتزلة بهذه الآية على استحالة الرؤية ، وقال الإمام الزمخشرى :

« وفى هذا الكلام دليل على أن موسى عليه السلام رادهم القول ، وعرفهم أن رؤية ما لا يجوز عليه أن يكون فى جهة – محال ، وأن من استجاز على الله الرؤية فقد جعله من جملة الأجسام أو الأعراض » .

وأكد الزمخشرى أن الذين سألوا موسى هذه الرؤية كانوا فى الكفر كعبدة العجل ، فسلط الله عليهم صاعقة الموت ، كما سلط على أولئك توبة القتل في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [٢] .

فالكفران سواء .. كفر سؤال الرؤية ، وكفر عبادة العجل .

وعندما تكرر هذا المعنى فى القرآن الكريم ، فى سورة النساء ، فى قوله تعالى :

﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ...﴾ [٣] .

---

(١) سورة البقرة الآيتان : ٥٥ ، ٥٦ .

(٢) سورة البقرة الآية ٠ ٥٤ .

(٣) سورة النساء الآية : ١٥٣ .

علق الزمخشرى قائلاً : « وإنما اسند السؤال إليهم (سؤال الرؤية إلى المعاصرين لنبوة محمد ﷺ) وإن وجد من آبائهم في أيام موسى ، وهم النقباء السبعون ، لأنهم كانوا على مذهبهم وراضين لسؤالهم ومضاهين لهم فى التعنت .

وعلل الزمخشرى وصفهم بالظلم بسبب سؤالهم الرؤية وهى مستحيلة ، ولو طلبوا أمراً جائزاً لما سموا ظالمين ، ولما أخذتهم الصاعقة ، كما سأل إبراهيم عليه السلام أن يريه إحياء الموتى ، فلم يسمه ظالماً ، ولا رماه بالصاعقة .

* * *

فهم أهل السنة :

رد أهل السنة على لسان ابن المنير فى حاشيته على الكشاف بأن سبب العقوبة لبنى إسرائيل هو التعنت والشك فى خبر موسى عليه السلام بأن الله لا يرى فى الدنيا ولكن يُرى فى الآخرة .

وإنما وصف بنو إسرائيل بالظلم لكونهم اقترحوا على موسى خصوصية علقوا إيمانهم بها ، ولم يعتبروا المعجز الذى اختاره الله لهم .. فيكفيهم الاقتراح والتعنت كى يوصفوا بالظلم ، حتى ولو طلبوا أيسر الأشياء ، فظلمهم مسبب عن اقتراحهم ، لا عن كون المقترح ممتنعاً عقلاً .

ألا ترى أن المشركين على عهد رسول الله ﷺ طلبوا أموراً جائزة ولم يجابوا إليها ، كما فى قوله تعالى : ﴿ **وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً** ﴾ (١) .

٢ - نفى إدراك الأبصار :

قال الله تعالى : ﴿ **لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ﴾ (٢) .

---

(١) سورة الإسراء الآيات ٩٠ – ٩٣ . (٢) سورة الأنعام الآية : ١٠٣ .

فهم المعتزلة :

في تفسير « التبيان » لأبي جعفر الطوسى أن هذه الآية تدل دلالة واضحة على أن الله تعالى لا يُرى بالأبصار ، لأنه تمدح بنفى الإدراك عن نفسه ، وكل ما كان نفيه تمدحاً فإثباته لا يكون إلا نقصاً ، والنقص لا يليق بالله تعالى ، فثبت أنه لا يجوز إدراكه .

ويرى الشيخ الطوسى أن الإدراك إذا أضيف إلى واحد من الحواس أفاد ما تلك الحاسة آلة فيه ، فيقال :

أدركته بأذنى : أى سمعته ، وأدركته بأنفى : أى شممته ، وأدركته بفمى : أى ذقته ، وكذلك أدركته ببصرى : أى رأيته .

ويذهب الشيخ الطوسى إلى أن تفسير الإدراك بالإحاطة باطل ، لأنه لا يقال أدرك السور بالمدينة ، ولا أدرك الحب بالماء ، ولا أدرك الجراب بالدقيق مع إحاطة جميع ذلك بما فيه .

وقوله تعالى : ﴿ .. حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ ... ﴾ [1] ليس المراد به الإحاطة بل المعنى حتى إذا لحقه الغرق ، ومثله قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا تَرَاءا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [2] أى ملحقون .

فالإدراك فى اللغة قد يكون بمعنى اللحوق كقولهم أدركت فلاناً إذا لحقته ، وقد يكون بمعنى النضج كقولهم أدركت الثمرة إذا نضجت ، وأدرك القِدْر إذا نضج ، وأدرك الغلام إذا بلغ حال الرجال .

فهم أهل السنة :

فسر الإمام الرازى هذه الآية الكريمة على مجموعة آراء تؤيد إثبات الرؤية هى :

(أ) الأبصار صيغة جمع دخل عليها الألف واللام ، فهى تفيد الاستغراق ، فقوله : ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ يفيد أنه لا يراه جميع الأبصار ، فهذا يفيد سلب العموم ، ولا يفيد عموم السلب ، فالنفى منصب على البعض دون البعض ، فالمؤمنون يرون ربهم ، والكافرون محجوبون .

---

(١) سورة يونس الآية : ٩٠ .   (٢) سورة الشعراء الآية : ٦١ .

(ب) إن المنفى هو إدراك الأبصار المادية التى هى إحدى حواس الإنسان ، فلا ينفى أن يخلق الله يوم القيامة حاسة سادسة بها يحصل الإدراك والرؤية .

(ج) الرأيان السابقان يجعلان الإدراك والرؤية بمعنى واحد ، لكن قد يكون الإدراك رؤية إحاطة بجوانب الشيء ، ونهاياته وجميع حدوده ، والرؤية دون ذلك ، فهى أعم من الإدراك .

والآية نفت الإدراك وهو الأخص ، ونفى الأخص لا يلزم منه نفى الأعم ، تقول : رأيت البحر ولا تقول : أدركته .

والله تعالى لا يحيطون به علماً ، ولا تدركه الأبصار على الحقيقة الكاملة .

٣ - موسى فى الميقات :

قال الله تعالى : ﴿ **وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ (١) .

فى الزمان والمكان الذى عينه الله تعالى وحدده لموسى عليه السلام ، وقعت مفاجأة علوية قدسية ، ودار حوار حول الرؤية تمسك به المعتزلة وأهل السنة فى تأييد مذهبهم ، وذلك من عدة جوانب :

(أ) سؤال موسى : ﴿ .. **أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ** ...﴾ .

(ب) جواب الله تعالى : ﴿ .. **قَالَ لَن تَرَانِي** ... ﴾ .

(ج) تعليق الرؤية على استقرار الجبل : ﴿ ..**وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا** ... ﴾ .

(د) صعق موسى وتوبته : ﴿ .. **وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ .

---

(١) سورة الأعراف الآية : ١٤٣ .

فكيف استدل الفريقان على مذهبهم ؟!

استدلال المعتزلة :

استدل المعتزلة على استحالة الرؤية من هذه الجوانب على النحو التالى :

* إن موسى عليه السلام لم يسأل الرؤية لنفسه ، فهو أجل من أن يجعل الله تعالى منظوراً إليه مقابلاً بحاسة النظر ، وهو أعرق فى معرفة الله تعالى من واصل بن عطاء ، وعمرو بن عبيد ، والنظام وأبى الهذيل وجميع المتكلمين .

وإنما سأل موسى عليه السلام الرؤية ليبكت سفهاء قومه الذين قالوا : أرنا الله جهرة ، فأراد أن يسمعوا النص من عند الله باستحالة ذلك .. وأضاف الرؤية إلى نفسه لأنه إذا زجر عما طلب وأنكر عليه كان غيره أولى بالإنكار ،ولأن الرسول إمام أمته فكل ما يخاطب به أو ما يخاطب راجع إليهم .

* ويرى الزمخشرى أن « لا » تنفى المستقبل ، تقول : لا أفعل غداً ، فإذا أكدت نفيها قلت : لن أفعله غداً ، والمعنى أن فعله ينافى حالى .

فقوله تعالى : ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ نفى للرؤية فى المستقبل ، وقوله تعالى : ﴿ لن ترانى ﴾ تأكيد وبيان لأن النفى منافٍ لصفاته سبحانه ، فلن تشعر باستحالة المنفى بها عقلاً ، كقوله تعالى : ﴿ .. لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُواْ لَـهُ ... ﴾ (1) .

* ويفسر الزمخشرى اتصال قوله تعالى ﴿ ولكن انظر إلى الجبل ﴾ بما قبله على معنى استحالة الرؤية فلا تطلبها يا موسى ولكن عليك بنظر آخر وهو أن تنظر إلى الجبل الذى يرجف بك وبمن طلبت الرؤية لأجلهم كيف أفعل به ، وكيف أدكه دكاً بسبب طلبك الرؤية ، لتستعظم ما أقدمت عليه بما أريك من علم أثره .

كأنه عز وعلا حقق عند طلب الرؤية ما مثله عند نسبة الولد إليه فى قوله تعالى : ﴿ .. وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴾ (2) .

* ويذهب الزمخشرى إلى أن الرؤية علقت على مستحيل ، وهو استقرار الجبل حال تحركه ، فتكون الرؤية مستحيلة .

---

(1) سورة الحج الآية : ٧٣ .

(2) سورة مريم الآيتان ٩٠ ، ٩١ .

فالله تعالى حقق الوعيد بالرجفة بسبب طلب الرؤية ، ثم جعل وجود الرؤية مشروطاً بمستحيل وهو استقرار الجبل حين يسويه بالأرض ويجعله دكاً ، فطالما تعلق العلم الإلهى بدك الجبل وتنفيذ الوعيد فلن يستقر الجبل ، لأن خلاف المعلوم الإلهى لا يقع تحت القدرة الإلهية .

وفسر الزمخشرى تجلى الرب للجبل بتنفيذ الوعيد وتفتيت الجبل وتقطيعه وتسويته بالأرض .

* عندما أصبح الجبل دكاً أصابت القوم صاعقة الموت ، وغشى على موسى عليه السلام ، فلما أفاق من صعقته لجأ إلى الله منزهاً إياه عن الرؤية ، وتاب من إجراء الكلمة على لسانه حتى ولو كانت لغرض صحيح هو إقناع قومه ، وأكد موسى أنه أول المؤمنين بأن الله ليس بمرئى ، ولا يدرك بشىء من الحواس ، وقد وصف موسى طالبى الرؤية بالسفه وعاب عليهم وتبرأ منهم : ﴿ .. **قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ** ﴾ (1) .

* * *

استدلال أهل السنة :

استدل أهل السنة على جواز الرؤية بما يلى :

* إن موسى عليه السلام سأل الرؤية لنفسه ، وهو نبى مرسل يعلم ما يجب وما يستحيل وما يجوز فى حق الله تعالى ، فلو كانت الرؤية مستحيلة لما سألها لنفسه ولا لغيره ، ولزجرهم عنها كما قال لهم : ﴿ إنكم قوم تجهلون ﴾ حين قالوا : ﴿ .. **اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ** ﴾ (2) .

ولو كان موسى سألها لقومه لقال : أرهم ينظروا إليك ، ولجاء الرد بقوله : ﴿ لن يرونى ﴾ .

---

(1) سورة الأعراف الآية : ١٥٥ . (2) سورة الأعراف الآية : ١٣٨ .

* قوله تعالى : ﴿ لن ترانى ﴾ نفى لرؤية موسى لربه ، وليس نفياً للرؤية بالكلية ، ولو كانت الرؤية مستحيلة لقال « لا أرى » أو لست بمرئى .

وشبه الإمام الرازى هذا بمن يحمل فى يده حجراً ، فقال له إنسان : ناولنى هذا لآكله ، فإن الجواب : هذا لا يؤكل ، ولا يقال له : لا تأكله .

ولو كان فى يده بدل الحجر تفاحة لقال له : لا تأكلها ، أى هذا مما يؤكل ولكنك لا تأكله .

فلما قال تعالى : ﴿ لن ترانى ﴾ ولم يقل : لا أرى ، علم أن هذا يدل على أنه تعالى فى ذاته جائز الرؤية .

ودعوى استحالة المنفى بكلمة « لن » مردودة بكثير من الآيات ، كقوله تعالى : ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَئْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُواْ مَعَ الْخَالِفِينَ ﴾ (١) .

فخروج المنافقين للقتال مع رسول الله ﷺ ليس مستحيلاً عقلاً ، وقد خرجوا من قبل فى غزوة أحد ، وغزوة الخندق ، والذى منع من خروجهم فى غزوة تبوك هنا هو خبر الشرع ونهيه وليس استحالة العقل .

ولو كان المنفى بحرف « لن » مستحيلاً ما علق على شىء ، وقد قال الله تعالى على لسان كبير إخوة يوسف : ﴿ .. فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ (٢) .

فلو كانت مفارقة أرض مصر مستحيلة عقلاً ما جاز تعليقها على إذن أبيه أو حكم الله له .. لأن المستحيل لا يقع مطلقاً .

* تعليق الرؤية على استقرار الجبل هو تعليق على ممكن وليس على مستحيل ، فإن استقرار الجبل بعد دكه أمر ممكن .

---

(١) سورة التوبة الآية : ٨٣ .

(٢) سورة يوسف الآية : ٨٠ .

وتجلى الرب للجبل هو الرؤية ، وتقريره أن الإنسان لا يطيق رؤية الله تعالى فى هذه الدنيا بدليل أن الجبل مع عظمته لما رأى الله تعالى تفرقت أجزاؤه وصار بساً .

أما كيف يرى الجبل ؟! فهذا شيء متروك لقدرة الله تعالى الذى جعل الطير أوابة مع داود ، وأنطق النملة مع سليمان .

* التوبة فى حق الأنبياء لا تستلزم كونها عن ذنب ، ولا شك أن التوقف فى سؤال الرؤية من موسى عليه السلام – على إذن إلهى سابق كان أكمل ، وسيئات المقربين حسنات الأبرار .

٤ - لقاء الله :

جاءت آيات قرآنية تصف المؤمنين برجاء لقاء الله ، وتصف الكافرين بالتكذيب بلقاء الله ، أو أنهم لا يرجونه أو فى شك منه .

قال الله تعالى فى حق المؤمنين :

﴿ .. فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَملاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [(١)] .

وقال جل شأنه فى حق الكافرين :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُوْلَـٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [(٢)]

فيا ترى ماذا يعنى لقاء الله ؟

فهم المعتزلة :

يرى المعتزلة أن لقاء الله للمؤمنين هو لقاء الرضا والقبول ، وللكافرين هو لقاء الذل والهوان ، وأن التكذيب بلقاء الله هو الكفر ببلوغ الآخرة وما يتصل بها من حساب وجزاء .

---

(١) سورة الكهف الآية . ١١٠.

(٢) سورة يونس الآيتان : ٧ ، ٨ .

ويسوق الشيخ أبو جعفر الطوسى فى معنى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ﴾ أمرين :

أحدهما : لا يخافون عقابنا ، كما قال الهذلى :

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها وخالفها فى بيت نوب عواسل [1]

والثانى : لا يطمعون فى ثوابها ، كما يقال : تاب رجاء لثواب الله ، وخوفاً من عقابه .

والملاقاة وإن كانت لا تجوز إلا على الأجسام ، فإنما أضافها إلى نفسه ، لأن ملاقاة ما لا يقدر عليه إلا الله يحسن أن يجعل لقاء الله تفخيماً لشأنه ، كما جعل إتيان الملائكة إتياناً لله ، فى قوله : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [2] ، وإنما يريد وجاء أمر ربك .

فهم أهل السنة :

ساق الإمام الرازى فى تفسيره الآيات التى تتحدث عن لقاء الله ، وجعلها ذات حجة قوية فى ثبوت الرؤية ، وقال : اللقاء هو الوصول إلى الشيء .

وهذا فى حق الله تعالى محال ، لكونه منزهاً عن الحد والنهاية .. فوجب أن يجعل مجازاً عن الرؤية .

وهذا مجاز ظاهر ، فإنه يقال : لقيت فلاناً إذا رأيته .. وحمله على لقاء ثواب الله يقتضى زيادة فى الإضمار ، وهو خلاف الدليل [3] .

٥ - الحسنى وزيادة :

قال الله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [4] .

---

(١) لم يرج : أى لم يخف . (٢) سورة الفجر الآية : ٢٢ .
(٣) التفسير الكبير ، ح ١٧ ، ص ٤١ .
(٤) سورة يونس الآية . ٢٦ ، والقتر الغبار الأسود .

فهم المعتزلة :

فسر الزمخشرى الحسنى بالمثوبة الحسنى ، وفسر الزيادة بما يزيد على المثوبة ، وهو التفضل ، واستأنس بقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ... ﴾ [1] .

ونقل عن بعض الصحابة والتابعين تفسيرات تؤيد مذهبه فقال :

* عن على رضى الله عنه : الزيادة غرفة من لؤلؤة واحدة .
* عن ابن عباس رضى الله عنهما : الحسنى الحسنة ، والزيادة عشر أمثالها .
* عن الحسن رضى الله عنه : عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف .
* عن مجاهد رضى الله عنه : الزيادة مغفرة من الله ورضوان .
* عن يزيد بن شجرة : الزيادة أن تمر السحابة بأهل الجنة : فتقول : ما تريدون أن أمطركم ؟ فلا يريدون شيئاً إلا أمطرتهم .

ولعل مما يتأيد به رأى المعتزلة حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، فيقولون : لبيك ربنا وسعديك ، والخير فى يديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يا ربنا ، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك .. فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : وأى شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبداً » [2] .

وقد تهكم الزمخشرى بأهل السنة ووصفهم بأنهم مشبهة ومجبرة ، ثم اتهمهم بأنهم جاءوا بحديث مرفوع يفسرون به الزيادة بأنها رؤية الله تعالى .

فهم أهل السنة :

رد ابن المنير على الزمخشرى بأن تفسير الزيادة بالرؤية تفسير مستفيض منقول عن جملة من الصحابة ، وأن الحديث المروى فيه مدون فى الصحاح متفق على صحته .

---

(١) سورة النساء الآية : ١٧١ .
(٢) متفق عليه .

واعتمد ابن المنير أيضاً على باقي الآية : ﴿ ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة ﴾ ، وأنه يصدق صحة هذا التفسير ، فإن فيه تنبيهاً على إكرام وجوههم بالنظر إلى الله تعالى ، فجدير بهم أن لا يرهق وجوههم قتر البعد ولا ذلة الحجاب .

وأكد الرازى فى تفسيره بأن الحسنى هى الجنة ، وأن الزيادة أمر مغاير للحسنى حتى لا يلزم التكرار ، فالآية تثبت للمؤمنين شيئين : الجنة ، والرؤية .

ويدعم هذا التفسير الحديث الشريف الذى رواه مسلم بسنده عن صهيب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى : تريدون شيئاً أزيدكم ؟! فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ؟! ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار ؟! فيكشف الحجاب ، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم » .

وفى رواية للترمذى وغيره : « إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، نادى منادٍ يا أهل الجنة : إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه ، فيقولون : ما هو ؟ ألم يثقل موازيننا ويبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار ؟! فيكشف الحجاب فينظرون إليه ، فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ، وهى الزيادة .

٦ - النظر إلى الله تعالى :

قال الله جل شأنه : ﴿ وُجوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [١] .

تفسير المعتزلة :

للمعتزلة وقفات مع هذه الآية الكريمة تتعلق بمدلول كلمة الوجوه ، ومعنى كلمة إلى ، ومفهوم النظر .

فالوجه عندهم عبارة عن الجملة والذات بأجمعها .

وإلى مفرد آلاء بمعنى النعم .

ويفرقون بين النظر والرؤية ، فالنظر هو تقليب الحدقة نحو المرئى التماساً لرؤيته .

---

(١) سورة القيامة الآيتان ٢٢ ، ٢٣ .

وأهل اللغة يقولون : نظرت إلى الهلال فلم أره ، فلو كان النظر بمعنى الرؤية لكان الكلام متناقضاً [رأيت الهلال فلم أره] .

ويجعل أهل اللغة الرؤية غاية للنظر ، فيقولون : مازلت أنظر إلى فلان حتى رأيته ، ولا يجعل الشيء غاية لنفيه ، فلا يقال : مازلت أراه حتى رأيته .

ويقال لغة : دور بني فلان متناظرة : أى متقابلة ولا يقال : إنها مترائية ..

ثم إن الناظر يعلم ناظراً ضرورة ، ولا يعلم كونه رائياً إلا بسؤاله نفسه ، فيقال له : إنك نظرت فهل رأيت أو لا ؟

والنظر يوصف بما لا توصف به الرؤية ، يقال : نظر إليه نظراً شزراً ، ونظر غضبان ، ونظر راض ، وذلك لأن حركة حدقة العين تدل على هذه الأحوال ، ولا توصف الرؤية بشيء من ذلك .

وقد جاء في القرآن المجيد نفي نظر الله تعالى إلى الكافرين فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١) .

فالمنفى هنا هو نظر الرحمة وليس رؤية الله للكافرين فإنها حاصلة بداهة .

وقد أثبت القرآن النظر حال عدم الرؤية فقال : ﴿ .. وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ (٢) .

فدل ذلك على أن النظر غير الرؤية .

والنظر لفظة مشترك بين معان كثيرة ، وقد يذكر ويراد به الانتظار ، كما فى قوله تعالى : ﴿ ..فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ...﴾ (٣) وقوله جل شأنه : ﴿ .. فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ (٤) ، وقوله سبحانه : ﴿ .. انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ...﴾ (٥) .

---

(١) سورة آل عمران الآية : ٧٧ .
(٢) سورة الأعراف الآية : ١٩٨ .
(٣) سورة البقرة الآية : ٢٨٠ .
(٤) سورة النمل الآية . ٣٥ .
(٥) سورة الحديد الآية ١٣ .

وفى الشعر العربى نجد قول الشاعر المثقب العبدى أو الممزق :

فإن يك صدر هذا اليوم ولى   فإن غداً لناظره قريب

ويخلص المعتزلة إلى أن معنى الآية الكريمة ﴿ إلى ربها ناظرة ﴾ أن المؤمنين ينتظرون نعم الله وجزيل ثوابه ، ومزيد فضله الذى لا ينقطع ولا يمتنع ، وليس فى ذلك تنغيص ، لأنه موثوق بوصوله إلى المنتظر ، ولا يحتاج إليه فى الحال فأمامه نعم لا تعد ولا تحصى .

والتنغيص إنما يكون عند عدم الثقة فى الوصول أو عند الاحتياج إليه فى الحال ، والمؤمنون بخلاف ذلك .

ولو سلم المعتزلة - جدلاً - بأن النظر هو الرؤية فإنهم يفسرونها برؤية ثواب الله وليس رؤية ذات الله ، فالثواب أنواع من اللذات المأكولة والمشروبة والمنكوحة ، وكلها تصح رؤيتها .

تفسير أهل السنة :

رد الإمام الرازى على موقف المعتزلة بأن النظر المقرون بحرف إلى ، المعدى للوجوه ليس إلا بمعنى الرؤية ، أو بالمعنى الذى يستعقب الرؤية !!

ويرى أن حمل النظر على الرؤية أولى من حمله على الانتظار .

ويؤيد وجهة نظره هذه بأن لذة الانتظار مع يقين الوقوع كانت حاصلة فى الدنيا ، فلابد وأن يحصل فى الآخرة شيء أزيد منه حتى يحسن ذكره فى معرض الترغيب فى الآخرة .

٧ - الملك الكبير :

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾[(١)] .

هذه الآية الكريمة لم أكن أتصور أنها تتعلق بموضوع الرؤية ، لولا أن الإمام الرازى ذكرها ، وعد الاستدلال بها أقوى من غيرها ، فقال فى معرض تعداده لحجج الرؤية عند أهل السنة :

---

(١) سورة الإنسان الآية ٢٠ .

التمسك بقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ فإن إحدى القراءات فى هذه الآية (مَلِكا) .. بفتح الميم وكسر اللام ، وأجمع المسلمون على أن ذلك الملك ليس إلا الله تعالى .. وعندى التمسك بهذه الآية أقوى من التمسك بغيرها »[1] .

ذكر الرازى ذلك فى تفسيره لسورة الأنعام ، ولما رجعت إلى تفسيره لسورة الإنسان لم أجد لهذا الرأى أثراً ، بل لم يتطرق إلى موضوع الرؤية مطلقاً ، وفسر (الملك الكبير) بما قد يكون اقتباساً من تفسير الزمخشرى ، مع بسط وإيضاح .

قال الزمخشرى : (كبيراً) واسعاً وهنيئا ، يروى « إن أدنى أهل الجنة منزلة ينظر فى ملكه مسيرة ألف عام ، يرى أقصاه كما يرى أدناه » .

وقيل : لا زوال له ، وقيل : إذا أرادوا شيئاً كان ، وقيل : يسلم عليهم الملائكة ويستأذنون عليهم »[2] .

قارن هذا بما قاله الرازى فيما يلى :

فالملك الكبير الذى ذكره الله ههنا لابد وأن يكون مغايراً لتلك اللذات الحقيرة (حب المال والجاه) ، وما هو إلا أن تصير نفسه منقشة بقدس الملكوت ، متحلية بجلال حضرة اللاهوت .

وأما ما هو على أصول المتكلمين ، فالوجه فيه أيضاً أنه الثواب والمنفعة المقرونة بالتعظيم ، فبين الله تعالى فى الآيات المتقدمة تفصيل تلك المنافع ، وبيّن فى هذه الآية حصول التعظيم ، وهو أن كل واحد منهم يكون كالملك العظيم .

وأما المفسرون فمنهم من حمل هذا الملك الكبير على أن هناك منافع أزيد مما تقدم ذكره ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : لا يقدر واصف يصف حسنه ولا طيبه ، ويقال : إن أدنى أهل الجنة منزلة ينظر فى ملكه مسيرة ألف عام ، ويرى أقصاها كما يرى أدناه .

وقيل : لا زوال له ، وقيل : إذا أرادوا شيئاً حصل .

---

(١) التفسير الكبير ، ح ١٣ ، ص ١٣١ .　　(٢) الكشاف ، ج ٤ ، ص ١٩٩ .

ومنهم من حمله على التعظيم ، فقال الكلبى : هو أن يأتى الرسول من عند الله بكرامة من الكسوة والطعام والشراب والتحف إلى ولى الله ، وهو فى منزله فيستأذن عليه ، ولا يدخل عليه رسول رب العزة من الملائكة المقربين المطهرين إلا بعد الاستئذان (١) .

وحاولت أن أرجع إلى كتب التفسير الأخرى فوجدت أن أكثر المفسرين لم يتعرضوا لموضوع الرؤية عند هذه الآية ، ولكن بعضهم أشار إليها إشارات عابرة ، فالعلامة النيسابورى قال :

وعن علىّ أنه قرأ (ملكاً كبيراً) بفتح الميم وكسر اللام ، وهو الله (٢) .

والعلامة الألوسى ذكر الآراء فى معنى (الملك الكبير) ، وعد منها أنه قيل : هو النظر إلى الله عز وجل (٣) .

والعلامة ابن حبان قدم النظر إلى الله تعالى فى أول الآراء فى تفسير (الملك الكبير) (٤) .

ويبدو - والله أعلم - أن تفسير (الملك الكبير) بالنظر والرؤية ليس وقفاً على قراءة « ملكاً » بفتح الميم وكسر اللام ، بل هو جار فى كلتا القراءتين .

٨ - المحجوبون عن الله :

قال الله تعالى : ﴿ **كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ * ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِى كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ** ﴾ (٥) .

فهم المعتزلة :

يدور فهم المعتزلة للآية الكريمة على النحو التالى :

---

(١) التفسير الكبير ، ج ٢٩ ، ص ٢٥٢ .

(٢) تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان للعلامة نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمى النيسابورى ، على هامش جامع البيان فى تفسير القرآن للإمام أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى ، ج ٢٩ ، ص ١٢٠ ، الطبعة الأولى بالمطبعة الكبرى الأميرية ببولاق مصر المحمية ١٣٢٩ هـ .

(٣) روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى للعلامة السيد محمود الألوسى المتوفى ١٢٧٠هـ ، ج ٢٩ ، ص ٢٠٣ .

(٤) البحر المحيط ، ج ٨ ، ص ٣٩٩ - طبعة النصر الحديثة بالرياض .

(٥) سورة المطففين الآيات : ١٥ - ١٧ .

١ - قال الجبائي : المراد أنهم عن رحمة ربهم محجوبون : اى ممنوعون ، كما يُقال في الفرائض : الإخوة يحجبون الأم عن الثلث ، ومن ذلك يقال لمن يمنع عن الدخول هو حاجب ، لأنه يمنع من رؤيته .

٢ - قال أبو مسلم : لمحجوبون : أي غير مقربين ، والحجاب الرد ، وهو ضد القبول والمعنى أن هؤلاء المنكرين للبعث غير مقبولين عند الله ، وهو المراد من قوله تعالى : ﴿ ..وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [(١)] .

٣ - قال القاضي : الحجاب ليس عبارة عن عدم الرؤية ، فإنه قد يقال : حجب فلان عن الأمير ، وإن كان قد رآه من البعد .

وإذا لم يكن الحجاب عبارة عن عدم الرؤية سقط الاستدلال ، بل يجب أن يحمل على صيرورته ممنوعاً عن رحمة الله .

٤ - قال الزمخشرى : كونهم محجوبين عن الله تمثيل للاستخفاف بهم ، وإهانتهم ، لأنه لا يؤذن على الملوك إلا للمكرمين لديهم ، ولا يحجب عنهم إلا المهانون عندهم .. وساق هذا البيت :

إذا اعتروا باب ذى عُبِّية رُجبوا والناس من بين مرجوب ومحجوب [(٢)]

فهم أهل السنة :

احتج أهل السنة على أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة بهذه الآية ، وقالوا : لولا ذلك لم يكن لتخصيص حجب الكافرين فائدة ، ثم إن الله تعالى ذكر هذا الحجاب في معرض الوعيد والتهديد للكفار ، وما يكون وعيداً وتهديداً لا يجوز حصوله في حق المؤمنين ، فوجب أن لا يحصل هذا الحجاب للمؤمنين .

وصرف الحجاب إلى الرحمة أو القول بأنه تمثيل للاستخفاف والإهانة هو عدول عن الظاهر من غير دليل .

وقال الإمام الشافعي : لما حجب قوماً بالسخط دل على أن قوماً يرونه بالرضا .

---

(١) سورة آل عمران الآية : ٧٧ .

(٢) **اعتروا** : قصدوا ، **العبية** : الكبر والنخوة ، **رجبوا** : عظموا ، والترحيب التعظيم ، والمرجوب المأذون له على الملوك لوجاهته ، **المحجوب** : الممنوع لمهانته .

أحاديث الرؤية

رويت أحاديث كثيرة فى صحيحى البخارى ومسلم وغيرهما ، استدل بها العلماء على إثبات رؤية المؤمنين فى الآخرة لربهم سبحانه وتعالى ، وأكد الإمام النووى فى شرحه لصحيح مسلم أن هذه الأحاديث رواها نحو من عشرين صحابياً عن رسول الله ﷺ [1] .

وذكر الشيخ ابن أبى العز الدمشقى فى شرحه للعقيدة الطحاوية أنه روى أحاديث الرؤية نحو ثلاثين صحابياً ، ووصفها بأنها متواترة ، رواها أصحاب الصحاح والمسانيد والسنن [2] .

ونقتبس من صحيح مسلم ما يلى :

* عن أبى بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه ، عن النبى ﷺ قال : « جنتان من فضةٍ آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن » .
عبر النبى ﷺ عن زوال المانع ورفعه عن الأبصار بإزالة الرداء على سبيل المجاز .

* عن صهيب عن النبى ﷺ قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة قال : يقول الله تبارك وتعالى : تريدون شيئاً أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ؟! ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار ؟! قال : فيكشف الحجاب ، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل » .

* عن عطاء بن يزيد الليثى أن أبا هريرة رضى الله عنه أخبره أن ناساً قالوا لرسول الله ﷺ : هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال رسول الله ﷺ : « هل تضارون [3] فى رؤية القمر ليلة البدر ؟ قالوا : لا يا رسول الله . قال : هل تضارون

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ج ٣ ، ص ١٥ - طبعة دار إحياء التراث الإسلامى - بيروت .
(٢) شرح العقيدة الطحاوية ، ص ٢٠٩ - طبعة المكتب الإسلامى .
(٣) قال النووى : تضارون بتشديد الراء وبتخفيفها ، والتاء مضمومة فيهما ، ومعنى المشدد هل=

فى الشمس ليس دونها سحاب ؟ قالوا : لا يا رسول الله . قال : فإنكم ترونه كذلك .. الحديث » .

والتشبيه هنا تشبيه رؤية برؤية فى الوضوح وليس تشبيه مرئى بمرئى ، فإن الله تعالى لا يماثله شىء من خلقه .

هذا والنافون للرؤية لا يعوزهم فهم الأحاديث الواردة كفهمهم لآيات القرآن المجيد ، على حذف مضاف أو على سبيل المجاز ، وقد ذكر الزمخشرى فى تفسيره لآية سورة الأعراف ﴿ أرنى أنظر إليك ﴾ أن هناك تفسيراً آخر هو :

عرفنى نفسك تعريفاً واضحاً جلياً كأنه إراءة فى جلائها - بآية مثل آيات القيامة التى تضطر الخلق إلى معرفتك ، أنظر إليك : أعرفك معرفة اضطرار كأنى أنظر إليك ، كما جاء فى الحديث : « سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر » بمعنى ستعرفونه معرفة جلية هى فى الجلاء كإبصاركم القمر إذا امتلأ واستوى [1] .

* * *

= تضارون غيركم فى حالة الرؤية بزحمة أو مخالفة فى الرؤية أو غيرها لخفائه كما تفعلون أول ليلة من الشهر ، ومعنى المخفف هل يلحقكم فى رؤيته ضير وهو الضرر .

وروى أيضاً تضامون بتشديد الميم وتخفيفها ، فمن شددها فتح التاء ، ومن خففها ضم التاء ، ومعنى المشدد هل تتضامون وتتلطمون فى التوصل إلى رؤيته ، ومعنى المخفف هل يلحقكم ضيم وهو المشقة والتعب ، وذكر أن بعض أهل اللغة يفتح التاء فى المشدد والمخفف ، وقد يضمها فيهما .

(١) الكشاف ص ١١٦ ، ج ٢ - طبعة دار الفكر .

ولنا تعقيب

سلاح المعرفة :

اجتهد العلماء فى موضوع الرؤية ، واستخدموا فى جدلهم كافة فنون المعرفة ، وكان لفقه اللغة والوضع العربى نصيب الأسد فى الاستدلال .

فدارت مناقشات حول مفهوم الإدراك والرؤية والنظر والحجاب ، والفرق بين النفى بلا ، والنفى بلن ، ومعنى رجاء لقاء الله .

وتدخل الشعر فى تحديد المراد ، وجاءت شواهد شعرية تؤيد هذا الفريق أو ذاك .

وساق الشيخ الطوسى هذا البيت :

وجوه يوم بدر ناظرات ... إلى الرحمن يأتى بالفلاح[1]

للدلالة على أن النظر بمعنى الانتظار .

وللبيت رواية أخرى تقول :

وجوه ناظرات يوم بدر ... إلى الرحمن تنتظر الخلاصا

وقد ردها الإمام الرازى وقال : هذا الشعر موضوع ، والرواية الصحيحة :

وجوه ناظرات يوم بكر ... إلى الرحمن تنتظر الخلاصا

والمراد من هذا الرحمن مسيلمة الكذاب ، لأنهم كانوا يسمونه رحمن اليمامة ، فأصحابه كانوا ينظرون إليه ويتوقعون منه التخلص من الأعداء[2] .

وساق الإمام الزمخشرى البيت التالى :

وإذا نظرت إليك من ملك ... والبحر دونك زدتنى نعما[3]

---

(١) التبيان : ص ١٩٧ ، ج ٢٩ .
(٢) التفسير الكبير : ص ٢٢٦ ، ج ٣٠ .
(٣) الكشاف : ص ١٩٢ ، ج ٤ .

والمعنى إذا رجوت عطاءك وأنت من الملوك والحال أن البحر أقل جوداً منك زدتنى نعماً ، يريد معنى التوقع والانتظار والدعاء .

ونظم الزمخشرى شعراً يتهكم فيه بمثبتى الرؤية فقال :

لجماعة سموا هواهم سنة　　وجماعة هم لعمرى موكفة
قد شبهوه بخلقه وتخوفوا　　شنع الورى فتستروا بالبلكفة[1]

وقد رد عليه ابن المنير قائلاً :

وجماعة كفروا برؤية ربهم　　حقاً ووعد الله ما لن يخلفه
وتلقبوا عدلية ، قلنا أجل　　عدلوا بربهمُ فحسبهمُ سفه
وتلقبوا الناجين ، كلا إنهم　　إن لم يكونوا فى لظى فعلى شفه

* * *

هذا وقد تمسك العلماء فى جدلهم بقواعد المنطق ، وأحداث التاريخ ، وعلم القراءات ، وعلم السنة .

فالمعلق على المستحيل مستحيل ، والمعلق على الجائز جائز ، فما المعلق عليه فى قوله تعالى : ﴿ فإن استقر مكانه فسوف ترانى ﴾ ؟!

وهل النفى فى قوله تعالى : ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ لسلب العموم أو لعموم السلب ؟!

وهل سأل موسى عليه السلام الرؤية لنفسه أو لقومه ؟!

وكيف نقرأ لفظ « ملكاً » فى قوله تعالى ﴿ وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيرًا ﴾ ؟

هل نقرأه بضم الميم وسكون اللام أو بفتح الميم وكسر اللام ؟!

وما المعنى المراد على كلا القراءتين ؟

وهل الزيادة فى قوله تعالى : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ هى الرؤية بناء على الحديث الوارد فى ذلك أو مزيد ثواب وعطاء ؟

---

(١) الكشاف : ص ١١٦ ، ج ٢ ، والموكفة هى الحمر عليها البرادع ، والبلكفة هم القائلون بإثبات الرؤية بلا كيف .

وكان للاحتمالات العقلية دور كبير فى هذا الجدل .. فلماذا أخذت الصاعقة بنى إسرائيل ؟ هل لسؤالهم الرؤية أو لتعنتهم واعتراضهم على الله ؟!

ومم كانت توبة موسى عليه السلام عندما قال : ﴿ سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين ﴾ ؟ هل تاب لأنه سأل أمراً مستحيلاً ، أو من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين ؟!

وإذا كان النظر مشتركاً لفظياً له عدة معان ، فما المراد منه والمرجح فى آية سورة القيامة ﴿ إلى ربها ناظرة ﴾ ؟!
وهكذا تتداعى الاحتمالات !!

خلاف لفظى :

إن هناك نقطة مهمة تتعلق بتحديد محل النزاع وطبيعة الخلاف ، فيا ترى ماذا نفى المعتزلة ؟ وماذا أثبت أهل السنة ؟!

لقد نفى المعتزلة الرؤية التى هى إدراك ببعض الحواس ، لأنها تصح فيما كان فى جهة وكان جسماً أو عرضاً ، وتعلق به شعاع البصر ، وهذا محال فى حق الله تعالى .

وأثبت أهل السنة الرؤية بلا كيفية ، وفسروها بإدراك أو علم مخصوص .

قال الإمام النووى : « مذهب أهل الحق أن الرؤية قوة يجعلها الله تعالى فى خلقه ، ولا يشترط فيها اتصال الأشعة ولا مقابلة المرئى ولا غير ذلك ، لكن جرت العادة فى رؤية بعضنا بعضاً بوجود ذلك على جهة الاتفاق لا على سبيل الاشتراط »[1] .

وذكر الإمام الرازى وجوهاً أربعة مستنبطة من آية سورة الأنعام ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ﴾ ، يمكن التعويل عليها فى إثبات أن المؤمنين يرون الله فى القيامة .

وكان الوجه الرابع ما نقل أن ضرار بن عمرو الكوفى كان يقول :
« إن الله تعالى لا يرى بالعين ، وإنما يرى بحاسة سادسة يخلقها الله تعالى يوم القيامة ، واحتج عليه بهذه الآية فقال : دلت هذه الآية على تخصيص نفى إدراك الله

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ص ١٦ ، ج ٣ .

تعالى بالبصر ، وتخصيص الحكم بالشيء يدل على أن الحال فى غيره بخلافه ، فوجب أن يكون إدراك الله بغير البصر جائزاً فى الجملة ، ولما ثبت أن سائر الحواس الموجودة الآن لا تصلح لذلك ثبت أنه تعالى يخلق يوم القيامة حاسة سادسة بها تحصل رؤية الله تعالى وإدراكه » .

وعلى هذا فإن النافين للرؤية والمثبتين لها يلتقون على نفى الرؤية البصرية المعروفة لنا وإن الإثبات والنفى فى المسألة لم ينصبا على شيء واحد ، فيكون الخلاف - حينئذ - خلافاً لفظياً ، وقد تنبه الإمام الشهرستانى من قبل إلى ذلك ، وساق اختلاف الفرقاء فى مسألتى الكلام والرؤية فقال :

المختلفان في مسألة الكلام ليسا يتواردان على معنى واحد بالنفى والإثبات .. فإن الذى قال : هو مخلوق ، أراد به أن الكلام هو الحروف والأصوات فى اللسان ، والرقوم والكلمات فى الكتابة ، قال : وهذا مخلوق .. والذى قال : ليس بمخلوق ، لم يرد به الحروف والرقوم ، وإنما أراد به معنى آخر .

فلم يتواردا بالتنازع فى الخلق على معنى واحد .

وكذلك فى مسألة الرؤية فإن النافى قال : الرؤية إنما هى اتصال شعاع بالمرئى ، وهو لا يجوز فى حق البارى تعالى .

والمثبت قال : الرؤية إدراك أو علم مخصوص ، ويجوز تعلقه بالبارى تعالى .

فلم يتوارد النفى والإثبات على معنى واحد .. إلا إذا رجع الكلام إلى إثبات حقيقة الرؤية فيتفقان أولاً على أنها ما هى ؟ ثم يتكلمان نفياً وإثباتاً ، وكذلك فى مسألة الكلام يرجعان إلى إثبات ماهية الكلام ، ثم يتكلمان نفياً وإثباتاً ، وإلا فيمكن أن تصدق القضيتان »[1] .

بعيد عن الأصول :

لو سلمنا جدلاً أن الخلاف فى مسألة الرؤية حقيقة ، فإن المسألة برمتها خارجة عن دائرة الأصول التى يتعلق بها الإيمان والكفر .

---

(١) الملل والنحل - تحقيق محمد سعد كيلانى ، ج ١ ، ص ٢٠٢ .

فلم يسأل رسول الله ﷺ أحداً الإيمان بها ، ولا كلفه ضرورة الإقرار بإثباتها أو نفيها .

وكل ما سبق من أدلة فى هذا المجال هى أدلة ظنية ، تقوم على الأولى والأرجح والأقرب لفهم الفريق المجادل ، ولا علاقة لها باليقين الذى هو أساس الإيمان .

وتفسير النصوص الشرعية بما يؤيد الرؤية أو ينفيها له وجاهته الشرعية واللغوية ، وعملية الترجيح تقوم على التذوق العقلى والحسى الدينى ، وقد نرجح أحياناً جانب النفى ، وقد نميل حيناً إلى جانب الإثبات .

وكان للإمام الرازى تعبيرات ذات دلالة ومغزى فى هذا المجال ، ففى آية سورة القيامة مثلاً قال : إن حمل النظر على الرؤية أولى من حمله على الانتظار !!

وإن مسألة العدول عن الظاهر التى رُمى بها المعتزلة فى فهمهم لكثير من آيات الاستدلال – هى مسألة نسبية ، فالظاهر ليس حجة دائماً ، وفى مواضع عدة عدل أهل السنة عن الظاهر ، كما فى آيات الصفات الخبرية .

أما كون العدول عن الظاهر لدليل أو غير دليل فهذا هو بيت القصيد ومحل النزاع ، ولا أحد من الفريقين يعدل عن الظاهر إلا لدليل يراه وحجة يتبناها .

والقول بأن أحاديث الرؤية متواترة غير مسلم ، فهى كلها أحاديث آحاد باتفاق المحدثين ، لكنها قد تلتقى على معنى واحد هو إثبات الرؤية عند القائلين بها ، فتكون من المتواتر المعنوى وليس من المتواتر اللفظى الذى يعز وجوده فى السنة .

ثم إن هذا المعنى الذى التقت عليه الأحاديث عند القائلين بإثبات الرؤية هو محل النزاع فكيف يكون متواتراً ، فضلاً عن كونه مسلماً ؟!

وقد قلت من قبل : إن النافين للرؤية لا يعوزهم فهم الأحاديث الواردة كفهمهم لآيات القرآن المجيد ، على حذف مضاف أو على سبيل المجاز .

وحين تتعدد التأويلات والاحتمالات فلا يقين ولا قطع وتظل المسألة خاضعة للاجتهاد !!

* * *

على هامش الرؤية

١ - الرؤية فى الدنيا :

هناك شبه إجماع لدى أهل السنة على أن الرؤية لم تقع لأحد فى الدنيا قبل سيدنا محمد ﷺ .

واختلفوا فى وقوعها لسيدنا محمد ليلة الإسراء والمعراج ، وقد ظهر هذا الخلاف مبكراً منذ عهد الصحابة رضى الله عنهم ، فهناك موقف للسيدة عائشة رضى الله عنها ينفى هذه الرؤية تماماً ، وهناك مذهب لابن عباس رضى الله عنهما يثبت هذه الرؤية ، والعلماء منقسمون بين الموقف والمذهب .

موقف السيدة عائشة :

من المعروف لدى علماء الحديث أن هناك رواية عن شريك بن عبد الله بن أبى نمر ، خرجها البخارى فى صحيحه ، تحوى أوهاماً أنكرها عليه العلماء ، منها :

١ - أن الإسراء وقع مناماً .

٢ - أن الإسراء كان قبل أن يوحى إليه .

٣ - أن الجبار عز وجل ، رب العزة تبارك وتعالى دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إليه ما شاء الله .

وقد نقل الإمام النووى عن القاضى عياض قوله :

« وقد جاء فى رواية شريك فى هذا الحديث أوهام أنكرها عليه العلماء ، وقد نبه مسلم على ذلك بقوله : فقدم وأخر ، وزاد ونقص »[1] .

وقال الإمام ابن كثير :

« وقوله فى حديث شريك عن أنس .. ثم استيقظت فإذا أنا فى الحجر ..

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ، ج ٢ ، ص ٢١٠ .

معدود في غلطات شريك أو محمول على أن الانتقال من حال إلى حال يسمى يقظة »[1] .

ويقول أيضاً : « وأما قول شريك عن أنس في حديث الإسراء .. ثم دنا الجبار رب العزّة فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى .. فقد يكون من فهم الراوي فأقحمه في الحديث .. والله أعلم »[2] .

أما موقف السيدة عائشة رضي الله عنها فقد رواه مسلم بسنده عن الشعبي عن مسروق[3] قال :

« كنت متكئاً عند عائشة فقالت : يا أبا عائشة ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية ، قلت : ما هن ؟ قالت : من زعم أن محمداً ﷺ رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية .. قال : وكنت متكئاً فجلست فقلت : يا أم المؤمنين أنظريني ولا تعجلي ، ألم يقل الله عز وجل ﴿ **ولقد رآه بالأفق المبين** ﴾[4] ﴿ **ولقد رآه نزلة أخرى** ﴾[5] ؟

فقالت : أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ فقال : إنما هو جبريل ، لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين ، رأيته منهبطاً من السماء ، سادا عظم خلقه ما بين السماء إلى الأرض .

فقالت : أو لم تسمع أن الله يقول : ﴿ **لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ﴾[6] ؟!

أولم تسمع أن الله يقول : ﴿ **وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ** ﴾[7] .

---

(١) ، (٢) السيرة النبوية – تحقيق د. مصطفى عبد الواحد ، ج ٢ ، ص ١٠٠ ، ١٠٤ .

(٣) سمي مسروقاً لأنه سرقه إنسان في صغره ثم وجد ، وهو مسروق بن الأجدع بن مالك بن أمية همداني كوفي ، وكان لمسروق بنت تسمى عائشة .

(٤) سورة التكوير الآية : ٢٣ .

(٥) سورة النجم الآية : ١٣ .

(٦) سورة الأنعام الآية : ١٠٣ .

(٧) سورة الشورى الآية : ٥١ .

قالت : ومن زعم أن رسول الله ﷺ كتم شيئاً من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية ، والله يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ... ﴾[1] .

قالت : ومن زعم أنه يخبر بما يكون فى غد فقد أعظم على الله الفرية ، والله يقول : ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ...﴾[2] .

وفى رواية :

قالت : ولو كان محمد ﷺ كاتماً شيئاً مما أنزل عليه لكتم هذه الآية .. ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ ...﴾[3] .

وفى رواية :

سألت عائشة : هل رأى محمد ﷺ ربه ؟

فقالت : سبحان الله ، لقد قف[4] شعرى لما قلت !!

وإذا كان هذا موقف السيدة عائشة ، فما تفسير قوله تعالى : ﴿ ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى ﴾ ؟

وهنا نسوق وجوها ذكرها الإمام الرازى هى :

أحدها : إن جبريل دنا من النبى ﷺ ، أى بعد ما مدّ جناحه وهو بالأفق ، عاد إلى الصورة التى يعتاد النزول عليها ، وقرب من النبى ﷺ .

وعلى هذا ففى « تدلى » ثلاثة وجوه :

١ – فيه تقديم وتأخير ، تقديره ثم تدلى من الأفق الأعلى فدنا من النبى ﷺ .

٢ – الدنو والتدلى بمعنى واحد ، كأنه قال : دنا فقرب .

---

(١) سورة المائدة الآية . ٦٧ . (٢) سورة النمل الآية : ٦٥ .

(٣) سورة الأحزاب الآية : ٣٧ ، والذى أخفاه الرسول وأبداه الله هو قوله تعالى ﴿ فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً ﴾ .

(٤) قام شعرى من الفزع وهول المقالة .

٣ - دنا أى قصد القرب من محمد ﷺ ، وتحرك عن المكان الذى كان فيه فتدلى فنزل إلى النبى ﷺ .

الثانى : أن محمداً ﷺ ﴿ **دنا** ﴾ من الخلق والأمة ، ولان لهم ، وصار كواحد منهم ﴿ **فتدلى** ﴾ أى فتدلى إليهم بالقول اللين والدعاء الرفيق فقال ﴿ **إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ** ﴾ .

وعَلى هذا ففى الكلام كمالان :

كأنه تعالى قال : إلا وحى يوحى جبريل على محمد ، فاستوى محمد وكمل ، فدنا من الخلق بعد علوه ، وتدلى إليهم وبلغ الرسالة .

الثالث : وهو ضعيف سخيف ، وهو أن المراد منه هو ربه تعالى ، وهو مذهب القائلين بالجهة والمكان .

اللهم إلا أن يريد القرب بالمنزلة ، وعلى هذا يكون منه ما فى قوله صلى الله عليه وسلم حكاية عن ربه تعالى : « من تقرب إلىّ شبراً تقربت إليه ذراعاً ، ومن تقرب إلىّ ذراعاً تقربت إليه باعاً ، ومن مشى إلىّ أتيته هرولة » ، إشارة إلى المعنى المجازى .. »[1] .

وهناك استدلال طريف مؤيد لموقف السيدة عائشة ، مأخوذ من ختام آية الإسراء وآية النجم ..

ففى آية سورة الإسراء قال تعالى ﴿ **لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا** ﴾ .

وفى آية سورة النجم قال جل شأنه ﴿ **لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ** ﴾ فالملاحظ أن الآيتين أثبتتا رؤية الآيات فى رحلة الإسراء والمعراج ، ولم تشيرا إلى رؤية الله تعالى ، فلو وقعت رؤية الله سبحانه لكانت أولى بالتسجيل والتنبيه والإشارة .. بل يذهب بعض العلماء إلى أهمية تفسير أيات سورة النجم برؤية جبريل الأمين فيقول :

ونحن إلى تقرير رؤيته لجبريل أحوج منا إلى تقرير رؤيته لربه تعالى ، وإن كانت

---

(١) التفسير الكبير ص ٢٨٦ ج ٢٨ .

رؤية الرب تعالى أعظم وأعلى ، فإن النبوة لايتوقف ثبوتها عليها (أى رؤية الله) عليهما ألبتة [1] .

وجاءت أحاديث مؤيدة لموقف السيدة عائشة ، منها ماورواه مسلم فى صحيحه بسنده عن أبى ذر قال :

سألت رسول الله ﷺ : هل رأيت ربك ؟ قال : نورٌ أَنى أراه ؟ .

وفى رواية عن عبد الله بن شقيق قال : قلت لأبى ذر : لو رأيت رسول الله ﷺ لسألته ، فقال : عن أى شىء كنت تسأله ؟

قال كنت أسأله : هل رأيت ربك ؟

قال أبو ذر : قد سألت فقال : رأيت نوراً ..

وفى شرح الإمام النووى نقل عن الإمام المازرى قوله :

الضمير فى « أراه » عائد على الله سبحانه وتعالى ، ومعناه أن النور منعنى من الرؤية ، كما جرت العادة بإغشاء الأنوار الأبصار ومنعها من إدراك ما حالت بين الرائى وبينه .

وقوله ﷺ : « رأيت نوراً » معناه رأيت النور فحسب ولم أر غيره .

وقد فسر النور بالحجاب فى حديث آخر « حجابه النور » فيكون الرسول ﷺ رأى الحجاب الذى هو النور ، وقد منعه ذلك من رؤية الرب عزوجل .. [2] .

* * *

(١) شرح العقيدة الطحاوية للشيخ ابن أبى العز الدمشقى ص ٢١٤ ط المكتب الإسلامى سنة ١٣٩٩هـ .

(٢) راجع صحيح مسلم بشرح النووى ص ١٢ ج ٣ .

مذهب ابن عباس

جاءت روايات عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ رأى ربه ، واختلفت هذه الروايات فى آلة الرؤية :

فقيل إنه رآه بعينه ، وقيل إنه رآه بقلبه وفؤاده .

وقال ابن عباس : إن الله تعالى اختص موسى بالكلام ، وإبراهيم بالخلة ، ومحمداً بالرؤية .

وكان الحسن يحلف لقد رأى محمد ﷺ ربه .

وحكى عن أحمد بن حنبل أنه قال : وأنا أقول بحديث ابن عباس بعينه ، رآه ، رآه ، حتى انقطع نفسه يعنى نفس أحمد .. وفى رواية أخرى قال أحمد : رآه بقلبه ، وجبن عن القول برؤيته فى الدنيا بالأبصار ..

وحاول بعض العلماء ترجيح رأى ابن عباس بما يلى :

١ - ابن عباس حبر هذه الأمة وترجمان القرآن .
٢ - إن هذا العلم لايدرك بالعقل ولا بالرأى ولا يعلم إلا عن طريق النبوة .
٣ - ابن عباس أثبت الرؤية ، وعائشة نفتها ، والمثبت مقدم على النافى .

٤ - عائشة لم تنف الرؤية بحديث سمعته من رسول الله ﷺ وإنما اعتمدت الاستنباط من الآيات ، وهو محل نظر وللعلماء عليه أجوبة ..

وكان معمر بن راشد يقول : ماعائشة عندنا بأعلم من ابن عباس .. !! بل إن ابن خزيمة ادعى أن السيدة عائشة قالت : « فقد أعظم على الله الفرية » فى وقت غضب ، ولو أنها عبرت بلفظة أحسن منها لكان أجمل بها [1] .

---

(١) راجع الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضى عياض ص ١٩٥ ، ج ١ - ط دار الكتب العلمية ، وصحيح مسلم بشرح النووى ص ٥ ج ٣ ، والتوحيد لابن خزيمة ص ١٩٧ تحقيق د . محمد خليل هراس - ط مكتبة الكليات الأزهرية .

وهذه الترجيحات ليست راجحة ، ولاترقى إلى مستوى القبول لموقف السيدة عائشة لما يلى :

١ - عائشة أم المؤمنين ، لازمت الرسول ﷺ فى حضره وسفره ، فى صحته ومرضه ، وكافة أحواله كلها ، وعرفت الكثير من خفايا حياة المصطفى ، ولها قدم صدق فى فقه الإسلام ..

وكان ابن عباس رضى الله عنهما غلاماً حدثاً على عهد رسول الله ﷺ ، ولم يبلغ مبلغ الرجال ..

٢ - إن مذهب ابن عباس لايعتمد على نص صريح مرفوع إلى الرسول ﷺ ، ولعله فهم من ابن عباس واجتهاد ، فهو لم يُسنده إلى النبى ﷺ .. ودعوى أن مذهب ابن عباس فى الرؤية لايعلم إلا عن طريق النبوة دعوى مرفوضة فإن الاجتهاد فى فهم النصوص أمر وارد وواقع لدى الصحابة ..

وكيف يقال إن موقف السيدة عائشة رضى الله عنها اجتهاد ولايقال مثله فى مذهب ابن عباس ؟!

٣ - إن الزعم بأن السيدة عائشة رضى الله عنها لم تؤيد رأيها بحديث سمعته من رسول الله ﷺ زعم باطل .. فقد قالت : أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ فقال : إنما هو جبريل لم أره على صورته التى خلق عليها غير هاتين المرتين ، رأيته منهبطاً من السماء سادا عظم خلقه مابين السماء إلى الأرض .

ثم إن الأحاديث الصحيحة الواردة تؤيدها مثل روايات أبى ذر حين سأل رسول الله ﷺ : هل رأيت ربك ؟ قال : « نور أنى أراه » .

٤ - إن مسألة أن المثبت مقدم على النافى لا محل لها هنا فإن المثبت للرؤية لادليل معه ولانص يؤيده ، أما النافى فمعه النص المرفوع الصريح ، ومعه الرأى والاجتهاد فيكون النافى مقدماً ..

* * *

٢ - رؤية الله تعالى مناماً

اتفق المثبتون للرؤية على أنها لم تقع في الدنيا لأحد قبل سيدنا محمد ﷺ ثم اختلفوا في حصولها للرسول ليلة الإسراء والمعراج ، ولما جاء الكلام على رؤية الله تعالى مناما حكوا الاتفاق على جوازها ووقوعها حتى ولو كانت على صفة لاتليق ، وأخضعوها للتأويل والتعبير ..

جاء ذلك خلال شرحهم لحديث رسول الله ﷺ .. « من رآنى فى المنام فقد رآنى فإن الشيطان لايتمثل بى » .

ونقل الإمام النووى مايلى :

قال القاضى : واتفق العلماء على جواز رؤية الله تعالى فى المنام وصحتها ، وإن رآه الإنسان على صفة لاتليق بحاله من صفات الأجسام ، لأن ذلك المرئى غير ذات الله تعالى ، إذ لايجوز عليه سبحانه وتعالى التجسم ولا اختلاف الأحوال ، بخلاف رؤية النبى ﷺ ..

قال ابن الباقلانى : رؤية الله تعالى فى المنام خواطر فى القلب ، وهى دلالات للرائى على أمور مما كان أو يكون كسائر المرئيات .. والله أعلم » [١] .

ونبه الإمام ابن حجر العسقلانى إلى ذلك فقال :

جوز أهل التعبير رؤية البارى عز وجل فى المنام مطلقاً ، ولم يجروا فيها الخلاف فى رؤيا النبى ﷺ ، وأجاب بعضهم عن ذلك بأمور قابلة للتأويل فى جميع وجوهها ، فتارة يعبر بالسلطان ، وتارة بالوالد ، وتارة بالرئيس فى أى فن كان ..

فلما كان الوقوف على حقية ذاته ممتنعاً ، وجميع من يعبر به يجوز عليهم الصدق والكذب ، كانت رؤياه تحتاج إلى تعبير دائماً ، بخلاف النبى ﷺ ، فإذا رؤى على صفته المتفق عليها ، وهو لا يجوز عليه الكذب ، كانت فى هذه الحالة حقاً محضاً لا يحتاج إلى تعبير ..

وقال الغزالى : ليس معنى قوله « رآنى » أنه رأى جسمى وبدنى ، وإنما المراد أنه

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ، ج ١٥ ، ص ٢٥ .

رأى مثالاً ، صار ذلك المثال آلة يتأدى بها المعنى الذى فى نفسى إليه ، وكذلك قوله « فسيرانى فى اليقظة » ، ليس المراد أنه يرى جسمى وبدنى ، والآلة تارة تكون حقيقية ، وتارة تكون خيالية ، والنفس غير المثال المتخيل ، فما رآه من الشكل ليس هو روح المصطفى ولا شخصه ، بل هو مثال له على التحقيق .

ومثل ذلك من يرى الله سبحانه وتعالى فى المنام ، فإن ذاته منزهة عن الشكل والصورة ، ولكن تنتهى تعريفاته إلى العبد بواسطة مثال محسوس من نور أو غيره ، ويكون ذلك المثال حقاً فى كونه واسطة التعريف ، فيقول الرائى رأيت الله تعالى فى المنام ، لا يعنى أنى رأيت ذات الله تعالى كما يقول فى حق غيره .

وقال أبو القاسم القشيرى ما حاصله :

إن رؤياه على غير صفته لا تستلزم أن لا يكون هو ، فإنه لو رأى الله على وصف يتعالى عنه ، وهو يعتقد أنه منزه عن ذلك - لا يقدح فى رؤيته بل يكون لتلك الرؤيا ضرب من التأويل - كما قال الواسطى : من رأى ربه على صورة شيخ كان إشارة إلى وقار الرائى ، وغير ذلك »[٢] .

ولعل هذه التشقيقات والافتراضات تتلمس من حديث تعددت طرقه ، منها :

« احتبس عنا رسول الله ﷺ ذات غداة من صلاة الصبح حتى كدنا نتراءى عين الشمس ، فخرج سريعاً ، فثوب بالصلاة فصلى رسول الله ﷺ وتجوز فى صلاته ، فلما سلم دعا بصوته .

فقال لنا : على مصافكم كما أنتم ، ثم انفتل إلينا فقال : أما إنى سأحدثكم ما حبسنى عنكم الغداة ..

إنى قمت من الليل فتوضأت فصليت ماقُدِّر لى ، فنعست فى صلاتى فاستثقلت ، فإذا بربى تبارك وتعالى فى أحسن صورة ، فقال : يامحمد ، قلت : رب لبيك ، قال : فيم يختصم الملأ الأعلى ؟

قلت لا أدرى رب ، قالها ثلاثاً .

---

(١) فتح البارى بشرح البخارى ج ١٦ ص ٤٣ ط الحلبى سنة ١٣٨٧ هـ - ١٩٥٩ م .

قال : فرأيته وضع كفه بين كتفي ، فوجدت برد أنامله بين ثديي ، فتجلى لي كل شيء وعرفت ..

فقال : يا محمد ، قلت : لبيك رب .

قال : فيم يختصم الملأ الأعلى ؟

قلت : في الكفارات . قال : ما هن ؟

قلت : مشي الأقدام إلى الجماعات ، والجلوس في المساجد بعد الصلاة ، وإسباغ الوضوء في المكروهات .

قال : ثم فيم ؟ . قلت : إطعام الطعام ، ولين الكلام ،والصلاة بالليل والناس نيام .

قال : سل ، قلت : اللهم إني أسألك فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحب المساكين ، وأن تغفر لي وترحمني ، وإذا أردت فتنة في قوم فتوفني غير مفتون ، وأسألك حبك وحب من يحبك وحب عمل يقربني إلى حبك .

قال رسول الله ﷺ : إنها حق فادرسوها ثم تعلموها .

ونحن أمام هذا الحديث نضع مجموعة ملاحظات :

أولاً : علماء السنة مجمعون على أن رؤية الله تعالى يقظة لم تقع لأحد في الدنيا قبل سيدنا محمد ﷺ ، بل لم تقع لأحد مطلقاً كما هو رأى السيدة عائشة ، فكيف نتصور وقوعها مناماً ؟! .

فإذا إضفنا مافي هذه الروايات من رؤية الرب تبارك وتقدّس على أحسن صورة أو على صورة شاب ، ووضع الكف وبرد الأنامل [1] كان التوقف في قبولها راجحاً .

ثانياً : إن الحديث يبدو أنه مقلوب المعنى ، فهو يثبت أن الله تعالى هو السائل وأن الرسول هو المجيب ، والشأن الصحيح أن يكون الرسول سائلاً ربه عما يجري في الملأ الأعلى ..

---

(١) راجع الروايات في . « مجمع الزوائد ومنبع الفوائد » للإمام الهيثمي ج ١ ، ص ٢٣٧ ، و ج ٧ ، ص ١٧٦ ، طبعة دار الكتاب العربي .

ومما يؤكد الاضطراب في هذا الحديث أن الدعاء المذكور في آخره ينسب مرة إلى الله تعالى تعليماً لرسوله ، وينسب أخرى إلى الرسول تضرعاً إلى مولاه .. ففى رواية للترمذى عن ابن عباس : « وقال : يا محمد ، إذاصليت فقل : اللهم إنى أسألك فعل الخيرات .. إلخ » .

وفى رواية لأحمد عن بعض أصحاب النبى ﷺ : « وقال : يا محمد ، إذا صليت فقل اللهم إنى أسألك الطيبات .. إلخ » .

وفى رواية للترمذى عن معاذ بن جبل : « قال : سل ، قلت : اللهم إنى أسألك فعل الخيرات .. إلخ » .

ويضاف إلى ذلك اضطراب آخر ،وهو هل وقعت هذه الرؤية مناماً أم يقظة ؟ وهل كانت فى صلاة أم لا ؟! .

ففى رواية الترمذى عن ابن عباس قال : « أحسبه قال فىالنوم » .

وفى رواية الترمذى عن معاذ قال : « فنعست فى صلاتى فاستثقلت فإذا أنا بربى تبارك وتعالى فى أحسن صورة » .

وفى رواية لأحمد : « فنعست فى صلاتى حتى استيقظت فإذا أنا بربى عز وجل فى أحسن صورة .. » .

وذهب بعض الشرّاح إلى أن رواية (حتى استيقظت) تصحيف ، وأن المحفوظ هو (حتى استثقلت)[1] .

ثالثاً : بعض المفسرين ساق هذا الحديث تفسيراً للآية الكريمة : ﴿ **مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ** ﴾ .

والحديث والآية بينهما بون شاسع ، فالآية تثبت الوحى للنبى ﷺ بإعلامه بالغيب الذى أوحاه اللهتعالى إليه فى شأن آدم واختصام الملائكة حول خلقه وأمر الله لهم بالسجود ، ولنقرأ ما قبلها وما بعدها : ﴿ **قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ۝ أَنتُمْ عَنْهُ**

---

(١) راجع : (تحفة الأحوذى شرح جامع الترمذى) – تحقيق الدكتور عبد الوهاب عبد اللطيف ، ج ٩ ، ص ١٠٢ .

مُعْرِضُونَ * مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ * إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [1] .

والحديث يتعلق بالوضوء والصلاة والحسنات .. فما العلاقه بينهما ؟!

وقد تفطّن الإمام ابن كثير لذلك فقال : (وليس هذا الاختصام هو الاختصام المذكور فى القرآن ، فإن هذا (أى المذكور فى الحديث) قد فسّرَ ، وأما الاختصام الذى فى القرآن فقد فسّرَ بعد هذا ، وهو قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ ...﴾) [2] .

٣ - أنواع الرؤية :

ذكر الإمام ابن خزيمة أنواعاً للرؤية واستدل عليها ، وجمعها تحت عناوين ، هى :

١ - بيان أن جميع أمة النبى ﷺ ، برهم وفاجرهم ، مؤمنهم ومنافقهم ، وبعض أهل الكتاب يرون الله عز وجل يوم القيامة .

يراه بعضهم رؤية امتحان لا رؤية سرور وفرح وتلذذ بالنظر فى وجه ربهم عز وجل ، ذى الجلال والإكرام .

وهذه الرؤية قبل أن يوضع الجسر بين ظهرى جهنم ، ويخص الله عز وجل أهل ولايته من المؤمنين بالنظر إلى وجهه نظر فرح وسرور وتلذذ .

واستشهد ابن خزيمة على ذلك بحديث عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخدرى قال : سألنا رسول الله ﷺ فقلنا : يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟

فقال : هل تضارون فى القمر ليلة البدر ، ليس دونه سحاب ؟!

قلنا : لا .

قال : فإنكم ترون ربكم عز وجل كذلك يوم القيامة .

قال : يقال من كان يعبد شيئاً فليتبعه .

فيتبع الذى كانوا يعبدون الشمس - الشمس ، فيتساقطون فى النار ، ويتبع الذين كانوا يعبدون القمر - القمر ، فيتساقطون فى النار ، ويتبع الذين كانوا يعبدون

---

(١) سورة ص ، الآيات : ٦٧ - ٧٢ .
(٢) تفسير القرآن العظيم ، ج ٤ ، ص ٤٣ .

الأوثان – الأوثان ، والأصنام – الأصنام ، وكل من كان يعبد من دون الله ، فيتساقطون فى النار .. ويبقى المؤمنون ومنافقوهم بين أظهرهم وبقايا أهل الكتاب ، يقللهم بيده ، فيقال لهم : ألا تتبعون ما كنتم تعبدون ؟

فيقولون : كنا نعبد الله ولم نر الله ، فيكشف [1] عن ساق فلا يبقى أحد كان يسجد لله إلا خر ساجداً ، ولا يبقى أحد كان يسجد رياء وسمعة إلا وقع على قفاه ، ثم يوضع الصراط بين ظهرى جهنم ... الحديث » رواه البخارى ومسلم .

٢ – بيان أن جميع المؤمنين يرون الله يوم القيامة مخليا به عز وجل ..
وساق حديث أبى رزين قال : « قلت : يا رسول الله أكلنا نرى الله مخليا به ؟ قال : نعم ، قال : وما آية ذلك فى خلق الله ؟ قال : أليس كلكم يرى القمر ليلة البدر ، وإنما هو خلق من خلق الله ، والله أجل وأعظم » رواه أبو داود .
٣ – بيان رؤية الله التى يختص بها أولياءه يوم القيامة والتى ذكر الله فى قوله : ﴿ **وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة** ﴾ .

قال ابن خزيمة : ويفضل بهذه الفضيلة أولياءه من المؤمنين ، ويحجب جميع أعدائه كما أعلم فى قوله : ﴿ **كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون** ﴾ .

وهذا نظر أولياء الله إلى خالقهم جل ثناوه بعد دخول أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، فيزيد الله المؤمنين كرامة وإحساناً إلى إحسانه تفضلاً منه وجوداً بإذنه إياهم النظر إليه ويحجب عن ذلك جميع أعدائه » [2] .

ونخلص من ذلك إلى أن الرؤية يوم القيامة على ثلاثة أنواع هى :
١ – رؤية جميع أهل المحشر لربهم رؤية امتحان وهول حتى يتمايز عبدة الطاغوت .
٢ – رؤية جميع المؤمنين فى خلوة مع ربهم حتى يتمايز المنافقون ويضرب بينهم وبين الصادقين بسور .

٣ – رؤية أولياء الله فى الجنة وهى رؤية السرور والنعيم والكرامة .

---

(١) بضم الياء وفتحها ، والتعبير استخدمه العرب للشدة والهول ، وللعلماء فيه أفهام سبق شرحها فى مبحث الصفات .
(٢) التوحيد لابن خزيمة ص ١٦٧ – ١٩٠ .

الفصل الرابع

القضاء والقدر

* في البيان القرآني .
* الإيمان بالقضاء والقدر .
* النشأة التاريخية :
  - موقف المشركين .
  - موقف المنافقين .
  - موقف الصحابة .
* نظرة مذهبية :
  - محل النزاع .
  - الجبرية .
  - القدرية .
  - المعتزلة .
  - الأشاعرة .
* جدل مذهبي .
* بعيداً عن المذاهب .
  - الجبر مرفوض .
  - الأمر مقدور .
  - مسير ومخير .
  - الكوني والشرعي .
  - الخير والشر .
  - التفسير القرآني .

القضاء فى البيان القرآنى

جاءت مادة القضاء فى القرآن المجيد على معان شتى نسوق منها ما يلى :

١- قال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُواْ اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ... ﴾ (١) .

والمعنى إذا أديتم مناسك الحج وفرغتم منها فلا تنسوا ذكر الله على كل حال ، ولا تنقطع ألسنتكم وقلوبكم عن الثناء على الله تعالى بما هو أهله .

وكان الناس فى الجاهلية يتخذون مواقف فى الحج للفخر بالآباء وذكر المكرمات الخاصة بهم فنهوا عن ذلك ، ودعاهم القرآن إلى الاتصال الدائم بالله عز وجل وذكر محامده والتسبيح بجلاله وكماله .

٢ - قال الله جل شأنه : ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ (٢) .

تتعلق هذه الآية الكريمة بقصة مريم عليها السلام ، حين فوجئت بالملك يبشرها بمولود ولم تكن متزوجة وليست بغيا ، ولما تعجبت أخبرها الملك أن الله تعالى إذا أراد شيئاً وقع بقدرته بلا موانع ولا معوقات .

٣ - قال الله سبحانه : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾ (٣) .

فالله تعالى خلق الإنسان الأول من طين مباشرة وخلق ذريته من سلالة من ماء

---

(١) سورة البقرة الآية : ٢٠٠ .
(٢) سورة آل عمران الآية : ٤٧ .
(٣) سورة الأنعام الآية : ٢ .

مهين ، يستخلص من الأغذية التى تنتهى إلى الطين ، وقد حدد الله تعالى لهذا الإنسان أجلاً لا يتقدمه ولا يتأخر عنه ، والأجل الأول فى الآية هو عمر الإنسان ، والأجل الثانى هو عمر الدنيا .

٤ – قال الله جل شأنه : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ (١) .

وتتعلق الآية بقصة سيدنا لوط عليه السلام حين أعلمه الله علماً جازماً بالحكم القاطع الذى يلحق قومه وهو استئصال شأفتهم فى وقت الصباح .

٥ – قال الله سبحانه : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ (٢) .

تؤكد الآية الكريمة أن الله تعالى سجل فى التوراة وأعلم بنى إسرائيل على لسان نبيهم فى الوحى المنزل إليهم أنهم سيفسدون فى الأرض مرتين يكون الإفساد فيهما كبيراً ومدمراً ، ثم تكون عاقبة أمرهم خسرا .

٦ – قال الله تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ...﴾ (٣) .

والمعنى أن الله جل شأنه أمر أمراً مقطوعاً به ، ووصى توصية جازمة ، وحكم حكماً شرعياً أنه لا يعبد أحد سواه ، وأن يعامل الأبوان بالإحسان والبر والمعروف .

٧ – قال جل شأنه : ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ (٤) .

والمعنى أن يزيل الحجاج ما من شأنه أن يزال من حلق الشعر وقص الأظفار ونحو ذلك مما يتعلق بالبدن أو الثوب من جراء أداء المناسك والالتزام بمحظورات الإحرام ،

---

(١) سورة الحجر الآية : ٦٦ .
(٢) سورة الإسراء الآية : ٤ .
(٣) سورة الإسراء الآية : ٢٣
(٤) سورة الحج الآية : ٢٩ .

وبعد أداء المناسك يتحلل الحاج ويعود سيرته الأولى فى المآكل والملابس وغيرها .

٨ – قال الله تعالى : ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ (١) .

تتعلق الآية الكريمة بقصة موسى عليه السلام حين ذهب إلى مدين والتقى هناك بالشيخ الكبير الذى عرض عليه أن يزوجه إحدى ابنتيه على أن يأجره ثمانى سنوات أو عشراً ، فقبل موسى عليه السلام العرض والأجر ، دون أن يحدد مدة من هاتين المدتين ، وجعل لنفسه فسحة فى أن يختار إحداهما يؤديها دون لوم عليه .

٩ – قال الله سبحانه : ﴿ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ (٢) .

تؤكد الآية ولاء المؤمنين الصادقين لله ورسوله ، وتضحياتهم المتواصلة لنصرة هذا الدين الخالد ، فمنهم من مات شهيداً ، ومنهم من ينتظر الشهادة فى ثبات وإقدام .

١٠ – قال الله سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾ (٣) .

فالمؤمنون والمؤمنات يلتزمون إلتزامًا كاملاً وأميناً بحكم الله ورسوله لا يسعهم مخالفته ولا تتململ قلوبهم فى حكمته ، فمتى حكم الله ورسوله حكما فالطاعة واجبة والتسليم فريضة .

١١ – قال الله تعالى : ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ... ﴾ (٤)

---

(١) سورة القصص الآية . ٢٨ .
(٢) سورة الأحزاب الآية : ٢٣ .
(٣) سورة الأحزاب الآية : ٣٦ .
(٤) سورة فصلت الآية ١٢ .

والمعنى أن الله جل شأنه فرغ من خلق السموات على شموخها واتساعها ودقة إحكامها في يومين اثنين فقط ، وأودع في كل سماء ما يخصها من نواميس .

١٢ - قال الله تعالى : ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ ... ﴾ (١) .

لقد اختلف الناس وكفروا وبأيديهم معالم الهدى من الوحى المنزل ، ولولا أن الله جلت حكمته سبقت كلمته بإنظار العباد وإمهالهم وعدم مؤاخذتهم فور وقوع المعصية لحكم بينهم فى الدنيا ولعجل لهم العقوبة ولأنفذ فيهم حكمه العادل .

وهكذا فالقضاء فى البيان القرآنى يدور حول الحكم بالشىء ، وأدائه ، والفراغ منه ، وتقديره ، والإعلام به .

* * *

---

(١) سورة الشورى الآية . ١٤ .

القدر فى البيان القرآنى

وردت مادة القدر فى القرآن المجيد على عدة معان نسوق منها ما يلى :

١ - قال الله تعالى : ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴾ [١] .

فتبيح هذه الآية الكريمة الطلاق بعد العقد على المرأة وقبل الدخول بها ، ولما كان الطلاق يترتب عليه آلام نفسية للمرأة مهما كانت الأسباب ، فقد شرع الله للمرأة متعة مالية يقدرها القاضى بحسب حال الزوج ، على الغنى بقدر غناه ، وعلى الفقير بقدر فقره ، وهذه المتعة تأخذها المرأة زيادة على ما تستحقه من نصف مهر مثلها [٢] .

٢ - قال الله جل شأنه : ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ﴾ [٣] فالمطر ينزل من السحاب فيأخذ كل واد بحسبه كبيراً كان أو صغيراً .

٣ - قال الله سبحانه : ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِى الآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴾ [٤] .

فالرزق يساق للإنسان تبعاً للحكمة الإلهية ، فقد يوسع الله العطاء لإنسان وقد يضيق على آخر ، ولا يظن أحد أن كثرة العطاء أو قلته مناط لتكريم الإنسان أو إهانته ، والكافر هو الذى يفرح فرح الكبر والأطر بما منحه الله من أموال ، وينسى أن هذا استدراج وإمهال ، ثم إن حقيقة الحياة الدنيا بالنسبة للآخرة لا تمثل إلا هامشاً وشيئاً غير معتد به .

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٣٦ .

(٢) هذا رأى حماد بن أبى سليمان - كما حكى القرطبى فى تفسيره - لكن جمهور العلماء على أن المطلقة التى لم يفرض لها صداق ولم يدخل بها لا شيء لها غير المتعة .

(٣) سورة الرعد الآية : ٧   (٤) سورة الرعد الآية : ٢٦ .

٤ – قال الله تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [(١)] .

فكل شيء ملك لله ، سهل عليه ، يسير لديه ، يفعله سبحانه كما يشاء ولما له في ذلك من الحكمة وعلى وضع وكيفية وكمية خاصة يريدها الله جل جلاله .

٥ – قال سبحانه : ﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [(٢)] .

فيونس عليه السلام ترك قومه بعد أن يئس من إيمانهم ، وهاجر غضبان من أجل الله ولكنه لم يكن تلقى الإذن الإلهي بالهجرة ، وظن أن الله لن يضيق عليه الأمر ولن يؤاخذه بما فعل ، وكانت النتيجة أن ألقى في اليم والتقمه الحوت ، وأدرك سبب هذه العقوبة ، فنادى في ظلمات الماء وبطن الحوت وجوف الأرض : ﴿ .. لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾

٦ – قال الله جل جلاله : ﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [(٣)] .

والمعنى ما عرفوا الله حق معرفته ، وما عظموه حق تعظيمه حين عبدوا معه غيره .

٧ – قال الله جل شأنه : ﴿ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ [(٤)] .

والمعنى أن نوحاً عليه السلام لما دعا ربه أن ينصره على قومه المكذبين فتح الله السماء بماء منهمر كثير ، وتفجرت الأرض عيوناً تفيض بالماء ، والتقى الماءان على أمر أراده الله بمقدار مخصوص ووجه مخصوص لغاية مخصوصة .

٨ – قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [(٥)] .

---

(١) سورة الحجر الآية : ٢١ .
(٢) سورة الأنبياء الآية : ٨٧ .
(٣) سورة الحج الآية : ٧٤ .
(٤) سورة القمر الآية : ١٢ .
(٥) سورة القمر الآية : ٤٩ .

والمعنى أن الله خلق الأشياء كلها بتقدير كماً وكيفاً ، وجعل لها من الطبائع والنواميس والهيئات ما يناسبها .

٩ - قال الله سبحانه : ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ (١) .

فالله قد حدد لكل إنسان أجله الذى تنتهى عنده حياته ، وهو سبحانه القادر على تحقيق مراده ليس عاجزاً عن تنفيذه .

١٠ - قال الله تعالى : ﴿ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴾ (٢) .

والمعنى أن الله خلق الإنسان من نطفة هي ماء الرجل ، وطوره فى مراحل الخلقة طوراً بعد طور ، وبكيفيات معينة وبأحوال خاصة حددها الله عز وجل .

* * *

وهكذا فالقدر فى تصريفاته اللغوية القرآنية يدور حول بيان كمية الشيء ومقداره .

* * *

(١) سورة الواقعة الآية : ٦٠ .

(٢) سورة عبس الآية ١٩ .

الإيمان بالقضاء والقدر

الإيمان فى مفهومه الذى يجب اعتقاده والتصديق به يتضمن أركاناً تبدأ بتوحيد الله تعالى ، ويشمل التصديق بالملائكة والنبيين والكتب المنزلة واليوم الآخر ، ثم التصديق بالقضاء والقدر .

والنص على هذا الركن حدث به المصطفى ﷺ وأكده في الرواية المشهورة حين جاء جبريل عليه السلام في صورة أعرابى وأخذ يسأل النبى ﷺ أمام الصحابة عن حقائق الدين وعلامات الساعة .

وقد خرج الحديث الإمام البخارى ، والإمام مسلم فى صحيحيهما ، وجاءت مقدمة لهذا الحديث ساقها الإمام مسلم بسنده عن يحيى بن يعمر قال :

كان أول من قال فى القدر بالبصرة معبد الجهنى ، فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميرى حاجين أو معتمرين ، فقلنا لو لقينا أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر ، فوفق لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما داخلا المسجد ، فاكتنفته أنا وصاحبى ، أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله فظننت أن صاحبى سيكل الكلام إلى ، فقلت : أبا عبد الرحمن إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرأون القرآن ويتقفرون [1] العلم ، وذكر من شأنهم وأنهم يزعمون أن لا قدر وأن الأمر أنف [2] .

قال ابن عمر رضى الله عنهما : فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أنى برىء منهم وأنهم برآء منى ، والذى يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر .

ثم قال : حدثنى أبى عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبى ﷺ

---

(١) تقفر العلم بتقديم الفاء على القاف أو العكس معناه طلب العلم والبحث عن غامضه واستخراج خفيه .

(٢) أى مستأنف لم يسبق به علم من الله تعالى ، وإنما يعلمه بعد وقوعه .

فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه وقال :

يا محمد أخبرني عن الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : « الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا .

قال : صدقت ، قال عمر : فعجبنا له يسأله ويصدقه .

قال : فأخبرنى عن الإيمان : قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره ، قال : صدقت ، قال : فأخبرنى عن الإحسان ، قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، قال : فأخبرنى عن الساعة . قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل ، قال : فأخبرنى عن أمارتها . قال : أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان ، قال عمر : ثم انطلق فلبثت ملياً ، ثم قال لى : يا عمر أتدرى من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » .

وقضية الإيمان بالقضاء والقدر ترتبط ارتباطاً جوهرياً بقضية توحيد الله تعالى ذاتاً وصفات وأفعالا ، وتتصل اتصالاً وثيقاً بعلم الله الشامل المحيط الذى لا يعزب عنه مثقال ذرة .

وفى بيان المراد بالقضاء والقدر شرعاً قال الإمام النووى :

« واعلم أن مذهب أهل الحق إثبات القدر ، ومعناه أن الله تبارك وتعالى قدر الأشياء فى القدم ، وعلم أنها ستقع فى أوقات معلومة عنده سبحانه وتعالى ، وعلى صفات مخصوصة ، فهى تقع على حسب ما قدرها سبحانه وتعالى »[1] .

وقال الراغب الأصفهانى :

« والقضاء من الله تعالى أخص من القدر ، لأنه الفصل بين التقدير ، فالقدر هو التقدير ، والقضاء هو الفصل والقطع ، وقد ذكر بعض العلماء أن القدر بمنزلة المعد للكيل ، والقضاء بمنزلة الكيل . وهذا كما قال أبو عبيدة لعمر رضى الله عنهما لما أراد الفرار من الطاعون بالشام : أتفر من القضاء ؟! قال أفر من قضاء الله إلى قدر الله .

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ، ج ١ ، ص ١٥٤ .

تنبيهاً إلى أن القدر ما لم يكن قضاء فمرجو أن يدفعه الله ، فإذا قضى فلا مدفع له ، ويشهد لذلك قوله : ﴿ وكان أمراً مقضياً ﴾ وقوله : ﴿ كان على ربك حتماً مقضيا ﴾ وقوله : ﴿ وقضى الأمر ﴾ : أى فصل تنبيهاً أنه صار بحيث لا يمكن تلافيه »[1] .

ولئن سلمنا للراغب رأيه فى العلاقة بين القضاء والقدر ، فإننا نتوقف فى الاستشهاد بمقالة أبى عبيدة ورد عمر عليه ، فالنص الوارد فى صحيح البخارى وصحيح مسلم بلفظ القدر هكذا :

فقال أبو عبيدة بن الجراح : أفراراً من قدر الله ؟

فقال عمر : لو غيرك قالها يا أبا عبيدة ، نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله ، أرأيت إن كانت لك إبل هبطت وادياً له عدوتان[2] إحداهما خصيبة والأخرى جدبة ، أليس إن رعيت الخصيبة رعيتها بقدر الله ، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله[3] .

وذهب الإمام ابن حزم الأندلسى إلى أن معنى قضى وقدر - حكم ورتب ، ومعنى القضاء والقدر حكم الله تعالى فى شىء بحمده أو ذمه ، أو تكوينه ، أو ترتيبه على صفة كذا إلى وقت كذا[4] .

ونخلص مما تقدم إلى أن القضاء والقدر مرتبطان بصفات إلهية هى : العلم والإرادة والقدرة ، فالله تعالى يعلم ، ثم يريد ، ثم يوجد .

والترتيب بين العلم وبين الإرادة ترتيب تعقلى فقط ، لأن كليهما قديم أزلى ، وما كان قديماً أزلياً لا ترتيب فيه ، لكن كى نفهم تعلق العلم والإرادة بالمقدور المقضى فنحن لا نفهمه إلا مرتباً .

أما الترتيب بين العلم والإرادة من جهة ، وبين القدرة والإيجاد من جهة أخرى فهو ترتيب زمنى ، لأن الأشياء لا تقع قديمة ، ولا توجد دفعة واحدة ، فالخلق حادث متجدد ، وتعلق القدر بهذا الخلق إنما يكون على مدى الزمن الممتد إلى ما شاء الله .

---

(١) معجم مفردات ألفاظ القرآن للعلامة الراغب ، تحقيق نديم مرعشلى ، ص ٤٢٢ - طبعة دار الفكر .

(٢) العدوة بضم العين وكسرها : جانب الوادى .

(٣) فتح البارى لابن حجر ، ج ١٠ ، ص ١٧٩ ، وصحيح مسلم بشرح النووى ، ج ١٤ ، ص ٢١٠ .

(٤) الفصل فى الملل والأهواء والنحل - تحقيق د. محمد نصر ، د. عبد الرحمن عميرة ، ج ٣ ، ص ٧٨ .

النشأة التاريخية

موقف المشركين :

من الأمور الشائكة التى تكلم الناس فيها قديماً وحديثاً مسألة القضاء والقدر ، وحاول المشركون على عهد رسول الله ﷺ الاحتجاج بالقدر ونزل قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا ولَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ (1) .

فهذه شبهة تشبث بها المشركون فى شركهم وتحريم ما حرموا من الطيبات بأن الله مطلع على ما هم فيه ، وهو قادر على تغييره بأن يلهمهم الإيمان ، ويحول بينهم وبين الكفر ، ولما لم يغيره فهموا أن الله تعالى شاء ذلك منهم وأراده ورضى عنه .

ورد الله تعالى عليهم بأن هذه الشبهة قد ضل بها أقوام من قبل ، وهى حجة داحضة باطلة ، لأنها لو كانت صحيحة لما أذاقهم الله بأسه ودمر عليهم ، فهم فى زعمهم هذا واهمون وعلى اعتقاد فاسد .

وتكرر هذا المعنى فى قوله جل شأنه : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ (2) .

وجاء فى تفسير هذه الآية :

يخبر تعالى عن اغترار المشركين بما هم فيه من الإشراك واعتذارهم محتجين بالقدر بقولهم ﴿ .. لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ...﴾ أى من البحائر والسوائب والوصائل وغير ذلك مما كانوا ابتدعوه واخترعوه من تلقاء أنفسهم ما لم ينزل به سلطانا .

---

(1) سورة الأنعام الآية ١٤٨ .   (2) سورة النحل الآية ٣٥ .

ومضمون كلامهم أنه لو كان تعالى كارهاً لما فعلناه لأنكره علينا بالعقوبة ولما مكننا منه .

قال الله تعالى راداً عليهم شبهتهم : ﴿ .. فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ أى ليس الأمر كما تزعمون أنه لم ينكره عليكم بل قد أنكره عليكم أشد الإنكار ، ونهاكم عنه آكد النهى ، وبعث فى كل أمة – أى فى كل قرن وطائفة من الناس – رسولاً ، وكلهم يدعون إلى عبادة الله ، وينهون عن عبادة ما سواه »[1] .

وفى موقف آخر حكى القرآن مقالة المشركين فى رفضهم الإنفاق وإطعام الفقراء ، محتجين بالقضاء والقدر ، فقال : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾[2] .

والمعنى أنهم رفضوا الإنفاق بحجة أن الله تعالى يريد لهؤلاء الفقر ، ولا يجوز أن يغنيهم الناس ، ولو شاء الله لأغناهم .

ووصف القرآن هذا الزعم بأنه ضلال واضح بيّن .

موقف المنافقين :

عقب غزوة أُحد دار الجدل طويلاً حول القضاء والقدر بين المسلمين والمنافقين ، وطرحت فيه اتجاهات متعددة سجلها القرآن المجيد فى قوله تعالى :

﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ

---

(١) تفسير ابن كثير ، ج ٢ ، ص ٥٦٨ .

(٢) سورة يس الآية : ٤٧ .

﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[1] .

ففي غزوة أحد ابتلى المؤمنون بلاء شديداً ، بسبب مخالفة الرماة لأمر الرسول ﷺ ، فتركوا مواقعهم التي يحمون منها ظهور المسلمين ، ونزلوا يجمعون الغنائم بعد فرار المشركين وهزيمتهم .

وبمجرد أن ترك الرماة مواقعهم تنبه المشركون ، وكروا على المسلمين ، فقتلوا منهم سبعين شهيداً وتفرق الجيش الإسلامي .

وأخذ الرسول ﷺ ينادي عليهم قائلا : إليّ عباد الله ، أنا رسول الله ، من كرّ فله الجنة .

وتراكم على المسلمين غم على غم ، غم الهزيمة ، وغم إشاعة أن الرسول قتل ؛ أو غم ما أصابهم عند الفشل والتنازع ، وغم ما وقع عليهم من الهزيمة ، أو غم ما فاتهم من الغنيمة ، وغم ما أصابهم من القتل .

وأيًا ما كان فإن الغموم تعاقبت عليهم ؛ ليصير ذلك زجراً لهم عن المعصية والمخالفة ، وتربية لنفوسهم ، ودفعاً لهم لتجاوز الواقع الأليم .

ثم بينت الآيات أن الناس يوم أحد كانوا فريقين :

– فريقاً آمن واستقر الإيمان في قلبه ، فهؤلاء أمنوا وجاءهم النعاس في وقت ما ولم يشعروا بخوف ليقينهم أن الله ناصر دينه .

– وفريقاً أهمتهم أنفسهم ولم يكن لهم من هدف إلا الغنيمة ، فلما غشي القوم ما غشيهم ونالهم الفزع الأكبر ، ظنوا بالله غير الحق ظن الجاهلية وحملوا الرسول مسئولية قتل من قتل ، بناء على أنه صلى الله عليه وسلم آثر الخروج من المدينة حتى وصل أحدا ، وكان رأيهم أن يظلوا بالمدينة مدافعين عنها لا يخرجون منها .

ومعنى قوله تعالى على لسان المنافقين : ﴿ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ﴾ أنه

---

(١) سورة آل عمران الآيتان : ١٥٣ ، ١٥٤ .

استفهام إنكارى يراد به هل لنا من أمر يطاع ؟

ونظيره قوله تعالى : ﴿ لو أطاعونا ما قتلوا ﴾ .

أو المعنى أين ما كان يعدنا به محمد من النصر والغلبة ؟

وللرد على هذا التساؤل بمعنييه جاء قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَو كُنتُم فى بيوتِكُم لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيهِم القَتلُ إلى مَضَاجِعِهِمْ ، وليَبتَلِى الله مَا فِى صُدُورِكم وليُمَحِّصَ مَافِى قُلُوبِكم ، والله عَلِيمٌ بِذاتِ الصُدُور ﴾ .

فالذين توهموا أن خروجهم إلى أحد عجل لهم الموت . ذكرهم القرآن المجيد أن الحذر لايدفع القدر ، وأن التدبير لايقاوم التقدير ، وأن الذين قدر الله عليهم القتل لابد أن يقتلوا فى مصارعهم التى علمها الله أزلاً ..

والذين توهموا أن هزيمة أحد تعنى أن الله تخلى عن رسوله ولم يؤيده - ذكرهم القرآن بأن الابتلاء قرين الإيمان ، وأنه ليس هناك جهاد بغير تضحيات ، وليس هناك معركة بغير شهداء ، وإنما هى إحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة ، كما قال الله تعالى : ﴿ إنْ يَمْسَسْكُم قَرْحٌ فَقَد مَسَّ القَومَ قَرْحٌ مِثْلُه وَتِلْكَ الأَيَامِ نُدَاوِلُها بَيْنَ النَّاس وَلِيَعْلَمَ الله الَّذِينَ آمَنوا وَيَتَّخِذَ مِنكُم شُهَدَاءَ وَالله لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾[1] .

وهكذا كانت غزوة أحد مثاراً للفكر والجدل حول مسألة الحرية الإنسانية أو القضاء والقدر ..

* * *

موقف الصحابة

جاءت روايات تفيد أن الصحابة - رضى الله عنهم - أفرادًا وجماعات تكلموا فى أمر القضاء والقدر ..

وعلى سبيل المثال فقد أخرج البخارى فى صحيحه بسنده أن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال :

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٤٠ .

أن الرسول ﷺ طرقه ، وفاطمة بنت النبى ﷺ ليلة فقال : ألا تصليان ؟

فقلت : يارسول الله أنفسنا بيد الله فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا .. فانصرف حين قلت ذلك ، ولم يرجع إلى شيئاً ثم سمعته وهو مول . يضرب فخذه وهو يقول : ﴿ وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيءٍ جَدَلاً ﴾ [1] .

لقد حرص الرسول الكريم على إيقاظ ابنته وزوجها لصلاة الليل حتى يتعرضا لنفحات الله ويحصلا على الثواب الجزيل الذى أعده الله للمستغفرين بالأسحار .

واعتذر على بن أبى طالب رضى الله عنه بالقدر وقال : يا رسول الله أنفسنا بيد الله فإذا شاء أن يبعثها بعثا .

وبمجرد أن سمع الرسول الكريم هذا الاعتذار لم يراجع علياً بشىء وإنما خرج متعجباً وهو يتذكر الآية الكريمة : ﴿ وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيءٍ جَدَلاً ﴾ .

وفى فقه هذا الحديث قال الإمام ابن حجر :

أنه ليس للإمام أن يشدد فى النوافل حيث قنع ﷺ بقول على – رضى الله عنه – : أنفسنا بيد الله ، لأنه كلام صحيح فى العذر عن التنفل ولو كان فرضاً ماعذره .

وأما ضربه فخذه وقراءته الآية فدال على أنه ظن أنه أحرجهم فندم على انباههم .

وقال النووى : المختار أنه ضرب فخذه تعجباً من سرعة جوابه وعدم موافقته له على الاعتذار بما اعتذر به والله أعلم »[2] .

وعن عبد الله بن عمرو – رضى الله عنهما – أن رسول الله ﷺ خرج على الصحابة وهم يتنازعون فى القدر ، هذا ينزع آية ، وهذا ينزع آية ، فكأنما فقئ فى وجهه حب الرمان فقال :

بهذا أمرتم – أو بهذا وكلتم – أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض ؟! انظروا

---

(١) سورة الكهف الآية . ٥٤ .

(٢) فتح البارى بشرح صحيح البخارى ج ٣ ، ص ١١ .

إلى ما أمرتم به فاتبعوه وما نهيتم عنه فاجتنبوه [رواه أحمد وابن ماجه] .

وفي موقف آخر تساءل الصحابة مع رسول الله ﷺ في أمر القدر ، وجاء في صحيح مسلم أن علي بن أبي طالب قال :

كنا في جنازة في بقيع الغرقد فأتانا رسول الله ﷺ فقعد وقعدنا حوله ومعه مخصرة فنكس فجعل ينكث بمخصرته [1] ، ثم قال : ما منكم من أحد ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة والنار ، وإلا وقد كتبت شقية أو سعيدة ، فقال رجل : يا رسول الله أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل ؟ فقال : من كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة ، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة ، اعملوا فكل ميسر ، أما أهل السعادة فميسرون لعمل أهل السعادة ، وأما أهل الشقاوة فميسرون لعمل أهل الشقاوة ثم قرأ :

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۞ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۞ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۞ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ [2] .

وتعدد تساؤل الصحابة في هذا الأمر ، فجاء سراقة بن مالك وقال : يا رسول الله بين لنا ديننا كأنا خلقنا الآن ، فيما العمل اليوم أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير أم فيما نستقبل ؟

وقال رجل : يا رسول الله أعلم أهل الجنة من أهل النار ؟ قال : نعم قال : ففيم يعمل العاملون ؟

وجاء رجلان من مزينة فقالا : يا رسول الله أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه أشيء قضي عليه ومضى فيهم من قدر قد سبق أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم وثبتت الحجة عليهم ؟

وكانت إجابة رسول الله ﷺ في كل هذه الأحوال :

---

(١) المخصرة – بكسر الميم – ما أخذه الإنسان بيده واختصره من عصا صغيرة وعكاز صغير وغيرهما ، ونكس – بتخفيف الكاف وتشديدها – لغتان فصيحتان . أي خفض رأسه ، وتنكث أي خط خطاً يسيراً مرة بعد مرة .

(٢) سورة الليل الآيات : ٥ – ١٠ .

« اعملوا فكل ميسر لما خلق له »[1] .

ومع كل هذه التساؤلات والمناقشات لم يكن الموقف يمثل ظاهرة فكرية قلقة ولا اتجاهاً دينياً متحزباً ، وانتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى والأمة مجتمعة على صفاء الفهم لكتاب الله وسنة رسوله .

ثم قامت الخلافة الراشدة وبدأت بوادر الخلافات السياسية في عهد عثمان رضى الله عنه ، ودهم الأمة ما دهمها ، فقتل الخليفة ، وامتشق الحسام ، وانقسم المسلمون ووقعت حروب الفتنة الكبرى بين على بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان ، ونشأت أحزاب سياسية ما لبثت أن تحولت إلى فرق دينية بعدما قامت الدولة الأموية ، فكان الشيعة والخوارج والمرجئة والجبرية والقدرية والمعتزلة .. وتدخل القدر في صياغة فكر هذه الفرق وتبلور لكل منها فهم خاص فيه .

* * *

---

(١) راجع الروايات فى صحيح مسلم بشرح النووى ، ج ١٦ ، ص ١٨٩ - ٢٠٧ .

نظرة مذهبية

محل النزاع :

قضية القدر في مجملها ذات أفقين :

- أفق العلم الإلهي .
- أفق التكليف الإنساني .

حرص البعض على الأفق الأول وغالى فيه حتى نسي صحة التكليف وحتمية المسئولية ، وجنح البعض إلى الأفق الثاني وركز عليه حتى غفل عن ضرورة إثبات الكمال المطلق لله عز وجل في تصريف الكون والكائنات .

وتبلورت الاتجاهات الفكرية في هذه المذاهب :

الجبرية - القدرية الأولى - المعتزلة - الأشاعرة .

ولا خلاف بين المسلمين قاطبة أن النواميس الكونية في السماء والأرض كلها مخلوقة لله تعالى سبقت بها إرادته وعلمه .

وكذلك فإن الأفعال الاضطرارية للإنسان كنبض قلبه وحركة أمعائه وما قد يدهمه ويقع عليه بلا إرادة منه ولا قدرة معه - هي من تقدير الله وخلقه .

ولا تكليف على الإنسان في هذين النوعين ، ولا مسئولية عليه حيالهما ، ولا يمدح أو يذم بسببهما .

ومحل النزاع هو أفعال الإنسان الاختيارية والتي تنشأ عن إرادة من العبد وتصحبها قدرة منه عليها ، والتي هي الأمر والنهي في التشريعات الإلهية ، هنا نشأ الخلاف ، واحتدم الجدل وتنازعت الفرق وتعددت .

الجبرية :

فمن فرق الجبرية أصحاب جهم بن صفوان ، قال عنه الشهرستاني :

هو من الجبرية الخالصة ظهرت بدعته بترمذ ، وقتله مسلم بن أحوز المازني بمرو في آخر ملك بني أمية .

ورأيه في موضوعنا : أن الإنسان لا يقدر على شيء ولا يوصف بالاستطاعة وإنما هو مجبور فى أفعاله ، لا قدرة له ولا إرادة ولا اختيار ، وإنما يخلق الله تعالى الأفعال فيه على حسب ما يخلق فى سائر الجمادات ، وتنسب إليه الأفعال مجازاً كما تنسب إلى الجمادات ، كما يقال : أثمرت الشجرة ، وجرى الماء ، وتحرك الحجر ، وطلعت الشمس وغربت ، وتغيمت السماء وأمطرت ، واهتزت الأرض وأنبتت .. إلى غير ذلك .

والثواب والعقاب جبر كما أن الأفعال كلها جبر ، وإذا ثبت الجبر فالتكليف أيضاً كان جبراً »[1] .

* * *

القدرية :

وفي مقابل الجبرية جاء معبد بن خالد الجهني وقال : لا قدر والأمر أنف ، وهو أول من قال بالقدر في البصرة كما روى مسلم في صحيحه عن يحيى بن يعمر[2] .

وساق الإمام اللالكائي روايات منها :

* عن عثمان بن عبد الله قال : أول من تكلم في شأن القدر أبو الأسود الديلي .

* عن الحسن بن محمد قال : أول من تكلم في القدر حين أحرقت الكعبة (٦٤هـ) :

قال قائل : كان هذا من قضاء الله أن أحترقت الكعبة .
وقال آخر : ما كان هذا من قضاء الله .

* عن ابن عون قال : أدركت الناس وما يتكلمون إلا في علي وعثمان حتى نشأ ههنا حقير يقال له : سنسويه البقال فكان أول من تكلم في القدر .

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني - تحقيق سيد كيلاني ج ١ ، ص ٨٧ ، طبعة الحلبي .
(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ج ١ ، ص ١٥٠ .

* عن يونس بن عبيد قال : أدركت البصرة وما بها قدرى إلا سنسويه ومعبد الجهنى وآخر ملعون فى بنى عوافة .

* قال الأوزعى : أول من نطق بالقدر رجل من أهل العراق يقال له : سوسن كان نصرانياً فأسلم ، ثم تنصر فأخذ عنه معبد الجهنى وأخذ غيلان عن معبد[1] .

وأياً ما كان فإن مقالة معبد الجنهى : « لا قدر والأمر أنف » تعنى إنكار علم الله تعالى السابق بالحوادث ، وتنفى تقديره سبحانه للأمور وإرادته لها ، وتضيف الأفعال للإنسان نفسه فهو موجدها والمسئول عنها .

ومذهب القدرية الأولى فيه جفاء وإهدار لجلال الله وكماله وإعلاء من شأن الإنسان وكأنه وحده فى هذا الكون يتصرف فيه بطلاقة كاملة وحرية مطلقة ، ولهذا لم يتيسر الانتشار للمذهب ولم يسد بعد أصحابه الأول .

* * *

المعتزلة :

جاء المعتزلة وخففوا الوطأ ، فأثبتوا العلم الأزلى الشامل لله تعالى والقدرة المطلقة له جل شأنه وأن العبد بقدراته مخلوق لله ، قد منحه الله الاستطاعة ، فأفعال العباد غير مخلوقة لله فيهم ، والإنسان هو المحدث لها بما منحه الله من القدرة وأسبابها .

وشرح القاضى عبد الجبار هذه العبارة فقال :

والذى يدل على ذلك أن نفصل بين المحسن والمسىء ، وبين حسن الوجه وقبيحه ، فنحمد المحسن على إحسانه ، ونذم المسىء على إساءته ، ولا تجوز هذه الطريقة فى حسن الوجه وقبيحه ، ولا فى طول القامة وقصرها ، حتى لا يحسن منا أن نقول للطويل : لم طالت قامتك؟ ولا للقصير : لم قصرت ؟

---

(١) راجع الروايات فى شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للإمام أبى القاسم هبة الله بن الحسن ابن منصور الطبرى اللالكائى (ت ٤١٨ هـ) تحقيق د. أحمد سعد حمدان ج ٤ ، ص ٧٤٦ - ٧٥٠ ، طبعة دار طيبة بالرياض .

كما يحسن أن نقول للظالم : لم ظلمت ؟ وللكاذب : لم كذبت ؟

فلولا أن أحدهما متعلق بنا وموجود من جهتنا بخلاف الآخر ، وإلا لما وجب هذا الفصل ، ولكان الحال في طول القامة وقصرها كالحال فى الظلم والكذب ، وقد عرف فساده .

وساق القاضى عبد الجبار اعتراضاً :

فإن قالوا : لا يمكنكم أن تستدلوا بهذه الطريقة على أن هذه الأفعال متعلقة بكم فإنكم تحمدون الله تعالى على الإيمان ، وإن كان الإيمان من فعلكم ومتعلقاً بكم ، وكذلك فإنكم تذمون أحدنا على الإماتة والغرق والحرق وغير ذلك مع أن شيئاً من ذلك لا يتعلق به .

ثم أجاب القاضى قائلاً :

أما الأول فليس ما تظنونه لأنا لا نحمد الله تعالى على الإيمان نفسه ، وإنما نحمده على مقدماته من الإقدار والتمكين وإزاحة العلة بأنواع الألطاف وذلك موجود من قبله ومتعلق به فلا يلزم .

ولهذا قال بعض أصحابنا حين أورد بعضهم هذا السؤال عليه بحضرة بعض الأكابر فقال : فإنا لا نحمد الله تعالى على ذلك وإنما الله يحمدنا عليه [١] ، فانقطع السائل .

فقال المسئول : شنعت المسألة فسهلت .

أما ما ذكرته ثانياً فليس كذلك أيضاً لأنا لا نذم أحدنا عى الإماتة والغرق والحرق وإنما ذممناه على مقدمات ذلك ، ألا ترى أن من وضع صبياً تحت برد ليموت فإن ذمنا إياه ليس على الإماتة وإنما هو على إلقائه أو وضعه تحت البرد ، وكذلك من ألقى صبياً في تنور ليحرقه الله تعالى فإنا لا نذمه على الإحراق الموجود من قِبل الله تعالى ، وإنما نذمه على تقريبه من جهة النار وإلقائه فيها [٢] .

---

(١) حمد الله لنا بمعنى ثوابه وعطائه .

(٢) شرح الأصول الخمسة للقاضى عبد الجبار ، تحقيق د. عبد الكريم عثمان ص ٣٣٣ ، طبعة مكتبة وهبة .

الأشاعرة :

خرج من عباءة المعتزلة أبو الحسن الأشعرى لينادى بكسب الإنسان فى عمله الاختيارى ويبطل ما ذهب إليه المعتزلة من مسألة خلق الإنسان لعمله أو إحداثه له فقال :

وإرادته تعالى واحدة قديمة أزلية متعلقة بجميع المرادات من أفعاله الخاصة ، وأفعال عباده من حيث إنها مخلوقة له ، لا من حيث إنها مكتسبة لهم .

فعن هذا قال : أراد الجميع خيرها وشرها ونفعها وضرها ، وكما أراد وعلم أراد من العباد ما علم ، وأمر القلم حتى كتب فى اللوح المحفوظ ، فذلك حكمه وقضاؤه وقدره الذى لا يتغير ولا يتبدل ، وخلاف المعلوم مقدور الجنس محال الوقوع [1] .

وقد اشتهر بين العلماء خفاء معنى الكسب المراد عند الأشعرى حتى قيل : أخفى من كسب الأشعرى !!

لأن ما ورد فى شأن تعريفه لا يكاد يحل المشكلة ، فالكسب - كما قيل - هو مقارنة قدرة العبد الحادثة للفعل مع قدرة الله تعالى من غير صحة انفراد أو تأثير لهذه القدرة الحادثة .

ويقول الإمام السنوسى شرحاً لهذا المعنى :

لا تأثير لقدرتنا فى شىء من أفعالنا الاختيارية كحركاتنا وسكناتنا ، وقيامنا وقعودنا ومشينا ونحوها، بل جميع ذلك مخلوق لمولانا جل وعز ، بلا واسطة ، وقدرتنا أيضاً مثل ذلك عرض مخلوق لمولانا جل وعز ، تقارن تلك الأفعال الاختيارية ، وتتعلق بها من غير تأثير لها فى شىء من ذلك أصلاً .

وإنما أجرى الله تعالى العادة أن يخلق عند تلك القدرة ، لا بها ، ما شاء من الأفعال ، وجعل الله سبحانه وجود تلك القدرة مقارنة للفعل شرطاً فى وجوب التكليف .

وهذا الاقتران والتعلق لهذه القدرة الحادثة بتلك الأفعال من غير تأثير لها أصلاً

---

(١) الملل والنحل لشهرستانى ج ١ ، ص ٩٦ .

هو المسمى في الاصطلاح وفي الشرع بالكسب والاكتساب ، وبحسبه تضاف الأفعال إلى العباد كقوله تعالى : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ .

وأما الاختراع والإيجاد فهو من خواص مولانا جل وعز ، لا يشاركه فيه شيء سواه تبارك وتعالى ، ويسمى العبد عند خلق الله تعالى فيه هذه القدرة المقارنة للفعل مختاراً ، وعندما يخلق تعالى فيه الفعل مجرداً عن مقارنة تلك القدرة الحادثة - يسمى - مجبوراً ومضطراً كالمرتعش مثلاً .. » [1] .

* * *

(١) حاشية الدسوقي على شرح العقيدة الصغرى ، ص ١٦٤ ، طبعة سنة ١٣٠٥ هـ .

جدل مذهبى

احتدم الجدل بين المعتزلة والأشاعرة فى مسألة أفعال العباد ، وذهب كل فريق يجادل عن نفسه .

فالقاضى عبد الجبار رأى أن مذهب الكسب لا يعقل ولا يتصور معه استحقاق المدح والذم للمكلف ، ويوجب قبح بعثة الرسول وبطلان الشرائع ، ويلزم منه الظلم والقبيح فى حق الله تعالى عن ذلك علواً كبيراً ، وساق القاضى أمثلة على ذلك منها :

ويلزمهم أن لا يثبت لرسل الله تعالى حجة على الكفرة ، لأن للكافر أن يقول : إن كنت رسولاً فلا أقل من أن تكون رسالتك موافقة لمراد المرسل ، فكيف تدعونا إلى الإسلام ومن أرسلك إلينا أراد منا الكفر وخلقه وجعلنا بحيث لا يمكننا الانفكاك عنه ؟

ويلزم انقطاع الرسل من وجه آخر وهو أن يقال لهم : إلى ماذا تدعونا إليه ؟

فإن كنتم تدعونا إلى ما خلقه الله تعالى فينا ، فإن ذلك مما لا فائدة فيه ، وإن كنتم تدعونا إلى ما لم يخلقه الله تعالى فينا فذلك مما لا نطيقه ولا نتمكن منه .

ويلزمهم التسوية بين الرسول وبين إبليس ، لأن الرسول يدعوهم إلى خلاف ما أراد الله تعالى منهم ، كما أن أبليس يدعوهم إلى ذلك ، بل يلزمهم أن يكون حال الرسول أسوأ من حال إبليس ، لأن إبليس إنما يدعوهم إلى خلافه [1] ، وكل مذهب يقتضى ذلك ويؤدى إليه فكافيك به فساداً .

ويلزمهم أيضاً قبح الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، لأن الأمر لا يخلو : إما أن يكون أمراً بالواقع وذلك قبيح ويجرى فى القبح مجرى أمر المرمى من شاهق بالنزول .

وإن كان أمراً بما لا يقع فإن المأمور غير قادر عليه عندهم لقولهم بالقدرة الموجبة فيكون الأمر به أمراً بما لا يطاق ، وتكليف ما لا يطاق قبيح .

---

(١) العبارة فيها نظر ، ولعلها : إلى مراد الله منهم فى الكفر والضلال .

وهكذا الكلام في النهي عن المنكر ، لأنه إن كان نهياً عن الواقع فإن ذلك قبيح ، ولا فائدة فيه ، وإن كان نهياً عما لم يقع فإن ذلك نهى عما لم يقدر عليه ، وذلك قبيح أيضاً ، ويجرى في القبيح مجرى نهى الزمن عن العدو[١] .

ثم أورد القاضي عبد الجبار آيات قرآنية عدها موافقة لأدلة العقل ، ومقررة لأن الله تعالى لا يخلق أفعال العباد مثل :

١ - قوله تعالى : ﴿ .. مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ ...﴾[٢] .

نفي الله التفاوت عن حلقه ، فلا يخلو : إما أن يكون المراد بالتفاوت مس جهة الخلقة أو من جهة الحكمة ، لا يجوز أن يكون المراد به التفاوت من جهة الخلقة ، لأن في خلقة المخلوقات من التفاوت ما لا يخفى ، فليس إلا أن المراد به التفاوت من جهة الحكمة على ما قلناه ، إذا ثبت هذا لم يصح في أفعال العباد أن تكون من جهة الله تعالى لاشتمالها على التفاوت وغيره .

٢ - قوله تعالى : ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾[٣] .

وقد قرىء « خلقه » (بتسكين اللام) وكلا القراءتين تدل على أن أفعال العباد غير مخلوقة فيهم ، ووجه الاستدلال به أنه لا يخلو إما أن يكون المراد به أن جميع ما فعله الله تعالى فهو إحسان أو المراد به أن جميعه حسس ، لا يجوز أن يكون المراد به الإحسان لأن في أفعاله تعالى ما لا يكون إحساناً كالعقاب ، فليس إلا المراد به الحسن على ما نقوله .

إذا ثبت هذا ، ومعلوم أن أفعال العباد تشتمل على الحسن والقبيح ، فلا يجوز أن تكون مضافة إلى الله تعالى .

٣ - قوله تعالى : ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾[٤] .

يبين الله تعالى أن أفعاله كلها متقنة ، والإتقان يتضمن الإحكام والحسن جميعاً

---

(١) شرح الأصول الخمسة - تحقيق د. عبد الكريم عثمان ص ٣٣٤ ، ٣٣٥ - طبعة مكتبة وهبة .

(٢) سورة الملك الآية ٠ ٣ .

(٣) سورة السجدة الآية : ٧

(٤) سورة النمل الآية : ٨٨ .

حتى لو كان محكماً ولا يكون حسناً لكان لا يوصف بالإتقان ، ألا ترى أن أحدنا لو تكلم بكلام فصيح يشتمل على الفحش والخنا فإنه وإن وصف بالإحكام لا يوصف بالإتقان .

إذا ثبت هذا ومعلوم أن في أفعال العباد ما يشتمل على التهود والتنصر والتمجس فلا يجوز أن يكون الله تعالى خالقاً لها .

٤ – قوله تعالى : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ... ﴾ [١] .

أورد ذلك متعجباً منهم في الكفر مع ما له عز وجل عليهم من النعم ، ولو كان – كما قالوه لم يكن للاستعجاب موضع ولكان بمنزلة قوله : كيف تسودون وقد أنعمت عليكم وفعلت وصنعت ، فكما أن ذلك مما لا وجه له لما لم يكن الاسوداد متعلقاً بهم ، وموقوفاً على اختيارهم ، كذلك في مسألتنا .

على أن مع هذا المذهب لا يثبت لله تعالى نعمة على الكفار ، لا نعمة الدين ولا نعمة الدنيا ، أما نعمة الدين فلا إشكال فيه ، لأنه قد خلق فيهم الكفر والقدرة الموجبة له والإرادة الموجبة له ، وسلبهم الإيمان وقدرته وإرادته ، وجعلهم من الأشقياء فكيف يثبت له عليهم نعمة ؟!

وأما نعمة الدنيا فلأن هذه المنافع وإن كانت تصل إليهم في الحال فإنها من حيث توصلهم إلى النار الأبد والعقاب السرمد بمنزلة الخبيص [٢] المسموم الذي يؤدي إلى الهلاك ، فكما أن من قدمه إلى غيره لا يكون منعماً بذلك عليه ، كذلك في هذا الموضع .

٥ – قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم فَمِنكُم كَافِر وَمِنكُم مُؤْمِن ﴾ [٣] .

أورد الآية على وجه التوبيخ وذلك لا يحسن إلا بعد احتياج الكفر والإيمان إلينا وتعلقهما بنا ، وإلا كان ذلك بمنزلة أن يوبخ أحدنا على طول قامته وقصرها ، فيقال : قد أنعمنا عليك وصنعنا بك وفعلنا فقصرت قامتك أو طالت .

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٨ .
(٢) لون من الطعام شهي .
(٣) سورة التغابن الآية ٢ .

٦ – قوله تعالى وتنزه وتقدس : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِن وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُون ﴾ [(١)] .

وهذا يدل على أن الله تعالى لا يريد من العباد إلا العبادة والطاعة ، لأن هذه اللام لام الغرض ، الذى يسميه أهل اللغة : لام كى ، بدليل أنهم لا يفصلون بين قول القائل : دخلت بغداد لطلب العلم ، وبين قوله : دخلت وغرضى طلب العلم .

ويدل أيضاً على أن هذه الأفعال محدثة من جهتنا ومتعلقة بنا وإلا كان لا معنى لهذا الكلام [(٢)] .

وقد رد الأشاعرة على هذا الاتجاه الاعتزالى ، وقال الإمام التفتازانى فى مقاصده :

وللمعتزلة فيها تأويلات فاسدة وتعسفات باردة يتعجب منها الناظر ويتحقق أنهم فيها محجوجون ، وبوهقها مخنوقون ، ولظهور الحق فى هذه المسألة يكاد عامتهم به يعترفون ، ويجرى على ألسنتهم أن ما لم يشأ الله لا يكون .

وبدأ الإمام التفتازانى يعلق على كثير من استدلالات المعتزلة ويسوق مجموعة اتجاهات تمثل الفكر الأشعرى هى :

١ – لا قبح من الله تعالى ، غاية الأمر أنه يخفى علينا وجه حسنه .

٢ – لا ظلم من الله تعالى لعباده عندما يعاقبهم على الكفر والمعاصى لأنه تصرف فى ملكه .

٣ – لا سفه فى أمر الله تعالى بما لا يريده إذ ربما لا يكون غرض الآمر الإتيان بالمأمور به ، كالسيد إذا أمر العبد امتحاناً له هل يطيعه أم لا ؟ فإنه لا يريد شيئاً من الطاعة والعصيان ، أو اعتذاراً عن ضربه بأنه لا يطيعه فإنه يريد منه العصيان ، وكالمكره على الأمر بنهب أمواله ، وكذا فإن قيل : مأمور السلطان يبادر إلى المأمور به معللاً بأنه مراد السلطان . قلنا : لا مطلقاً بل إذا ظهر أمارة الإرادة ، وإنما يعلل مطلقاً بالأمر والإشارة والحكم .

٤ – ليس وجود الكفر تبعاً لإرادة الله من العبد يكون طاعة ، فالطاعة هى موافقة الأمر وليس موافقة الإرادة .

---

(١) سورة الذاريات الآية ٥٦ .

(٢) شرح الأصول الخمسة من ص ٣٥٥ – ٣٦٣ بتصرف .

٥ - لا يلزم من وقوع الكفر بإرادة الله وقدرته الرضا به ، لأن الكفر مقضى ، والواجب هو الرضا بالقضاء وليس بالمقضى .

٦ - هناك فرق بين الإرادة من جهة وبين الأمر والرضا والمحبة من جهة أخرى ، فالله تعالى يريد الكفر ولا يأمر به ولا يرضى عنه ولا يحبه بل يعاقب عليه .

٧ - أفعال الله تعالى لا تعلل بغرض .

ومن طريف ما يروى أن القاضى عبد الجبار دخل داراً للصاحب ابن عباد فرأى الأستاذ أبا إسحق الاسفراينى فقال :

سبحان من تنزه عن الفحشاء .

فقال الأستاذ على الفور : سبحان من لا يجرى فى ملكه إلا ما يشاء[1] .

* * *

(١) راجع شرح المقاصد للعلامة سعد الدين عمر التفتازانى ، ج ٢ ، ص ١٠٧ - ١٠٩ ، طبعة سنة ١٢٧٧ هـ بتصرف .

بعيداً عن المذاهب

نحن نعتقد أن الحق أكبر من أن يستوعبه مذهب واحد بعينه وأن الذين يتعصبون لأى مذهب بأجمعه إما عامة أو أنصاف علماء .

وبالتالى فلا ندعى العصمة المطلقة لإمام من الأئمة ، فكل إنسان يوخذ منه ويرد عليه إلا صاحب الروضة الشريفة .

ونحسب أن العلماء - بمراعاة الوصف - مخلصون فى اجتهادهم ، وليس واحد منهم يبتغى الفتنة وإنما مرادهم جميعاً الوصول إلى الحق ، فمنهم من يصل ، ومنهم من يشارف ، ومنهم من ينأى به السبيل .

الجبر مرفوض :

حولتنا بين المذاهب فى مسألة القضاء والقدر - تجعلنا نرفض مذهب الجبر رفضاً تاماً ، فإن هناك فرقاً واضحاً جلياً بين الإنسان والحيوان ، وهذا الفرق بداهة هو العقل الذى كرم الله به بنى آدم ، وعليه مدار التكليف وإذا سلب ما وهب سقط ما وجب ، فالمجنون ومن على شاكلته غير مطالب بالأمر والنهى شرعاً .

كما أن هناك تفرقة ضرورية بين الفعل الاختيارى والفعل الاضطرارى ، فحركة الساعى إلى الصلاة اختيارية ، وحركة المرتعش اضطرارية ، والمنتحر مختار ، ومن قتل رغم أنفه مضطر .

وهذه التفرقة ثابتة شرعاً ، فالساعى إلى الصلاة مثاب ، والمنتحر معاقب ، ولا حرج على المريض ، ومن قتل حتف أنفه قد يكون شهيداً .. وبالتالى فالإنسان مكلف بفعله الاختيارى فقط ولا تكليف عليه عند الاضطرار .

والعقل والاختيار هما أساس المسئولية الشرعية ، وهذا الأساس تقوم عليه حرية الإنسان فى الفعل والترك ، ويصدق فيه قول الله عز وجل : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُم فَمَن شَاءَ فَلْيؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُر﴾ [1] .

---

(١) سورة الكهف الآية : ٢٩ .

وقوله : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [1] .

الأمر مقدور :

نحن نرفض قضية أن الأمر أنف بقدر ما نرفض الجبر ، فإن علم الله تعالى لا يعزب عنه شيء ، مصداقًا لقوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [2] .

وعلم الله تعالى محيط شامل غير مكتسب ، ولا يسبقه خفاء ، ولا يعتريه جهل ، ولا يلحقه تخلف ، ومع ذلك فهو انكشاف لا تأثير ، فلا يلزم من العلم الأزلى حمل الله الناس على هذا العلم فى مجال التكليف وإلا أصبح إلجاء .

فمقتضى الانكشاف كما يليق بجلال الله وكماله أنه لا يتخلف من حيث هو انكشاف تام لا من حيث إنه حمل على المراد أو المعلوم .

وقضية ربط القدرة الإلهية بالإرادة والعلم إنما هى فى مجال الكون العام والكائنات المسخرة للإنسان والأفعال الاضطرارية الخارجة عن التكليف الشرعى ... ولهذا جاء قوله تعالى : ﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [3] .

فالأمر بالعبادة مرتب على إبداع الله الكائنات كلها وتسخيرها لبنى الإنسان ، فالعبادة خارجة عن نطاق الكلية فى قوله : خالق كل شىء .. وإلا ما صح التعبير ولما جاز الأمر .

والكلية تكون بحسب السياق وليس كل كلية تكون عامة مطلقة ، فعندما قال

---

(١) سورة الزلزلة الآيتان : ٧ ، ٨ .
(٢) سورة الأنعام الآية : ٥٩ .
(٣) سورة الأنعام الآيتان : ١٠١ ، ١٠٢ .

الله تعالى في حق ملكة سبأ على لسان الهدهد : ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾[1] .

كان المراد من كل شيء يحتاجه الملوك ، وليس كل شيء على الإطلاق كالحشرات والنباتات والحيوانات والأحجار والكواكب وهلم جرا .

وكذا في قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾[2] .

ليس المراد كل سفينة تمر وإلا ما خرق السفينة لينقذها من غصب الملك ، بل المراد كل سفينة صالحة ، وحذف ما يعلم جائز .

مسير ومخير :

إن أفعال الله تعالى مبنية على الحكمة ، والكون كله قائم على تدبير حكيم ، وقد كتب الله على نفسه الرحمة ، ولم يخلق الكون عبثاً أو باطلاً .

والإنسان وسط هذا الكون ليس مطلق السراح ، يهيمن على الوجود ويسيطر على الكائنات ، بل هو محكوم بنواميس ثابتة حوله تحيط به وتقع عليه ، ويسير فى فلكها ، فالليل والنهار ، والصيف والشتاء ، والصحة والمرض ، وطول العمر وقصره ، وأجهزة بدنه وأعضاء جسمه الداخلية والخارجية ، كلها مخلوقة لله ، مسيرة بإرادته ، واقعة بقدرته ، لا ينفك عنها الإنسان .

وجميع هذه الأمور ليس يكلف بها الإنسان ، ولن يحاسب عليها ، ولا يعتريه مدح أو ذم بسببها ، فهى خارجة عن نطاق المسئولية الإنسانية .

أما التكليف والأمر والنهى ، والشرائع والأحكام فهى وحدها التى يقف الإنسان حيالها مختاراً يفعل ما يشاء بما منحه الله من طاقات ، وما هيأ له من أسباب ، وما مكن له من قوى ، وقد أراد الله تعالى للإنسان هذا الموقف ، وكلفه على هذا الأساس ، وفى كلا الحالين أمام التكليف الشرعى بالإيمان أو الكفر ، والطاعة أو المعصية لا يخرج عن المراد ، لأن الله تعالى قد منحه الحرية ، ولو شاء الله سلبها منه ما منعه أحد ، لكنه جل شأنه لم يشأ للإنسان الجبر .

---

(١) سورة النمل الآية : ٢٣ .

(٢) سورة الكهف الآية · ٧٩ .

ومن هنا نفهم آيات كثيرة فى القرآن المجيد مثل :

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (1) .

﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (2) .

الكونى والشرعى :

يجب أن نفرق بين الكونى والشرعى فى القضاء والإرادة والأمر والكتاب ، والحكم والتحريم ... إلخ . فالكونى : هو السنن الإلهية التى تنظم الكون وتدبر أمور الكائنات ، وتجعل الحياة فى تناسق واطراد وإحكام من خلال الهيمنة الإلهية والسلطان المطلق لله تعالى .

والشرعى : هو ما يتعلق بالصلة بين المخلوق والخالق فى إطار العبادة والتكليف والمسئولية ، وهو ما أشار إليه قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (3) ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً » فنحن مطالبون بالشرعى وليس بالكونى فإنه خارج عن التكليف للإنسان .

وقد ساق شارح العقيدة الطحاوية ألواناً من بيان القرآن فى هذا المجال (4) ، نوردها ونوضحها كما يلى :

١ – القضاء الكونى فى قوله تعالى : ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ (5) فالله تعالى قضى السموات فى يومين : أى خلقها وأحكم صنعها ، وهذا القضاء الكونى لا يسأل عنه الإنسان ولا يحاسب عليه .

---

(1) سورة يونس الآية : ٩٩ .

(2) سورة الإنسان الآية ٣٠ .

(3) سورة الذاريات الآية ٥٦ .

(4) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبى العز الدمشقى ص ٥٠٥ – طبعة المكتب الإسلامى .

(5) سورة فصلت الآية ١٢ .

أما القضاء الشرعى ففى قوله تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَن لَا تَعبدُواْ إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ [1] ، فالقضاء هنا بمعنى الأمر ويطالب به الإنسان ويحاسب على موقفه حيال إفراد الله بالعبادة ثواباً على الإيمان وعقاباً على الكفر .

٢ - الإرادة الكونية فى قوله سبحانه : ﴿ .. فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ .. ﴾ [2] .

فهذه الإرادة محض تصرف إلهى فى تدبير شئون عباده ، ولن يحاسب امرؤ على بلوغ اليتيمين الرشد واستخراج الكنز .

أما الإرادة الشرعية ففى مثل قوله جل شأنه : ﴿ .. يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ...﴾ [3] .

فيسر التشريع فى أحكام الصيام حين أباح الله الفطر للمريض والمسافر ، هو إرادة شرعية يحاسب المرء على مدى التزامه بالحكم وقبوله له .

٣ - الأمر الكونى فى مثل قوله جل شأنه : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [4] .

فهذا أمر يتعلق بتدبير الله الكائنات ، وسرعة استجابتها لتصريفه وفعله ، ووقوعها تحت قبضته وسلطانه ، ولن يطالب إنسان بهذا الأمر الكونى ، ولن يحاسب على خلق الله وتدبيره فى نطاق الملك والملكوت .

أما الأمر الشرعى فى مثل قوله سبحانه : ﴿ إن اللَّه يَأْمُرُ بِالْعَدلِ والإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَى ﴾ [5] فالإنسان مطالب به ومحاسب على مدى التزامه بالعدل والإحسان ، وصلة ذوى القربى .

٤ - الإذن الكونى فى قوله تعالى : ﴿ .. وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ... ﴾ [6] .

---

(١) سورة الإسراء الآية ٢٣ .
(٢) سورة الكهف الآية ٨٢ .
(٣) سورة البقرة الآية ١٨٥ .
(٤) سورة يس الآية ٨٢ .
(٥) سورة النحل الآية ٩٠ .
(٦) سورة البقرة الآية ١٠٢ .

فالسحر وأعمال الشر لا تضر من تلقاء نفسها ، ولا بإرادة مرتكبيها ، وإنما إذا صادفت الإذن الإلهى سرى مفعولها ، وإذا لم يكن هناك إذن إلهى فلا قيمة لها ولا أثر منها .

فالخير والشر فى الوجود ، والنفع والضر من الكائنات مرهون بإذن الله ، ولا يملك أحد التصرف فى هذا الكون ما لم يتعلق بذلك إدن الله .

أما الإذن الشرعى ففى مثل قوله تعالى : ﴿ **مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِىَ الْفَاسِقِينَ** ﴾ (١) .

فقطع نخيل الأعداء أو تركه فى غزوة بنى النضير كان إذناً شرعياً ، وأمراً إلهياً تكليفياً ليخزى الفاسقين ويتحقق به النصر للمؤمنين .

لقد حاصر المسلمون يهود بنى النضير فتحصنوا بقلاعهم وتنادوا بالحرب وظاهرهم المنافقون ، فأمر الرسول ﷺ بإحراق نخيلهم فقالوا : يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد فى الأرض فما بال قطع النخيل وتحريقه ؟ وكان فى أنفس المؤمنين من ذلك شىء .

فنزلت هذه الآية لترفع الحرج عن المؤمنين وتضاعف الحسرة على الكافرين .

٥ – الكتابة الكونية فى قوله تعالى : ﴿ **كَتَبَ رَبُّكُم عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَة** ﴾ (٢) .

فالكتابة هنا شأن الله وحده ، لا علاقة للإنسان بها ، فرحمة الله وسعت كل شىء ، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء وهو سبحانه الرحمن الرحيم .

أما الكتابة الشرعية ففى مثل قوله سبحانه : ﴿ **وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ ...** ﴾ (٣) .

فهذه كتابة تتعلق بالحدود الواجب تطبيقها فى العقوبات ، وسيحاسب المرء على مدى التزامه بها وتطبيقه لها ، فإن أحسن فهو المؤمن وإن أساء وبدل فهو الكافر أو الفاسق أو الظالم .

---

(١) سورة الحشر الآية ٥ .
(٢) سورة الأنعام الآية ١٢ .
(٣) سورة المائدة الآية ٤٥ .

٦ – الحكم الكونى فى قوله تعالى : ﴿ .. فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِى أَبِى أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِى وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾[1] .

لقد فوض كبير إخوة يوسف أمره إلى الله فى هذا المأزق الذى وقع فيه حين تبين له سرقة أخيه ولم يستطع أن يدفع عنه شيئاً .

أما الحكم الشرعى ففى قوله تعالى : ﴿ .. أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾[2] .

فالله تعالى يشرع لعباده ما يشاء ، ويحرم ويحلل ما يريد ، وما على الإنسان إلا الالتزام والتسليم لهذا الحكم الشرعى .

٧ – التحريم الكونى فى قوله تعالى : ﴿ وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾[3] .

فالقرى التى أهلكها الله بذنوبهم لا يرجع أهلها إلى الدنيا ، لا لعمارتها ولا لإصلاح ما فسد من أعمالهم ، فذلك ممتنع مستحيل ، ولن يحاسب امرؤ على رجوع هؤلاء أو عدم رجوعهم فتلك إرادة الله .

أما التحريم الشرعى ، ففى قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ ...﴾[4] .

فيمتنع شرعاً على الإنسان أن يأكل الميتة والدم ولحم الخنزير ، ومن استجاب والتزم فله الثواب ، ومن تمرد وأبى فعليه العقاب .

٨ – الكلمات الكونية فى قوله تعالى : ﴿ .. وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِى إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ...﴾[5] .

---

(١) سورة يوسف الآية ٨٠

(٢) سورة المائدة الآية ١ .

(٣) سورة الأنبياء الآية ٩٥ .

(٤) سورة المائدة الآية ٣ .

(٥) سورة الأعراف الآية ١٢٧ .

فالكلمة هنا تتعلق بإرادة الله التمكين لبنى إسرائيل لما صبروا وآمنوا ، ولا يترتب على التمكين لهؤلاء ثواب أو عقاب لبشر ، ولن يحاسب أحد ويسأل لماذا مكن لهم أو لم يمكن .

أما الكلمات الشرعية ففى قوله تعالى : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ... ﴾(1) .

فالكلمات هنا بمعنى الأمر والنهى ، فلقد كلف الله نبيه إبراهيم بتكليفات أتمها على الوجه الأكمل وأحسن التعامل معها ، فأكرمه الله وجعله إماماً .

الخير والشر :

قضية الخير والشر فى الشرعيات واضحة محددة ، فما أمر الله به فهو خير ، وما نهى عنه فهو شر ، وتلك مسألة لا جدال فيها .

فالإيمان بالله والعمل الصالح والسعى فى حوائج البشر ، والرفق بالكائنات هو خير مطلق .

والكفر بالله ، والإفساد فى الأرض هو شر محض .

وبهذا جاءت نصوص القرآن المجيد ، فأمر الله تعالى بالمسارعة إلى الطاعة وسماها خيرات فقال :

﴿ .. فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ...﴾(2) .

﴿ .. وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾(3) .

ووصف الأنبياء المصطفين بالمسارعة إلى الخيرات فقال :

﴿ .. إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ... ﴾(4) .

وخص الله تعالى بعض أفعال الطاعة بوصف الخير ، فالرد الجميل والعفو

---

(1) سورة البقرة الآية ١٢٤ .
(2) سورة البقرة الآية ١٤٨ .
(3) سورة الحج الآية ٧٧ .
(4) سورة الأنبياء الآية ٩٠ .

والكلمة الطيبة خير ، فقال : ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى ... ﴾ (١) والتسامح والتنازل عن بعض الحق مع صفاء النفوس خير فقال : ﴿ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ (٢) وآداب الاستئذان في البيوت خير ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٣) .

وتعفف القواعد من النساء والتزام الحشمة خير ، فقال : ﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٤) .

والدين كله خير ، فتقوى الله والسمع والطاعة والإنفاق خير ، قال تعالى : ﴿ فَاتَّقُواْ اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٥) .

وفي تفسير الزمخشري :

﴿ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ﴾ نصب بمحذوف تقديره : ائتوا خيراً لأنفسكم ، وافعلوا ما هو خير لها وأنفع ، وهذا تأكيد للحث على امتثال هذه الأوامر ، وبيان لأن هذه الأمور خير لأنفسكم من الأموال والأولاد ، وما أنتم عاكفون عليه من حب الشهوات وزخارف الدنيا » (٦) .

وعكس ذلك هو شر في العمل وشر في الجزاء ، فالبخل شر ، قال تعالى : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (٧) .

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٦٣ .
(٢) سورة النساء الآية ١٢٨ .
(٣) سورة النور الآية ٢٧ .
(٤) سورة النور الآية ٦٠ .
(٥) سورة التغابن الآية ١٦ .
(٦) الكشاف ج ٤ ، ص ١١٦
(٧) سورة آل عمران الآية ١٨٠ .

والكفر شر .. قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴾[1] .

والحسد شر .. قال تعالى : ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾[2] .

وإهمال نعم الله وعدم الانتفاع بها انتفاعاً صحيحاً هو شر .. قال تعالى : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[3] .

* * *

أما قضية الخير والشر في الكونيات فهي نسبية ، فما قد تظنه خيراً قد يعقبه شر ، وما قد تحسبه شراً قد يتولد منه خير .. وحيث إن الإنسان قاصر عن إدراك حكمة الوجود ، وكل ما في الإنسان محدود ، سمعاً وبصرًا وعقلاً ، وقوة ، فيجب التسليم لله في قضائه وقدره ، قال الله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[4] .

وقال جل شأنه : ﴿ ... وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾[5] .

والإيمان بسبق العلم الإلهي يمنح الإنسان سكينة نفسية وهدوءا قلبياً وراحة بال ، وإلى ذلك أشار القرآن المجيد في قوله : ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾[6] .

---

(١) سورة البينة الآية ٦ .
(٢) سورة العلق الآية ٥ .
(٣) سورة الأنفال الآية ٢٢ .
(٤) سورة البقرة الآية ٠ ٢١٦ .
(٥) سورة النساء الآية ٠ ١٩ .
(٦) سورة الحديد الآيتان ٢٢ ، ٢٣ .

ومن أدب الحديث أن الشر منفرداً لا يضاف إلى الله تعالى بل إما أن يدخل في عموم الحديث كما في قوله جل شأنه : ﴿ .. وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ [1] .

أو يذكر بحذف الفاعل كما تفطنت الجن لذلك فقالوا :

﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ [2] .

أو يضاف إلى المخلوق كما قال العبد الصالح لموسى عليه السلام في خرق السمينة ﴿ فأردت أن أعيبها ﴾ ، وفي قتل الغلام ﴿ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ [3] .

وحين تحدث العبد الصالح عن إقامة الجدار قال : ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا ﴾ وكما قال إبراهيم عليه السلام في معرض تعداد نعم الله عليه :

﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ [4] .

فنسب الخلق والهداية والإطعام والسقيا والشفاء والإماتة والإحياء والمغفرة إلى الله عز وجل ، ونسب المرض إلى نفسه ولم يقل أمرضني !

التفسير القرآني :

القرآن المجيد يفسر بعضه بعضاً ، فالنصوص المطلقة تحمل على المقيدة ، فإذا قرأنا آيات كريمات مثل قوله تعالى :

﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [5] .

---

(١) سورة النساء الآية : ٧٨ .
(٢) سورة الجن الآية ۰ ١٠ .
(٣) سورة الكهف الآية : ٨١ .
(٤) سورة الشعراء الآيات . ٧٨ - ٨٢ .
(٥) سورة البقرة الآية ۰ ٧ .

﴿ .. مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ [1] .

﴿ .. كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ... ﴾ [2] .

فإننا نفهمها فى إطار آيات كريمات أخرى مثل قوله جل شأنه : ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾ [3] .

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ... ﴾ [4] .

﴿ .. فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ... ﴾ [5] .

وهناك فى عرف البيان القرآنى التيسير لليسرى والتيسير للعسرى ، وهما مرتبان على ما يبدأ به الإنسان فى نطاق التكليف الشرعى وما يختار لنفسه ، قال الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾ [6] .

وقد حاول البعض انتزاع آيات من سياقها وصرفها عن حقيقة مرادها ، فقالوا إن قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [7] صريح فى خلق الله لعمل الإنسان ، وإن قوله تعالى : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ [8] صريح فى نفى نسبة العمل إلى الإنسان .

والأمر بخلاف ذلك ، فإن لفظ « ما » فى قوله : ﴿ وما تعملون ﴾ موصولة : أى والذى تعملونه ، فإبراهيم عليه السلام يحتج على قومه بأن الله تعالى خلقهم وخلق المنحوت شجراً كان أو حجراً ، فكيف يعبدونه من دون الله بعد أن عملوه صنماً واتخذوه إلهاً ، ولا يعقل أن تكون « ما » مصدرية : أى وعملكم لأنه يؤدى

---

(١) سورة الكهف الآية : ١٧ .
(٢) سورة المدثر الآية : ٣١ .
(٣) سورة البقرة الآية : ٢٦ .
(٤) سورة المائدة الآية : ١٣
(٥) سورة الصف الآية : ٥ .
(٦) سورة الليل الآيات ٤ – ١٠ .
(٧) سورة الصافات الآية ٩٦ .
(٨) سورة الأنفال الآية . ١٧ .

إلى بطلان الاحتجاج عليهم .. فكيف ينكر عليهم ما خلقه الله ؟!

وقد اعترف الإمام الرازى فى تفسيره بأن الآية لا تصلح للاستدلال على خلق الأعمال والأولى ترك الاستدلال بها لما يلى :

١ - أنه تعالى قال : ﴿ **أتعبدون ما تنحتون** ﴾ أضاف العبادة والنحت إليهم إضافة الفعل إلى الفاعل ، ولو كان ذلك واقعاً بتخليق الله لاستحال كونه فعلاً للعبد .

٢ - أنه تعالى إنما ذكر هذه الآية توبيخاً لهم على عبادة الأصنام ، لأنه تعالى بين أنه خالقهم وخالق تلك الأصنام ، والخالق هو المستحق للعبادة دون المخلوق ، فلما تركوا عبادته سبحانه وهو خالقهم وعبدوا الأصنام ، لا جرم أنه سبحانه وتعالى وبخهم على هذا الخطأ العظيم ، فقال : ﴿ **أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون** ﴾ .

ولو لم يكونوا فاعلين لأفعالهم لما جاز توبيخهم عليها .

٣ - لئن سلمنا أن لفظة « ما » مع ما بعدها فى تقدير المصدر لكنه قد يكون بمعنى المفعول بدليل قوله تعالى ﴿ **أتعبدون ما تنحتون** ﴾ فالمراد بقوله ﴿ **ما تنحتون** ﴾ المنحوت لا النحت ، لأنهم ما عبدوا النحت وإنما عبدوا المنحوت ، فوجب أن يكون المراد بقوله ﴿ **ما تعملون** ﴾ المعمول لا العمل حتى يكون كل واحد من هذين اللفظين على وفق الآخر »[١] .

وفى مسألة الرمى فإن الله تعالى أثبت الرمى لنبيه ﷺ فى قوله : ﴿ **إذ رميت** ﴾ فعلم أن الرمى المنفى غير الرمى المثبت ، ذلك أن الرمى له ابتداء وانتهاء ، فالنبى ﷺ قد بدأ الرمى لكن إصابته للهدف موقوفة على عوامل كثيرة ، الله صانعها وخالقها ولا دخل للرامى بها ، فالإنسان يسعى ويتخذ الأسباب ويدع العواقب لله أحكم الحاكمين .

* * *

---

(١) التفسير الكبير ، ج ٢ ، ص ١٤٩ .

خاتمة

قدمنا – بحمد الله تعالى – الإلهيات فى العقيدة الإسلامية انطلاقًا من وجود الله تعالى وتوحيده ، ومرورًا بالأسماء الحسنى والصفات العلا ، وانتهاءًا برؤية الله جل شأنه وقضائه وقدره ..

ووقفنا مع القارئ الكريم أمام بحوث ودراسات تغلغلت فى كافة الفرق الإسلامية ،وناقشت مذاهب وأديانًا شتى .

وكان رائدنا البحث عن الحقيقة فى مسالك هؤلاء وأولئك ، والتزمنا أمانة العرض ، وحسن الجدل ، ويسر الكلمة ..

وآثرنا الدعوة إلى التقارب بين المسلمين الذين تجمعهم عقيدة التوحيد وأصول الدين ، وضوابط التفكير السوى مهما كانت اتجاهاتهم المذهبية ..

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ..

* * *

المؤلف في سطور

دكتور محمد سيد أحمد المسير .

- أستاذ العقيدة والفلسفة بكلية أصول الدين - جامعة الأزهر بالقاهرة .
- عمل أستاذًا مشاركًا ، ثم رئيساً لقسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية فى كلية التربية - فرع جامعة الملك عبد العزيز بالمدينة المنورة ١٩٨٣ - ١٩٨٧م .
- أعير أستاذًا فى كلية الدعوة وأصول الدين - جامعة أم القرى بمكة المكرمة من سنة ١٩٩٣ - ١٩٩٨م .
- شارك فى عضوية المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بوزارة الأوقاف .
- شارك فى عضوية جمعية الدراسات الإسلامية بالزمالك .
- يشارك في عضوية الجمعية الفلسفية المصرية .
- يكتب المقالات فى المجلات والصحف الإسلامية فى مصر والعالم الإسلامى .
- يشارك فى البرامج الدينية الإذاعية والتليفزيونية لمصر والعالم الإسلامى .
- كان الأول على طلاب الجمهورية فى الشهادة الإعدادية الأزهرية عام ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م ، من معهد شبين الكوم .
- كان السادس عشر على طلاب الجمهورية فى الثانوية الأزهرية عام ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م ، وكانت المرحلة الثانوية يومئذ خمس سنوات .
- حصل على تقدير ممتاز مع مرتبة الشرف في الشهادة العالية من قسم العقيدة والفلسفة بكلية أصول الدين بالقاهرة عام ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣م .
- حصل على الدكتوراة بمرتبة الشرف الأولى من جامعة الأزهر عام ١٣٩٨هـ - ١٩٨٧م .
- شارك فى المؤتمرات والملتقيات الفكرية مثل :

* المؤتمر الحادى عشر لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر فى رجب ١٤٠٨ هـ .
* ندوة الفقه الإسلامى فى سلطنة عمان فى شعبان ١٤٠٨ هـ .

* الموسم الثقافي لشهر رمضان في دولة الكويت ١٤٠٩ هـ .
* الندوة القومية لمواجهة الدس الشعوبي في بغداد من ٢٢ - ٢٤ لشهر جمادى الأولى ١٤١٠ هـ .
* المؤتمر الإسلامي العالمي لمناصرة العراق المنعقد في بغداد في شهر ذي القعدة ١٤١٠ هـ (قبل الغزو) .
* المؤتمر القومي الذي نظمه المركز العربي للإعلام بالقاهرة تحت عنوان « الإدمان قضية العصر » من ١٨ - ٢٠ من فبراير ١٩٩٠م .
* المؤتمر الإسلامي العالمي لمناقشة أزمة الخليج الذي نظمته رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة من ٢١ - ٢٣ من صفر ١٤١١ هـ .
* النـدوة العالمية لمناقشة حقـوق الإنسـان بين الإسلام والغرب في طهران بتاريخ ٩ - ١٢ من سبتمبر ١٩٩١م .
* المهرجان الإسلامي العالمي في الكويت للإفراج عن الأسرى والمحتجزين في سجون العراق من ١٩ - ٢١ يناير ١٩٩٢م .
* الموسم الثقافي لشهر رمضان في دولة الإمارات العربية المتحدة ١٤١٢ هـ .
* ندوة الإعلام الإسلامي بين تحديات الواقع وطموحات المستقبل ، التي نظمتها مؤسسة إقرأ الخيرية بالتعاون مع جامعة الأزهر في ذي القعدة ١٤١٢ هـ - مايو ١٩٩٢م .
* سافر مع وزير الأوقاف المصري ضمن وفد رسمي لزيارة دول الكومنولث الإسلامية بتاريخ ١٣ - ٢٥ سبتمبر ١٩٩٢م .
* المؤتمر الثاني عشر لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر من ٢ - ٥ لشهر جمادى الأولى سنة ١٤١٣ هـ .
* مؤتمر التوجيه الإسلامي للعلوم الذي نظمته رابطة الجامعات الإسلامية بالاشتراك مع جامعة الأزهر سنة ١٤١٣ هـ .
* الندوة العلمية « في قلب الشرق : قراءة معاصرة لأعمال لِوِي ماسنيون » ، التي نظمها قسم الفلسفة بكلية الآداب - جامعة القاهرة مع المركز الفرنسي للثقافة والتعاون يومي ١٤ ، ١٥ / ٣ / ١٩٩٩م .
* المؤتمر الدولي الرابع للفلسفة الإسلامية في كلية دار العلوم - جامعة القاهرة ، تحت عنوان « الإسلام في عصر العولمة » بتاريخ ١٨ ، ١٩ من المحرم ١٤٢٠هـ - ٤ ، ٥ من مايو ١٩٩٩م .

كتب للمؤلف

فى العقيدة :

١ - فى نور العقيدة الإسلامية .
٢ - أدب الحديث عن الله .
٣ - علم التوحيد للشهادة الإعدادية الأزهرية .
٤ - التمهيد فى دراسة العقيدة الإسلامية .
٥ - الإلهيات فى العقيدة الإسلامية .

فى الفلسفة :

٦ - الروح فى دراسات المتكلمين والفلاسفة .
٧ - المجتمع المثالى فى الفكر الفلسفى وموقف الإسلام منه .

فى الأديان :

٨ - المدخل لدراسة الأديان .
٩ - أصول النصرانية فى الميزان .
١٠ - أوربا والنصرانية .
١١ - المسيح ورسالته فى القرآن .
١٢ - عبادة الشيطان فى البيان القرآنى والتاريخ الإنسانى .

فى الفرق الإسلامية :

١٣ - قضية التكفير فى الفكر الإسلامى .
١٤ - الحوار بين الجماعات الإسلامية .
١٥ - مقدمة فى دراسة الفرق الإسلامية .

فى السيرة النبوية :

١٦ - الرسول فى رمضان .
١٧ - الرسول حول الكعبة .
١٨ - الرسول والوحى .

١٩ - الرسول وقضايا المجتمع .
٢٠ - الرسول والموافقات .

فى الشريعة الإسلامية :

٢١ - محاورة تطبيق الشريعة .
٢٢ - نحو دستور إسلامى .
٢٣- أخلاق الأسرة المسلمة .

تحقيق مؤلفات فضيلة الدكتور سيد أحمد رمضان المسير - رحمه الله تعالى :

٢٤ - السنة مع القرآن .
٢٥ - السنة المطهرة .
٢٦ - إلزام القرآن للماديين والمليين .
٢٧ - دراسات قرآنية .

★ ★ ★

فهرس الكتاب

الموضــــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضــــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ١٠٤٢٦ / ٩٩ م

دار النصر للطباعة الإسلامية
٢ - شارع نشاطى شبرا القاهرة
الرقم البريدى ــ ١١٢٣١

دار الاعتصام للطبع والنشر والتوزيع
٨ شارع حسين حجازى - القاهرة

هاتف ٣٥٥١٧٤٨ - ٣٥٤٤٧٤٨ - فاكس ٣٥٤٦٠٣١
ص.ب ٤٧٠ القاهرة - الرمز البريدى ١١٥١١

